كامرون رايت

# جامعة الإيجار

مكتبة

ترجمة:
إيمان حرزالله

لا توقف رحلة القراءة عند هذا
الكتاب سجل في مكتبة الآن
وانضم إلى أكبر موفر للجديد من الكتب

امسح الكود أو اضغط الصفحة اتبع الرابط

جامعة الإيجار

جامعة الإيجار
كامرون رايت
ترجمة: إيمان حرزالله
منشورات سدرة
بريد إلكتروني:
Sidra.publisher@gmail.com
انستغرام:
@sidrapublishing
تويتر:
@sidrapublishing

مكتبة
t.me/soramnqraa

# جامعة الإيجار

كامرون رايت

مكتبة
t.me/soramnqraa

ترجمة: إيمان حرزالله

إلى واهب الآمال والأحلام والفرص الأخرى.

الصورة 1

«حين ستفهم كمال كل شـيء ستلقي برأسك إلى الخلف وتضحك إلى السماء».

بوذا

# الفصل الأول

كنتُ أعتقد أن الأبطال لا يوجدون سوى في الأساطير ، وأن الشر انتصر على الخير في العالم، وأن الحب الحقيقي الإيثاري الراسخ لا يوجد في سوى مخيلة فتاة صغيرة. كنت متأكدة أن الأقدار صماء، وأن بوذا في طي النسيان، وأنني لن أرى طبيعة قريتي الجميلة مجددًا أبدًا.

عرفت بعد ذلك عن المتحولين، والظلال، والتضحية، وفهمت أخيرًا معنى المثل الشعبي الذي نُقِشت كلماته العزيزة في ذهني: *أصعب معارك الحياة تلك التي نخوضها في داخلنا .*

عرفت ذلك العام أيضًا جامعة الإيجار.

مكتبة
t.me/soramnqraa

***

*بيب بيب بييب.*

الضجة الثابتة للشاحنات البغيضة تحاول اقتحام حلمي الهادئ، كنت فيه طفلة تقفز في الطريق إلى حقول الأرز حيث تعمل أسرتي في قرية بري فينج في ريف كمبوديا . صباح مبهج وأنا أمسك بأصابع جدي النحيلة، أستعجله وهو يحاول اللحاق بي.

أقول وأنا أخب بحيوية ونشاط: «أسرع أيها *الحلزون العجوز*».

فيجيبني ساخرًا «لو كنتُ حلزونًا، فأنتِ *ملح*، وستضطرين إلى جرِّ جثتي إلى البيت والتوضيح لأهل القرية ما فعلتِه!».

لا أهتم بما يقوله وأظل أقفز كالضفدع من صخرة إلى أخرى على طول الطريق.

«رائع»، أجيبه دون أن أبطئ سيري، «الجميع في القرية يحبون الحلزون. سنأكل الليلة كالملوك».

ألمح ابتسامته الخفيفة قبل أن يتنهد بعمق، لكنه يتوقف فجأة، ينظر إليَّ بتركيز ويميل برأسه. ثم ينظر إلى الحقول البعيدة حين نشعر نحن الاثنان بالأرض تهتز تحت أقدامنا.

يقترب مني ويميل عليّ، ينظر إليَّ ويقرأ أفكاري كأنه عرّاف القرية. أجد ذلك مربكًا فأخفض بصري إلى أصابع قدميّ الحافية القذرة، لا يسمح لي، يرفع ذقني بلمسة من إصبعه العرقان ويتحدث بهدوء، وببطء قليلًا، ليتأكد أن الصغيرة تنتبه إلى كل مقطع باسِم من كلماته. يقول:

«لن تكون الحياة صعبة وقاسية دائمًا. معاناتنا ليست سوى دقيقة».

أحدق إليه، أحاول فهم ما يقوله، لأن حياتي *ليست صعبة* ولا *قاسية*. ما زلت صغيرة للغاية لأدرك أننا فقراء، وأننا، رغم جمال قريتنا وساعات عمل أسرتي كل يوم، لا نملك الأرض التي نعمل فيها. لم أفهم بعد أن كسب المال لشراء الطعام الذي سنأكله في اليوم نفسه مغامرة لا يباركها العالم.

تعلو الضجة، ويسير جدي على أطراف أصابعه، مضيفًا:

«تذكري يا سانغ لي. حين تجدين هدفك -وسوف تجدينه- لا تتركيه أبدًا. السعادة في الصبر والمثابرة».

كيف لطفلة أن تتظاهر بفهم كلام غامض كهذا؟

«سانغ لي»، يكرر اسمي كأنه يجد متعة فائقة في نطقه، «سيبدأ يومك، وسيكون يوم حظ كبير».

تغيظني ألغازه، وكلماته المتساقطة كيراعات دائخة. أمد يديَّ إلى خديه وأضمهما معًا بقوة قائلة: «ماذا تقول يا جدي؟ أنا لا أفهم شيئًا».

تتحرك شفتاه ويزداد صوته شبابًا وقوة وهو يردد، «يا سانغ لي، وصلت الشاحنات. حان وقت ذهابي. يا سانغ لي، استيقظي. وصلت الشاحنات. حان وقت ذهابي».

يهزني زوجي، كيم لي، لأستيقظ، فأدرك أن جدي لم يبتعد عن حلم طفولتي الهادئ. بل أنا من اضطررت إلى ذلك.

تؤكد لي لمسة زوجي، وحركة طفلي، وضجة الشاحنات الزاحفة أنني لست في السابعة من عمري في قرية طفولتي البعيدة، بل امرأة بالغة في التاسعة والعشرين، تعيش في ستونغ مانشي.

«أنا آسفة»، أهمس للقامة الداكنة للرجل الذي يقف أعلاي. «كنت نائمة. حلمتُ أنني...».

أفرك عينيّ. لا يهم حلمي. كان علي أن أضع أرز الليلة الماضية في سطله الصفيح لغدائه. عليه أن يبدأ اليوم مبكرًا، لأن علينا كسب 12.000 ريل إضافية لندفع للبقرة.

«آسفة»، أكرر معتذرة بكل النعومة والإخلاص التي يمكن لزوجة مرهقة ودائخة أن تستخدمها.

«اذهب أنت. وسآتي إليك بالغداء».

يتنهد بعمق مثل جدي في الحلم. ويقول: «إن جئتِ، احذري جيدًا أرجوكِ. انتبهي إلى الإبر وقفي بعيدًا عن الشاحنات، بعيدًا جدًا. أنت تعرفين ما حدث لبراك سيم».

أومئ برأسي، ما زلت ناعسة، لكنني أتساءل إن كان بإمكاني العودة إلى النوم بعد ذهابه، وإغماض عيني ومراودة أحلام جدي لتعود إلى ذهني، حينها يبكي الصغير.

يحمل كي ابننا نيساي من على الأرض حيث ينام قريبًا من طرف مرتبتنا ويمرره لي بحرص. في شهره السادس عشر تقريبًا وما زال صغيرًا بما يكفي لأحمله بذراع واحدة بلا عناء. يجب أن يتحدث الآن، أن يراقب شفتينا، وينتبه إلينا حين نناديه باسمه، ويقلد كلماتنا بضحكات وقهقهات طفولية. لكنه بدلًا من ذلك، حين يكف عن البكاء، يحملق بنظرة خاوية وبعيدة. شعره خفيف برقع خالية في فروة رأسه، وبطنه الصغيرة بارزة أسفل ضلوعه النحيلة كأنه ابتلع كرة، وأشعر بأنني أم مهملة كلما أخذته معي إلى شوارع المدينة.

الأمر ليس لأننا لا نطعمه، إننا نتوسل إليه ليأكل. لكنه حين يأكل، يتسابق الطعام في داخله تقريبًا، ليصل إلى الطرف الآخر بسرعة في نوبة إسهال ليلي تجعلني أنظف الأرض بالفرشاة كل صباح.

يسألني كي: «هل نعطيه الدواء الآن؟».

فأجيبه: «بل بعد الأكل. ليساعده على الاحتفاظ به».

«لنأمل أن يتحسن»، يجيبني ثم يتوجه إلى الخارج.

«أنـا متأكدة أنـه سيتحسـن»، أجيبـه وأريـد أن أخبـره عـن حلمـي. لكننـي ألـف ابننـا فـي منشـفة وأهدهـده بيـن ذراعـيَّ ليهـدأ بـكاؤه.

«أرجـوك انتبهـي جيـدًا»، يكـرر كـي وهـو يعبـر السـتار الخيـش بابنـا الأمامـي ليرتـدي حـذاءه العالـي الرقبـة.

أرفـع ذراع الرضيـع النحيلـة وألـوح بهـا وداعًـا لبابـا، لكـن كـي ليـم غـادر بالفعـل ويغـذ السـير فـي غبـش الصبـاح المبكـر، ليلبـي النـداء المتواصـل للشـاحنات المتجشـئة.

«حلمـت بجـدي مجـددًا»، أهمـس أخيـرًا للوحيـد الـذي قـد يسـمعني، طفـل يرضـع مـن ثديـي الآن بهـدوء فـي العتمـة، ثـم أضيـف: «لكنـه اليـوم كان مختلفًـا».

أسـمع تنفسـه الصعـب، أتخيلـه يميـل برأسـه ويسـألني: «*كيـف؟ كيـف كان الحلـم بالجـد مختلفًـا اليـوم يـا مامـا؟*».

أسـكت قليـلًا بشـكل تلقائـي قبـل أن أجيبـه، قليـلًا فحسـب لزيـادة اهتمامـه. «كان مختلفًـا يـا نيسـاي لأن جـدي أخبرنـي قبـل أن يذهـب أن اليـوم سـيكون يـوم *حـظ كبيـر*».

***

حيـن يسـألني النـاس أيـن أسـكن، أجيبهـم بأننـا نعيـش علـى ضفـة نهـر جميـل يدعـى *سـتونغ مانشـي*. اسـمه بالفعـل، ورغـم كل شـيء، يعنـي نهـر النصـر. إن كانـوا يعرفونـه، يتـرددون قليـلًا، ثـم يبتسـمون بشـك، ثـم نضحـك نحـن الاثنـان طويـلًا، لأن سـتونغ مانشـي، رغـم تسـميته نهـرًا، لكنـه أكبـر مكـب قمامـة فـي بنـوم بنـه، بـل فـي كمبوديـا بأكملهـا.

مكان جبلي، مساحته تزيد على مئة فدان. تعلو فيه أكوام القمامة المتعفنة عن سطح الأرض بمئات الأقدام، وتحيط بها أودية متحولة أبدًا تتعرج وتتقاطع كشبكة عنكبوت الغابة. قد يُعد التجول في دروبها المتغيرة خطرًا.

أربط شعري خلف رأسي وأخرج من الكوخ المدعو بيتنا: ظلة بثلاثة جدران من المادة المستخدمة لحماية أجولة الإسمنت من الأمطار. تقع على قمة ربوة صغيرة شمال شرق المكب، تعلو قليلًا على الأكواخ البعيدة في كل الأنحاء.

مع حظر البناء في المكب نفسه، يطل بيتنا على منظر عام فسيح لا يعوقه شيء ومن حين إلى آخر يكون رائعًا، خاصة بعد هطول أمطار غزيرة لتزيل الضباب الثابت. في الحقيقة إن حاول أحد بناء مأوى دائم على أرض المكب، يهدمه له رجال الحكومة (بلطجية مأجورون). لذلك، فمملكة ستونغ مانشي الشاسعة حصن منيع، تحرسه قلاع من الصفيح والكرتون على حدوده كلها.

لا أريد تصوير المكان كأنه بائس وكئيب تمامًا. بل على النقيض من ذلك، برغم الصعوبات، تمر لحظات تشعر فيها كأن الحياة في المكب عادية، بل وجميلة تقريبًا. تأكل الخنازير القمامة، يشكّل الأطفالُ الفرقَ للعب كرة القدم، يثرثر الآباء والأمهات عن يومهم، يولد الرضّع، وتستمر الحياة بضغوطها.

أعتز بهذه اللحظات الجميلة.

أقف في الخارج هذا الصباح وأمسح بعينيّ المنظر، مستبشرة بما يخبئه القدر لنا. الدخان اليوم محتَمل. خففته أمطار غزيرة هطلت ليلة أمس مدة وجيزة، وأومئ لجيراني البعيدين المنهمكين

بالفعل في أنشطتهم اليومية. أهش الذباب من حول جرة مياهنا، أعب طاسة ماء وأعود بسرعة لتنظيف مرتبتنا حيث ينام نيساي. لم يتحسّن، لذلك ظللت أسابيع أنظف إسهاله أول شيء في الصباح. قد يبدو الأمر مقرفًا، لكنه في مكان دوامات الروائح هذا بالكاد نلاحظه. بل إنه أهون مشكلاتنا.

أمزح حين أقول إننا نعيش على ضفة نهر، مع ذلك توجد في مزحتي حقيقة ما. لأنه حين تسقط الأمطار، وتتخلل القمامة المتعفنة، تنضح سوائل لاذعة ممتزجة، لتسري في جداول مقززة. يتجمع الماء ثم يجف مخلفًا بقعًا سوداء قبيحة تظل مكانها أيامًا. تجعلنا نحك جلودنا. وفي الغالب تلسع فحسب.

ليس من الحكمة بالطبع لمس هذا الماء الملوث، لكنه يصعب تجنبه. أترى، لم نصل بعد إلى طريقة للسير هنا دون أن تلمس أقدامنا الأرض.

مع ذلك، فالماء السام ليس أكبر خطر يهددنا. بل الحرائق.

كما قلت من قبل. اليوم الدخان محتَمل. في أيام أخرى، يظل عالقًا في بقع كثيفة تجعل من المستحيل رؤية أول كوم قمامة أمامك. النار والدخان موجودان لأن جبال القمامة المحيطة بنا تشكل وهي تتحلل غشاءً من غاز الميثان. ترتفع درجة الحرارة أسفل الأكوام العالية حتى يشتعل الغاز ويحترق. ستونغ مانشي مشتعل بالنيران دائمًا حرفيًا. ومن المستحيل تقريبًا إخماد ألسنة اللهب كلها. قد تزيح جرافات الحكومة القمامة المشتعلة جانبًا، بغرض الحد من الأخطار، لكنها للمفارقة، لا تعبأ بما تدهسه أو تدفنه في أثناء هذا.

ننال أخيرًا استراحة طويلة من الدخان حين يبدأ موسم الأمطار، لكننا حينها نعاني الأنهار البنية و... حسنًا، الحياة في ستونغ مانشي محيرة.

لا نعرف أبدًا هل نأمل سقوط أمطار أم لا.

***

تطرق البقرة بابنا مبكرًا.

لا ندعوها بقرة أمامها، وظني أنها لن تلاحظ ولن تهتم. قد يعجبها اللقب حتى بوصفه وسام شرف. اسمها الحقيقي سوبيب سين، ويعني «الجميلة الفريدة». كان أبواها موهومين ومبتذلين.

امرأة حادة الطبع وناقمة وغاضبة عاشت في ستونغ مانشي وقتًا أطول مما يتذكر أحد. يحكي البعض قصة -ربما أسطورة وربما لا- تقول إنها الابنة غير الشرعية لفادافاموخا، ملك أسطوري بجسد رجل ورأس حصان. (لو كان أبوها برأس حصان فسيفسر هذا الكثير). تقول الأسطورة إنه خبأ ابنته في سلة قمامة سنواتٍ لإخفاء دليل خيانته عن زوجته، ريك كساكسر ديفي ملكة الدم. وذات يوم، ساور ريك الشك في زوجها، فألقى بالسلة من السماء، فسقطت في ستونغ مانشي وسوبيب داخلها، وظلت هناك منذ ذلك الحين.

لا أصدق الأسطورة بالطبع. ملك أسطوري برأس حصان أو لا، يجب ألا يفرط في سلة قمامة جيدة بسبب سوبيب سين.

في مناسبات نادرة قد تجمع النفايات كبقيتنا. لكنها تقضي أغلب وقتها في النوم، أو السب، أو شرب نبيذ الأرز الرخيص.

وتظل مع بداية كل شهر -الوقت الوحيد الذي تبدو فيه صاحية إلى حد ما- تجمع الإيجار لعدد من الملاك من الأسر الفقيرة التي تسكن العشش المحيطة بستونغ مانشي. لذلك ندعوها دائمًا، إلى جانب *«البقرة»*، *«جامعة الإيجار»*.

لا تضيع سوبيب وقتًا. تبادرني كمعلمة غاضبة مات داخلها الصبر والاهتمام، قائلة: «ألديكِ نقودي؟».

أضع يدي في جيبي وأخرج كل ما نملكه، كل نقودنا، وأعطيها إياها (ما عدا القليل لشراء عشاء اليوم).

تعرف جيدًا فلا تضيع وقتها في عدّ النقود. «هذا ليس كافيًا. أحتاج إلى الباقي!».

أغمغم بعذر واهٍ يتردد على طرف لساني. لا تنتظر أكاذيبي وتبدأ توبيخي.

«أنتِ فتاة غبية يا سانغ لي، لديَّ من يتوسلون إليّ لاستئجار هذه المساحة».

هذا مضحك لو لم يكن حقيقيًا، لكن ليس النصف الأول، لأنني أنا وكي قد نكون أي شيء ما عدا كسولين، بل عن توسل الآخرين للسكن في ستونغ مانشي، ما يجعلني ابتسم.

«لماذا تبتسمين؟». تصيح فيَّ، «إن لم تدفعا الإيجار سأؤجر المكان لآخرين. أيتها الغبية!».

أريد أن أركل البقرة في ضرعها، لكنني أضم يديّ معًا بتوسل التماسًا بسيطًا للعذر.

«كان لدينا الباقي، لكن نيساي ظل مريضًا هذا الأسبوع، واشترينا له دواءً، دواء أمريكيًا، لنرى إن كان سيتحسن».

تقول بحنق: «غبية!».

حين أكون في مزاج جيد، أعد المرات التي تردد فيها سوبيب كلمة غبية. لكنها حانقة بشكل استثنائي هذا الصباح، لذلك أحاول أن أظل جادة وأقول:

«سيكون لدينا الإيجار اليوم، أؤكد لكِ. كيم في الخارج بالفعل يعمل عند الشاحنات. سيجمع أكثر مما يكفي». أفرد قامتي، لأوحي لها بالثقة.

تصيح فيَّ: «في يوم واحد؟ مستحيل!». فأومئ برأسي، لكن بحركة دائرية مبهمة، لا موافقة ولا اعتراض. تراقب رأسي يدور، ترشف من زجاجتها، وتبتلع بصعوبة. ثم تهتف بغيظ: «سانغ لي، أصحاب الأرض في انتظار نقودهم وأنا لديَّ التزاماتي الخاصة».

ثم تستدير بازدراء لتنصرف، لكنها تعاود النظر إلي قائلة: «سأعود الليلة».

في المكب لا نهتم كثيرًا بالملابس، لكنها وهي تعرج مبتعدة، أحاول كتم ضحكة. في أي وقت من العام، وحتى في أوج الحر لا تخلع المرأة جوربيها البنيين المتهدلين بسخافة حول كاحليها السمينين.

تشعر بسخريتي بشكل ما لأنها، دون أن تستدير ، تكرر تهديدها قائلة: «الليلة!».

مكتبة
t.me/soramnqraa

# الفصل الثاني

الشمس في ستونغ مانشي لا ترحم أحدًا. تجلد بسياطها الصغير والكبير، والبدين والنحيل، والمتواضع والمغرور. قال كي ذات مرة إنه لاحظ أنها تَحمو على الفقراء في هذه البقعة من كمبوديا فحسب، وهو محق، لكن لأنه لا يوجد أغنياء يعيشون في مكب القمامة. وحر الشمس صعب بشكل خاص على ملتقطي القمامة -من يجمعون النفايات القابلة للتدوير- لأن أغلبهم يرتدون قمصانًا بأكمام طويلة، وسراويل طويلة، وأحذية مطاطية ثقيلة عالية الرقبة لحماية أنفسهم من الذباب، والقاذورات، وألسنة النيران.

العمل شاق هنا حيث تكافح الأسر الأشد فقرًا في بنوم بنه للعيش على نفايات أسر أخرى، يقايضون بأملهم في الغد لسد رمقهم اليوم.

لمواصلة العمل ساعاتٍ طويلة من اليوم، يرتاح الكثيرون في بداية الظهيرة لتناول غدائهم تحت مظلة مرتجلة. مأوى مؤقت مكون من أرضية من الكرتون (المتوفر بكثرة في مكب القمامة)، ودعامات من خشب الخيرزان أو أغصان الشجر مربوطة معًا لتكوين هيكل، وملاءة أو قماش خيش مفروش أعلاه كمظلة.

أغلب المظلات بدائية ومرتجلة، لكن بعضها دقيق الصنع، ويعد عملًا فنيًا حتى. والمظلة التي تأخذ جهدًا في بنائها تصير أحيانًا أكثر من مجرد مأوى، بل واحة وسط القذارة، بؤرة تجمع.

لوحظت هذه الظاهرة بين النساء من ملتقطي القمامة بشكل خاص. ربما تكون مسابقة صنع عش في اللا وعي. قد تستخدم «جوراني كاهن» ملاءة مطبوعة بزهور بدلًا من الخيش القذر. وقد تضع «دارا نيك» طبقات عدة من الكرتون على الأرض لجعل الجلوس أكثر راحة. وقد تحمل «سيدا سون» وعاء ماء أكبر للنساء اللائي سينضممن إليها. حتى في ستونغ مانشي -أو ربما خاصة في ستونغ مانشي- يتوقون إلى القبول الاجتماعي.

برغم تلك الجهود، تظل الاستدامة مستحيلة.

أحيانًا يعمل سائقو الجرافات، التي تجمع القمامة في أكوام ليلًا، حول المظلات أيامًا عدة دون أن يمسوها. وأحيانًا أخرى، تتحول مظلة جميلة بُنيت بشق الأنفس خلال القسم الأفضل من الصباح إلى عجينة من أمل مدهوس بالقمامة في اليوم التالي. هذا درس يتعلمونه مبكرًا في ستونغ مانشي، لكنه ليس درسًا في العبث، بل في المثابرة. مثل النمل عندما تتهدم بيوته، نعود لنمسح الضرر بأعيننا، ثم نبدأ إعادة البناء فورًا وبلا تردد.

أغلب المظلات مغوية وساحرة حتى، مع ذلك لا أحد يتمتع بتفكير سليم يجرؤ على المبيت فيها ليلًا أبدًا، إلا إذا أراد الاستيقاظ تحت أكوام القمامة المتعفنة المشتعلة الخانقة. تبدو طريقةَ موت مرحة. يقول كي إن شقيق صديق ابن عمه مات بهذه الطريقة، لكنني أظنه يغيظني فحسب، يحاول إخافتي لأحذر جيدًا وأنا أتحرك في دروب المكب. كلما طلبت منه تحديد هذا الصديق أو ابن عمه يعدني بذلك، لكنه لا يفعل أبدًا.

***

حين أصل أنا وطفلي إلى منطقة المظلات على ربوة من القمامة أعلى موقف الشاحنات، أبحث عن كي. الوقت الظهيرة، مبكرًا للغاية لأغلب الجامعين لأخذ استراحة، والشاحنات ما زالت محتشدة. أميز بعض الجامعين لكنني لا أعرف الكثيرين. الوجوه في المكب تتغير باستمرار.

وضعت أرز كي في سطل غدائه، ما عدا قدر ضئيل هرسته لإطعام نيساي، وحين أرى زوجي أخيرًا ألوح بالسطل في الهواء بيدي الحرة ليراني. يشير لي أنه سيأتي فورًا. بوزن نيساي يخدر الجانب الأيسر من خصري، والجانب الأيمن على وشك، نبحث عن مكان لنجلس فيه.

حين يرانا محظوظ السمين يصيح لنا لننضم إليه: «من هنا يا سانج لي!».

بنى مظلة فظة نوعًا ما، لكنني أقبل دعوته وأضع نيساي على الكرتون في الظل. يبكي حين أضعه، لكنني أتركه على أمل أن يُعيده الحر إلى النوم.

«هل أتيت بغداء كي؟». يسألني محظوظ ببهجة لا يعقل أن يتمتع بها كائن حي يعيش في مكب قمامة. وأجيبه: «بالطبع، هل لديك أنت غداء؟».

يومئ برأسه ويبدو مسرورًا لسؤالي.

لا أعرف اسمه الحقيقي، لكنني لا أشك أنه خرج من رحم أمه سمينًا وسعيدًا. وللأسف، ولأنه طفل لقيط، لا يمكنني التؤكد من هذا من والديه. يدعى محظوظًا لأن لديه موهبة غير عادية في العثور على نقود ضائعة في القمامة. ويدعى سمينًا لأنه....

حسنًا، لأنه سمين. يقول الكثيرون إنه يبدو كبوذا صيني مبتسم (ليس البوذا الكمبودي، النحيل تمامًا). يتقبل محظوظ المقارنة بود، وقد ظل طوال العام الماضي يجمع تماثيل بوذا التي يجدها في القمامة. الآن، بعد عشرات الأشهر يعج كوخه بتماثيل بوذا مكسورة قد تجعل أي وافد جديد يظن الفتى متدينًا، أو مهووسًا، أو يتمنى أن يصبح راهبًا.

وبرغم لقبه، حياته لم تكن سهلة. تُرِك في المكب وهو في السابعة من عمره فحسب، بعد وصولنا بوقت قصير. لا أتخيل أن أترك طفلي، لكنني شهدت ما يكفي من يأس في حياتي لأفهم تفكير من يفعلون هذا. لكن ما لا أفهمه أنه مع وجود أماكن متنوعة ومتاحة لترك طفل -دور أيتام، مقابر، عيادات طبية أجنبية- كيف لأم أن تختار ترك ابنها في مكب قمامة، حيث يُلقى بالأشياء التي لا تستخدم؟

مع ذلك، نجا محظوظ بشكل مثير للإعجاب.

علّمه براك سيم كيف يفرز القمامة، فتى يتيم آخر أكبر منه بأربعة أعوام. على اختلاف سنيهما صارا صديقين سريعًا، يعملان معًا، ويعيشان كشقيقين. منذ ثمانية أشهر، مع ذلك، دهست شاحنة قمامة براك سيم ومات. لو كنت مكان محظوظ السمين وفقدت أسرتي في مأساة كهذه، في مكان بائس وكئيب، لكنت ركضت خلف الشاحنة وألقيت بنفسي تحت إطاراتها الضخمة التي بلا قلب. لكن ليس محظوظ. حتى يومنا هذا يظل مبتهجًا.

تتسع ابتسامة محظوظ وكي يقترب منا حاملًا حقيبته بجهد.

أقول لمحظوظ: «يبدو أنه يوم جيد جدًا لو لم يكن زوجي قد قرر جمع الصخور»، وأنتظرُ توضيح كي، الذي لا يضيع وقتًا.

«كانت الشاحنة الثانية هذا الصباح محملة بموصلات المواسير المثنية. سمعنا جميعًا قعقعتها وهي تسقط، وكنت هناك، وجمعت عددًا لا بأس به».

يومئ محظوظ بقوة، كأنه شهد كل هذا، حينها فقط ألاحظ جلوسه على حقيبة ممتلئة بالمعدن.

يسألني كي: «أتعرفين ما معنى هذا؟».

فأجيبه بسخرية: «أننا سنأكل اليوم؟». «أن لدينا ما يكفي لندفع للبقرة. سينكسر لها ضرع».

يضحك محظوظ كابن آوى، يفاجئنا ضحكه بشدة فنضحك نحن أيضًا، فيتقلب نيساي.

«أوه، وكدت أنسى»، يقول كي وهو يمد يده في الحقيبة، يبحث فيها ويخرج منها كتابًا. «إنه قديم، لكن ظني أنه سيعجب نيساي».

يعطيه لي، أقلّب صفحاته القذرة. الحافات متعرجة والغلاف الخلفي مبقع بالماء، لكن الرسوم داخله باهرة، وجافة، وألوانها لم تمس. ومع أنني لا أقرأ، أرى أنه كتاب أطفال بالتأكيد، هدية رائعة.

أسأل كي: «هل اشتريت هذا؟».

«لا. بل وجدته قبل وصول المواسير مباشرة. وجده مينج في الوقت نفسه، أمسك به قبلي بالفعل، لكنه أعطاه لي حين ذكّرته أن نيساي مريض.

أقول: «هذا كرم منه».

يواصل كي: «الآن، خذي ما لدي من نقود، واذهبي لشراء لحم خنزير وبابايا للعشاء، وبعض من الأرز الجيد. سأعود إلى البيت لاحقًا للاحتفال. من يعرف ماذا سأجد أيضًا؟».

بينما أهبط في درب القمامة المدهوسة، ترن كلمات جدي في رأسي.

«اليوم سيكون يوم حظ كبير».

****

رغم الشمس الحامية، أرفع ذقني وأخطو بثقة على الأرض المفروشة بالقمامة.

«لا أطيق الانتظار لرؤية وجه سوبيب»، أقول لنيساي، الذي يغمغم لثرثرتي فحسب وأنا أحمله في طريق العودة إلى البيت. «لن أقول شيئًا في البدء، سأتركها تطالب بنقودها، وسأطرق برأسي في الأرض وانتظر بصبر حتى ينمو غضبها، سيكون ذلك مثل مشاهدتنا غيومَ العاصفة تتجمع وتصطدم لتضرب المكب بالبرق والرعد».

أسكت ليؤكد نيساي صحة كلامي ويوافق على خطة أمه الذكية الحاذقة. مع أنه لا يقول شيئًا، لا يُسكتني فتوره. «عليَّ فقط أن أمسك نفسي عن الابتسام»، أقول، «سأقف هناك حتى تدعوني غبية اثنتي عشرة مرة على الأقل، ثم سأرفع ذقني وأسألها إن كانت قد انتهت، سيفاجئها هدوئي وثقتي بشدة حتى أنها ستسكت مذهولة. ثم، بعد أن تطلق نفسًا طويلًا قذرًا، وفي اللحظة التي ستعاود فيها الانطلاق مجددًا، سأفتح أصابعي وأقدم لها باقي إيجار هذا الشهر ومعظم إيجار الشهر التالي. إن لم تختطفه على الفور، سأدس النقود في يدها وأشير لها نحو الباب وأنا أقول: «انتهينا يا سوبيب!»».

رسمتُ مشهدًا جميلًا، أريد أن أصفق لنفسي. الأمر صعب بالطبع، بطفل على ذراع وكتابه في الذراع الأخرى.

لذلك أقول لنيساي: «ستقف أمك يا نيساي بكل فخر في مواجهة جامعة الإيجار بستونغ مانشي».

حينها فقط أسمع ابني يقرقر ويضحك.

****

يجلس نيساي على الأرض بين رجليّ. يبدو أفضل، فننتهز الفرصة لتفحص هديته- كتابه الأول. أشير إلى صورة وأنتظر أن يلاحظها، كأن أمه تقرأ له كل ليلة قبل النوم. لكنه يمد يديه إلى الصفحة بطريقة تقول، *لو أمسكت هذا الشيء فسأضعه في فمي على الفور.*

أُبقي الكتاب بعيدًا عنه، لكنه يصر.

«نيساي»، أقول، «سأقرأ لك قصة»، كأن توضيحي هذا سيمنعه من مضغ حافات الصفحات الشهية.

تؤطر الصفحة الافتتاحية رسومات أشجار جميلة. تقف تحتها أم كمبودية تهز مهد طفلها. لا بد أن الريح شديدة لأن أوراق الشجر تتطاير في دوامات حولهما وهما يراقبان بخوف ودهشة. ليست لديَّ فكرة عما تقوله الكلمات أسفل الصورة، لذلك أشير إلى الشخصيات لأؤلف قصتي الخاصة.

«هذه الأم تحب ابنها بشدة، تمامًا كما أحبك».

هذه بداية سخيفة لأي قصة مع أنها حقيقة، وأنا متأكدة أن نيساي يفهم أنني لا أفقه شيئًا. أقلب الصفحة لأرى أن الأم وابنها قد تسلقا جبلًا عاليًا. أقلب الصفحة التالية فأجدهما

أمام محيط أزرق عميق. أتساءل كيف يتحركان بهذه السرعة؟ لو كنت من كتبت هذه القصة، كنت سأفعل أشياء مختلفة بالتأكيد.

أهمُّ بالمحاولة مجددًا، باستخدام حبكة معقولة في رأسي، حين أسمع كي يقترب. سيدهش حين يرانا نقرأ. حين لا يدخل إلينا مباشرة، وأسمع صوت كلام مبهم، أدرك أنها سوبيب، ما زالت سكرانة وعادت لأخذ الإيجار.

«أنا قادمة»، أعلن غير راغبة في دخولها بيتي دون إذني. أترك نيساي على الأرض وأبعد الكتاب عن متناوله، مؤقتًا على الأقل، ريثما أرى سوبيب.

تكاد الشمس تغيب، وحين أزيح الستار، تستغرق عيناي دقيقة لتعتاد الرؤية. يهوي قلبي. إنها ليست سوبيب. إنه كي. سقط على الأرض ويزحف نحو البيت. قميصه مبقع بدم يسيل من خلف أذنه اليمنى. يحاول التحدث لكنه يبصق دمًا.

لا أفهم كلامه، لكنني أعرف ما حدث تحديدًا. توجد عصابات تتجول في المكب، تعرض كي للسرقة.

****

لا مزيد من الأحلام، لا مزيد من زيارات من جدي، لا مزيد من الحظ. بل في الصباح الباكر، أرى على المرتبة تحت رأس كي ما يبدو كهالات بدرجات من الأحمر والبني. نام ليلًا بشكل متقطع بقطعة قماش على الجرح، ورغم مرور ساعات، حين يجلس تسيل قطرات أرجوانية طازجة على رقبته من الخلف، تتسارع على جلده المصفر.

أقول همسًا حتى لا أوقظ الصغير: «كي، ما زلت تنزف». أمد يدي وأضغط قطعة القماش على شعره الملبد، وأضيف: «يجب أن نذهب إلى طبيب».

يجيب بيأس شديد: «ليس معنا نقود».

«لدي القليل من الأمس»، أقول، «ويمكننا الاقتراض من أمي».

«يا سانغ لي، أمك تعول نفسها بالكاد».

إنه محق. فأقول له: «خذ ما لدينا إذًا، حاول على الأقل. سنذهب معك». أمد يدي لأحمل نيساي، لكن كي يشير لي قائلًا: «ابقي مع الصغير!» بصوت صارم وقاس قليلًا بعد أن فقد ثقة الأمس.

أجيبه: «لا يمكنك الذهاب وحدك، ليس بهذه الحال».

"سانغ لي!» يقول بنبرة تجبرني على سماعه. «قلت لك سأكون بخير».

لا أجادله، بل أضع في يده آخر نقود لدينا، ثم أربط جرحه بقطعة قماش نظيفة. يدفع قدميه في صندله.

أريد أن أتبعه إلى خارج المكب لأتأكد أنه يسير في الشوارع الممهدة على الأقل، لكن نيساي يبكي مُعلنًا عن حاجته إلى التنظيف. فأراقب كي من خلف ستارنا وهو يبتعد ببطء عن البيت في الطريق المؤدي إلى المدينة.

أحب جدي وأشتاق إليه. هو من ربّاني فعليًا رغم كل شيء. مع ذلك، أحدق إلى السماء لأنهي محادثتنا. أتخيل أنني أضم خديه بيدي مجددًا وأنظر إلى عينيه. يداي ليستا لطفلة صغيرة، بل يدا امرأة بالغة، وإعلاني بسيط.

«حظًا سعيدًا يا جدي. كنا نريد حظًا سعيدًا!».

****

في وقت لاحق من الظهيرة، كنت قد أزلت الدم عن أرض البيت بالفرشاة، وأروح وأجيء مكررة المهمات اليومية وأنا أحاول إلهاء نيساي.

لم يعد كي بعد.

ثم أسمع صوتًا يناديني: «سانغ لي؟».

أعرف النبرة، ليس زوجي. عادت سوبيب. أتجمد مكاني، لكنها تناديني مجددًا بصوت أعلى.

«سانغ لي!».

أفكر في البقاء هادئة، لكن لا مكان للاختباء في بيتٍ من غرفة واحدة، ليس عليها سوى أن تزيح الستارة لتجدنا. ثم يبكي نيساي، فيسلّمنا. «خائن»، أتمتم.

أخطو نحو الستار وأمد يدي إلى طرفه. حتى قبل أن أفتحه، أشم رائحة الخمر ممزوجة بالاحتقار. لا تحيات بيننا.

«هل لديك بقية نقودي؟».

أطرق برأسي كما خططتُ، لكنني لا أتظاهر.

لم يكن لي أن أخطط تلك الخطة القاسية لمفاجأتها، أن أتخيل أن باستطاعتي إعطاءها النقود بعجرفة. كان غروري ما جلب الشر لأسرتي. الأجداد يعاقبونني بالتأكيد. يريد قلبي أن أشرح لها لكن عقلي يعرف أن هذا بلا طائل.

أجيبها، «لا. أنا آسفة».

ظلت سوبيب دائمًا ككلب قبيح نابح، حيوان يُزعج دون أن يعض. اليوم تكشف عن أسنانها. زمجرتها عميقة وبقرقرة. نظرتها رمادية وباردة. «غادروا غدًا!».

أتراجع خطوة إلى الخلف، ثم أتوسل إليها: «أرجوكِ، لا! لقد تعرض كي للسرقة ليلة أمس، جُرح رأسه، وأخذوا كل شيء».

تغمغم غير مصدقة: «يوجد عذر دائمًا. اذهبوا صباح الغد وإلا أرسلت إلى الشرطة!».

لا بد أن نيساي قد شعر بيأسي لأن غمغمته تحولت إلى بكاء. تنظر إليه سوبيب سريعًا فتلمح كتابه مفتوحًا على الأرض.

تتجمد مكانها. تتهدل كتفاها، وتحبس أنفاسها، وتخفض بصرها. تذوب عاصفة الغضب التي حدقت بنا منذ لحظات. تتقدم خطوة إلى الأمام داخل بيتنا كأنها لا تصدق ما تراه. تتقدم خطوة أخرى بفم مشدوه، ثم ترتعش، لكنها لا تتفوه بشيء. لما يبدو دقائقَ عديدة، لكنه ليس سوى دقائق قليلة، لا تقول شيئًا.

أحاول قراءة عينيها بصمت. أبذل جهدًا لأفهم ماذا يحدث، لكنني، مثل الطفلة في حلم جدي، لا أفهم شيئًا. تتقدم خطوة أخرى من ابني. أرتبك بشدة وأندفع غريزيًا لأحمل نيساي من على الأرض.

لا تأبه سوبيب بي.

يبدأ الصوت خفيضًا في البدء. ممتزجًا ببكاء نيساي، لست متأكدة من أين يأتي. قد يكون أنينًا مكتومًا لكلب جريح، لكنه بعيد للغاية، ثم أدرك أنه من سوبيب.

يعلو شيئًا فشيئًا، أنين متألم بشدة، كأن كل ظلمات الأرض تتآمر ضدها. تنحني وهي تنوح، تكاد تجلس على الأرض لكن بلا مقعد. تبدو كأنها تخشى لمس الكتاب، ثم بعد أن تداعبه بأطراف أصابعها، تمسك بالغلاف لتقربه منها، كأنه كنز ملكي.

إنه كتاب جميل، لكنه قديم وبالٍ. تفتحه بيديها المبقعتين، وتقلب صفحة واحدة، تتردد، ثم تقلب صفحة أخرى. تتصبّ عيناها على كل صورة جديدة، كأن كل رسم ملون يؤكد لعقلها ما تراه عيناها وتلمسه أصابعها: *إنه حقيقي. إنه ليس حلمًا*.

يعلو صوت أنينها، فأفهم أن المرأة -من ظننتها بلا شعور- تعاني عذابًا أليمًا حتى أنني لا أعرف ماذا أفعل. أمد يدي وألمس كتفها، ظنًا مني أن هذا سيساعد، لكنها لا تأبه بي. بل تبدأ، وما زالت جاثمة، الاهتزاز بهدوء شديد إلى الأمام والخلف، إلى الأمام والخلف. أبتعد عنها خطوة، أشعر بأنني رغم وقوفي في بيتي، يجب ألا أكون هنا، ولو حتى كوني شاهدًا على هذا الحزن والمعاناة الشخصيين للغاية.

أرجو أن يصل كي ليم لينقذني، ليساعدني في معرفة ماذا أفعل، كيف أساعد. لكنه لا يصل، ولوقت بدا كالأبدية لا تتحرك سوبيب من ركوعها على الأرض. ثم يخبو الأنين تدريجيًا، ومع كل زفير يهدأ النشيج، ويتباطأ الاهتزاز.

تنهض أخيرًا دون أن تقول شيئًا، ثم تسير مترنحة إلى ستار الباب، وإلى الخارج أمام بيتي.

أتبعها.

تبتعد ثلاث خطوات قبل أن تنتبه أول مرة لوجودي. تنظر أولًا إلى الكتاب في يدها، ثم إلى الخلف لي أنا ونيساي. حين تنظر إلى الكتاب مجددًا، أحس بما تفكر فيه، فأومئ برأسي، وألوح بيدي كأنني أقول: «تفضلي، احتفظي بالكتاب».

لا تشكرني لكن لا بد أنها فهمتني لأنها تستدير وتبتعد، يبتلعها ضباب المكب ودخانه.

أعيد نيساي إلى المرتبة في الداخل، لا أفهم شيئًا مما شهدته التوّة. أواصل أعمالي -ألهو مع نيساي، أنظف فوضاه، أسوي فراشنا- ويظل ذهني يعيد مشهد سوبيب والكتاب مرارًا وتكرارًا. كأن تشاهد فيلمًا مئات المرات، تعرف دائمًا كيف سينتهي، لكنه ذات يوم ينتهي بشكل مختلف.

كيف لامرأة خالية تمامًا من المشاعر أن يغلبها حزنها ويجعلها تعجز عن الكلام؟ والمشهد يحمل المزيد. في ذهني، وأنا أراقب فحصها كل صفحة من كتاب نيساي، تخطر لي الفكرة أخيرًا. فأقول بصوت عال: «هذا هو!».

أسكت لأدع رأسي يستوعب اكتشافي ويقلبه ويهضمه. كانت عيناها، انصبابهما على كل صورة، توقيت تقليبها كل صفحة، الحركة الناعمة لشفتيها. هل هذا ممكن؟ نعم، أنا متأكدة. سوبيب سين، المرأة التي ندعوها البقرة يمكنها القراءة!

يعود كي متأخرًا. أشعل مصباح الزيت ليرى طريقه إلى المرتبة. يبتسم. يتناقض اللاصق الأبيض والضمادة الشاش على رأسه مع لون بشرته البرونزي الذي عادت له حيويته مجددًا.

«الشكر للرب أنك عدت. كنت قلقة بشدة».

«أنا بخير»، يجيبني بعفوية، بعفوية شديدة.

«ماذا قال الطبيب؟».

«بارلي فو فرانسيه؟».

«ماذا؟».

«لا أعرف أنا أيضًا. كانت تتحدث الفرنسية. خاطت الجرح، وأعطتني حقنة، والآن، *أشعر بتحسن فعلًا*».

زال الغضب من وجهه. واتسع بؤبؤا عينيه على نحو غير مألوف وحديثه بطيء بشكل مريب.

«هل ندين لهم بالمال؟». أسأله رغم كرهي التحدث معه في هذا. لكنه، لدهشتي، لا ينزعج.

«كان العلاج مجانًا. ذهبت إلى عيادة الجمعية الخيرية بالقرب من المستشفى الروسي في جادة خيماراك. أتعرفين، العيادة التي يديرها الفرنسيون».

أعقد حاجبيّ. «لكنهم يعالجون النساء الحوامل فحسب، والرضع». أعرف هذا لأنني أخذت نيساي إلى هناك منذ أسابيع عدة.

تلمع عيناه المزججتان: «نعم، لكنني فقدت الوعي في طابق الانتظار لديهم. ماذا يفعلون؟ كنت أنزف على أرضيتهم».

حين يقهقه، لا يمكنني سوى أن أضحك معه، ضحكت على شعوره بالخدر أكثر من قصته. «ماذا أعطوك في جميع الأحوال؟».

«لا أعرف، لكنه يساعدني حقًا!».

«ما زالت النقود معك إذًا؟».

تعاوده جديته أول مرة منذ عاد، رغم التأثير المرح للدواء. يهز رأسه إلى الخلف والأمام وهو يضم قبضتيه، ليس بغضب، بل بحزم عاقل.

«يا سانغ لي، لا تقلقي بعد الآن من سرقات العصابات».

أسأله، «لماذا؟».

يأخذ نفسًا عميقًا ثم يرفع إحدى ساقي بنطاله. في الضوء المتراقص لمصباح الزيت الوحيد لدينا، أرى سكينًا حادة طويلة لا تخطئها عين مربوطة بكاحله.

****

في الصباح، أنزع ضمادته وأفحص جرحه. رغم تألمه تبدو الخياطة رائعة، وقد توقف النزيف، وأنا متأكدة أنه سيعيش يومًا آخر على الأقل. أعلن الخبر قائلة. «يا دكتور، أعتقد أن المريض سيعيش!».

ليس مرحًا مثلي. أعيد الضمادة، فيعود ليستلقي على الأرض. زال أثر الدواء السعيد تمامًا الآن.

دون توضيح، أرتدي بنطالي، وجوارب طويلة، وحذاء برقبة عالية، ثم قفازاتي وقبعة القش. «سأكون في الحديقة»، أعلن محاولةً الابتهاج.

مع العلم أن الأرز نفد لدينا، لا أرى حلًا آخر. وبما أن كي لا يقوى على الالتقاط، سأذهب اليوم بدلًا منه. يحدق إلي مدهوشًا، متأكدًا أنني فقدت صوابي. حين لا يتفوه بشيء، أحاول مجددًا. «سأترك الكهف لأصطاد. وسأعود بطعام».

ربما بلَّد الدواء إحساسه، أو أنني لستُ مضحكة كما أظن. في الحالتين أقرر التحدث بمباشرة، فأقول: «اعتنِ بالصغير يا كي. سألتقط أنا».

أسحب جوال خيش فارغًا، ألوح له وداعًا، ثم أخرج للقاء يوم جديد في مكب القمامة، وفي ذهني فكرة واحدة فقط: *ابق بعيدًا يا جدي. ليس لدي لا الوقت ولا الصبر لمزيد من حظك الكبير.*

***

قيل لي إن هناك شهادة جامعية متخصصة لدراسة الحضارات من طبقات قمامتها. إن كان هذا حقيقيًا، إن كانت هناك حقًا شهادة تدعى سومران فيشيا أو علم القمامة كما تزعم «دارا نيك»، فسأكون المعلمة. سؤال خيالي آخر: إن عرف الناس أن شخصًا ما سيفرز قمامتهم هل سيكونون أكثر حرصًا بشأن ما يلقونه فيها؟

أحد أول الأشياء التي تعلمتها، بوصفي طالبة في مكب القمامة، أن من يأمل عيش حياة كريمة هنا واهم. وإن أصر على المحاولة، فمن الضروري شرح ثلاث تقنيات تستخدم على نطاق واسع في فرز القمامة ليختار منها واحدة.

أشدها خطرًا الطريقة التي نادرًا ما يستخدمها كي، ما زالت لديه ندب، كونها دليلًا دامغًا على خطرها، في كاحله الأيسر. أحيانًا تشتعل النار في أعماق جبال القمامة حتى تلتهمها بالكامل حدَّ أن الجرافات لن تحاول إخمادها. في الصباح يغدو كل شيء قابلًا للاحتراق أو سامًا، طبقة من الرماد النقي تبرز منها قطع الخردة المعدنية ساخنة وجاهزة للقطاف. هذه الطريقة في

الجمع خادعة لأنك لو سرت بين الرماد مبكرًا جدًا، ستحرق القطع المختبئة حذاءك المطاطي العالي الرقبة خلال ثوان. البعض يلجأ إلى مواجهة الرماد ليلًا، معتمدين على وهج المعدن ليروا أين يخطون. وفي حين يكسب قلة من الماهرين للغاية (أو الأغبياء للغاية) جيدًا من هذه الطريقة، يحرق الكثير جلودهم وقد يلحق بهم ضرر بدني سيئ لدرجة أن يؤول بهم الأمر معاقين ويتوسلون الطعام في شوارع بنوم بنه- حياة أسوأ من جمع القمامة في ستونغ مانشي.

البديل الأفضل، وطريقة الجمع الأكثر شيوعًا (التي يفضلها كي)، هي العمل بالقرب من الشاحنات وهي تلقي بحمولاتها. وبالطبع، يعني العمل حول الشاحنات التي يتوق سائقوها إلى دهسك من باب التحمية فحسب، أن عليك أن تكون يقظًا وحريصًا دائمًا. هذه الطريقة تنافسية وضارية أيضًا. يتزاحم الملتقطون معًا، يمد الجميع بعصيهم المربوط بأطرافها مشبك معدني حاد لقطع أكياس القمامة، يدعونه مهماز الجمع، ويصطادون حقائب القمامة، بحثًا عن خردة من المعدن أو الزجاج أو البلاستيك يمكن بيعها للمشترين.

طريقة الجمع الأخيرة، التي أفضلها، هي العمل بعيدًا عن الشاحنات في مناطق مفتوحة مرت بها الجرافات بالفعل. إنها طريقة أقل ضغطًا وخطرًا، وللأسف أيضًا عائدًا. كذلك لا تتطلب تفكيرًا سريعًا، بل تتطلب جهدًا منهجيًا. إن كنت مثابرًا وصبورًا، قد تكون جديرة بالتجربة. أغلب من يتبع هذه الطريقة كبار السن والأطفال ومن يتعافون من جروح. أنا أفضلها لأنها تسمح

لعيني ويدي بالانفصال عن عقلي، فأعمل مثل روبوت، ما يمنحني الوقت للتفكير. وحسبما أراني، بلا نقود، ولا أرز، وطفل مريض، وزوج بجرح مخيط حديثًا ما زال ينبض في رأسه، لدي الكثير للتفكير فيه.

دائمًا ما أخبر كي أن من الخطر حقًا أن يرسلني للعمل في المكب، ليس لأن شاحنة قد تدهسني، أو قد أحرق ساقي أو قدمي، أو أسقط في بركة من الوحل السام -مع أن كل هذا وارد بالفعل- بل لأن أفكاري يتفكك بعضها عن بعض، وتمتزج بالعواطف، فتتكوم مثل القمامة المحيطة بي. تتكدس طبقة فوق أخرى، أعمقَ وأعمق، شهرًا تلو الآخر، تنضغط وتتقيح وتحترق. يومًا ما سيشتعل شيء ما بالتأكيد.

أين تعلمتْ سوبيب القراءة؟ ما الذي قد يجعل امرأة قاسية ومتوحشة مثلها تنهار باكية؟ هل يظن كي أن سكينه ستحميه من عصابات البلطجية حقًا؟ ماذا لو حدث المسكوت عنه؟ هل سنبقى أنا ونيساي وحدنا في ستونغ مانشي؟

أنهي عملي في وقت متأخر من النهار. ملأتُ نصف الجوال الخيش من خردة بلاستيك وصفائح معدنية أحملها على كتفيّ. أحملها إلى المشترين، حيث يصنفونها ويزنونها. يدفعون أقل مما توقعت، لكنني مرهقة للغاية لأساوم. آخذ نقودي ثم أذهب إلى بيت بائعة الأرز، أشتري كيلوي أرز وبعض خضراوات. تقول لي إنني أبدو هادئة اليوم، لست كعادتي. أرفع كتفيّ بأدب، آخذ طعامي، وأتوجه إلى البيت، آملة أن يكون كل شيء هناك بخير.

أظل هادئة اليوم لأن الخوف في قلبي يتصارع مع اليأس في عقلي، فيتركان طاقة قليلة لفمي. أعلن عقلي انتصاره في منتصف النهار وبدأ وضع خطة. إن جدي يحب الحظ، لكنني تعبت ولم يعد بإمكاني انتظاره. لم أتحدث مع جدي طوال اليوم لأنني أعرف أنه سيغضب حين أخبره أن حظه... حسنًا... نذل. لا يمر بنا، ولا يزورنا. ولا بد أنه قد تخلى عنا. كالصديق الذي يحظى بعمل في المدينة، ويبدأ كسب نقود جيدة، فلا يعود لزيارتك. ترقى الحظ أيضًا إلى حياة أفضل، ولن يعود.

بجدية، ماذا على المرء فعله حين لا يعود أجداده يسمعونه. ليأسي، تظل كلمات جدي تتردد في أذني. *من السهل وضع خطة. الأصعب هو التنفيذ.*

ويظل السؤال، هل ستفلح خطتي؟ أم سيظن الجميع، بمن في ذلك زوجي، أنني خبطت رأسي بشاحنة القمامة ففقدت صوابي؟ سيُذهل بلا شك، لكنه لن يكون الأشد ذهولًا. الأرجح أن من سيظن أن الروائح السامة حولي قد أفسدت عقلي أخيرًا ستكون المرأة التي ما زلت أكافح لأفهمها؛ سوبيب سين.

# الفصل الثالث

«مرحبا؟».

الصوت في الخارج أجش ولا أميزه فورًا. أزيح الستار، فأجد سوبيب. لا تبدو بخير.

تسألني: «هل يمكنني التحدث معك؟».

الآن أقلق. ليس لمظهرها الغريب بل لأنها لا تطلب الإذن بالتحدث أبدًا. لكنني أجيبها: «بالطبع».

فتسألني، «هل زوجك... كي ليم... هل هو بخير؟ سمعت أنه... جُرِحَ». تتلعثم كأن كلماتها سَكِرت معها.

لست متأكدة عن ماذا تسأل. لم تهتم بكي قط -ولا بأحد آخر- سواء أجُرح أم لم يُجرح. تغمغم بالسبب الحقيقي للزيارة قبل أن أجيبها.

«هل يمكنني شراء هذا الكتاب؟».

تحمل كتاب نيساي، ترفعه نحوي، كأنني قد أنسى ما حدث ليلة أن سارت مبتعدة وهي تقبض عليه.

«إنه لكِ. أخبرتك بهذا وأنت هنا...»، لا أعرف كيف أنهي كلامي. تنقذني مقاطعتها. «بكم؟».

«لا يا سوبيب. إنه هدية».

تبدو كأنها تسمع لغة غريبة لا تفهمها. وتمر ثوانٍ قبل أن تقول: «شكرًا لكِ». كلمة الشكر من سوبيب سين نادرة كنسمة هواء نقي في ستونغ مانشي. وما تقوله بعد ذلك يدهشني أكثر.

«سأُعلِّم على إيجاركم هذا الشهر بأنه مدفوع بكامله».

أختنق، وأترنح، ثم أمسك بأذني. سوبيب سين، جامعة الإيجار، الشخص الأشد طمعًا من بين جميع من أعرفهم، التي لا تهتم البتة بحالنا، ولم تنس إيجارًا واحدًا في حياتها قط.

أفكر في أنني بالتأكيد أحلم. أعض شفتي... تؤلمني. أنظر حولي في الغرفة... أجدني في بيتنا في المكب. لو كان حلمًا، لوجدتني في مكان ألطف من هذا بالطبع.

أقول أخيرًا: «هذا كرم منك، سيساعدنا هذا كثيرًا جدًا».

تتلكأ، كأن لديها المزيد، ثم تقول: «تلك الليلة... كنت... كنت أشرب. لا أتذكر الكثير...».

حان دوري لأقاطعها: «لا داعي للشرح يا سوبيب».

هذا كذب. أتمنى أن أفهم. والأهم من هذا، أفكر إن كان هذا هو الوقت المناسب لطلبي. أجادل مع نفسي طويلًا فتفترض انتهاء الحوار بيننا وتستدير لتغادر. تبتعد ثلاث خطوات قبل أن أهتف.

«سوبيب؟».

تتوقف، تدور على عقبيها، وتقول: «نعم؟».

«هل يمكنك تعليمي القراءة؟».

***

«أنا لا أحب هذا يا سانغ لي، هذا ليس صوابًا».

توقعت أن يتحمس كي ليم. ألا يرى أنني لو تعلمت القراءة، سيمكنني تعليم نيساي، ولعله قد يسلك مسارًا أفضل منا؟ أملنا الوحيد الآخر أن نُلحقه بإحدى مدارس المنظمات المدنية الخيرية

حين يكبر، لكن هناك آلاف الأطفال الفقراء في كمبوديا وأماكن قليلة للغاية. كوني أمًا، أريد أملًا أكبر من هذا.

أقول له: «حسنًا. إن لم أكن أنا، يمكنها تعليمك أنت إذًا».

يغيظه هذا أكثر، فيجيبني: «لا تكوني حمقاء. أنا أنبش في القمامة القذرة كل يوم لإطعامنا!».

«أنا آسفة. لم أقصد هذا. فقط...».

كيف أشرح له؟ أواصل قائلة: «يا كي، إن لم نمنح نيساي كل فرصة ممكنة لتحسين حياته...».

يتنهد، ولست متأكدة إن كان ضجرًا أو استسلامًا. ثم يضيف: «أنا فقط لا أريد أن يذهب ابننا إلى سوبيب، إنها دجالة، وأنا لا أثق بها».

لم أخبره ما حدث معها. لست واثقة بأنه سيفهم. بعد أن يغادر، يستعيد ذهني محادثتي معها.

سألتني مدهوشة قليلًا من طلبي: «لماذا؟ لماذا تريدين تعلم القراءة؟».

كان عليّ الاستعداد برد سريع، لكنني لم أكن مستعدة. ولزيادة الأمر سوءًا، استيقظ نيساي الذي كان نائمًا على الأرض، وبدأ يبكي ويصيح. أدركت أنه مفتاحي فقلت: «أريد تعليم ابني قراءة القصص، مثل الكتاب الذي معكِ... من أجله».

«ألهذا أهديتني الكتاب؟ لأعلمك القراءة؟».

تزداد نبرتها غلظة مع كل كلمة لحد شككت في حكمي على الأمر.

«لا، أنا.... حسنًا، نعم، نعم. لقد رأيت من مدى اهتمامك بالكتاب أنك ستفهمين أهمية القراءة لابني. سوبيب، أريد تعليم

نيساي القراءة ليجد طريقه خارج هذا المكب وإلى حياة أفضل».

«ما الخطأ في هذا المكب؟».، سألتني كأننا نعيش في الفردوس.

هل كانت جادة؟ ألا يمكنها النظر حولها؟ ألا ترى الدخان؟ ألا تشم الرائحة؟ لا أعرف لماذا انفعلتُ، لكنني انفعلتُ، ولم يكن ردي لطيفًا. سألتها بقرف: «هل أفقدك الشرب حواسك؟». وتوقعت أن تنقض عليَّ. لكنها سكتت كأنها سمعتني أتحدث بلغتها أخيرًا. ضمت شفتيها النحيلتين إلى الداخل دون أن تتفوه بكلمة. فانتهزتُ فرصة سكوتها وواصلت: «الحل الوحيد لشفاء ابني في خروجه من ستونغ مانشي».

فسألتني: «ماذا به؟».

«إنه ليس بخير. لم يكن بخير قط. لقد رأيتِه. جربنا علاج القدماء، وأخذناه إلى أطباء، فرنسيين وكمبوديين وأمريكيين. أعطونا أدوية، لكنها ما إن تنفد، تعاوده الحمى والإسهال. عليَّ فعل المزيد لمساعدته. عليّ فعل شيء *الآن*».

تغضنت ملامحها ورفعت كتفيها وقالت: «وتظنين أن هذا الشيء هو تعليمه القراءة؟ لماذا تعتقدين أن القراءة ستجدي إن كانت الأدوية لا تجدي؟».

كيف أشرح لها المشاعر غير المنطقية التي تموج داخلي، وتدفعني إلى هذا التحرك؟

«يا سوبيب»، أجيبها، «أنا لا أستبدل شيئًا بآخر. ولا أتوقع أن تشفيه القراءة بدنيًا. لكنني آمل أن تمنحه شيئًا ما ليتطلع إليه، سببًا للكفاح. أريد أن أومن بأن القراءة ستملؤه بالشجاعة».

أخـذت نيسـاي مـن علـى الأرض وحملتـه علـى ذراعـي لأهدئـه. تحولـت نظرتهـا إليـه، وبـدت حججـي أقنعتهـا لوهلـة. مـال رأسـها وهـي تراقبـه، كأن ذكريـات تعصـف بذهنهـا فتُفقِـد رأسـها توازنـه.

واصلـتُ قائلـة: «سـأسـتمر فـي الذهـاب إلـى الأطبـاء، والبحـث عـن إجابـات. لكننـي أعتقـد أن لا شـيء سيتغير حتـى يرغـب هـو فـي التحسـن. لـم يعـد بإمكانـي الاعتمـاد علـى حـظ جـدي بعـد الآن، لذلك نعـم، علـى مـا يبـدو مـن سـذاجة هـذا، أعتقـد أن القـراءة ستسـاعد نيسـاي. أعتقـد أنهـا ستمده بأمـل».

رغـم ضعـف حجتـي، لكـن توسـلي مـن القلـب، لذلـك اسـتحققت بعـض الاحتـرام علـى الأقـل. لكننـي لـم أنـل شـيئًا. زال الاهتمـام الـذي ظننـت أننـي لمحتـه فـي وجههـا، وبـدلًا مـن أن تُبـدي تعاطفًـا، كان ردهـا سـريعًا ومؤلمًـا. قالـت بتهكـم يزيـد قسـوة صوتهـا: «إن كنـت تبحثيـن عـن أمـل، فيجـب أن تعرفـي أن الأمـل مـات فـي سـتونغ مانشـي».

لـم تجفـل. لـم أعـرف إن كانـت جـادة أم لا. لـم تكـن نبرتهـا سـعيدة ولا ابتسـامتها سـخرية، فأدركـت وعيناهـا تطعنـان عينـيّ بعمـق، مـدى احتقـاري لهـا. ظلـت أسـناني تجـز بقـوة طـوال معركـة أعيننـا الصامتـة.

طرفـت عينـاي أولًا. «ربمـا مـات الأمـل فـي سـتونغ مانشـي»، أجبتهـا وأنـا أقتـرب منهـا لأتأكـد أنهـا تفهـم قصـدي. «أو...» أشـرتُ إليهـا بإصبعـي وأنـا أُخفِـض رأسـي كأن فكـرة جديـدة خطـرت لـي التـوّة. تركـتُ اللحظـة عالقـة وأنـا أشـحذ بقيـة كلماتـي. «...أو أنـك أنـتِ مـن مـات فـي سـتونغ مانشـي!».

ثـم تراجعـتُ خطـوة إلـى الخلـف. كنـتُ غاضبـة وتوقعـتُ نوبـة غضـب شـديدة فـي المقابـل.

لكنهـا سـكتت، ثـم ضحكـت. ليـس بقهقهـة كأننـي قلـت شـيئًا مضحـكًا، ولا بنخـر كأننـي فعلت شيئًا غبيًـا. بـل ضحكـة مـن أعمـاق صدرهـا، فاجأتهـا هـي أكثـر ممـا فاجأتنـي. ثـم جالـت بعينيهـا فـي المـكان بسـرعة، كأنهـا تراقـب كلبًـا يلاحـق ذيلـه. ظننـت، وأنـا أنتظـر داخـل كوخـي الصغيـر المكـون مـن ثلاثـة جـدران بسـتار كبـاب أمامـي، أننـي أسـمع الأجـداد أيضًـا يضحكـون.

ثم سكت الجميع.

اسـتدارت سـوبيب لتنظـر إلـيَّ، كأنهـا أرادت التؤكـد مـن عـدم وجـود أي سـوء تفاهـم. ثـم أعلنـت قائلـة: «توجـد شـروط».

«معذرة؟».

«قلت، توجد شروط».

«ما شئتِ».

«ألا تريدين سماعها أولًا، قبل الموافقة بسرعة هكذا؟».

أومأتُ برأسي: «نعم، بالطبع».

«أولًا، كل يـوم جمعـة، دون تأخيـر، سـتجلبين لـي زجاجـة نبيـذ أرز بوريه».

«أوكـي. يمكننـي عمـل هـذا». لـن يسـر هـذا كـي ليـم. «أي شـيء آخـر؟».

«نعم. ألم تسمعي؟ شروط، كلمة جمع. يوجد شرطان...».

لمنـع كلمـة بقـرة مـن التسـلل إلـى ذهنـي، أبـدأ حسـاب ثمـن نبيـذ الأرز البوريـه فـي رأسـي. لا. لـن يسـر هـذا كـي ليـم إطلاقًـا.

قالت، «ستنجزين الواجب المنزلي دائمًا».

«الواجب المنزلي؟».

«لا، ليس عمل البيت، بل كلمة واحدة، هوم وورك. قوليها ثانية».

من الواضح أن الدراسة بدأت. فأكرر: «هوم وورك».

«جيد. الآن، هل أنجزت أي واجب منزلي من قبل؟».

كانت توجد مدرسة في القرية التي وُلدت فيها، لكنني ذهبت إليها عامين فقط وأنا صغيرة قبل أن أنضم إلى أمي في العمل في حقول الأرز. لا أتذكر أي شيء يدعى هوم وورك. فاعترفت قائلة:

«لا لم أقم بشيء كهذا من قبل».

«ستبدئين الآن، وعليك المحاولة بكل جهدك. أرى أنك ذكية، لكن سيظل الأمر صعبًا. لن أدعك تضيعين وقتي. هل تفهمين؟».

«نعم».

«آخر شيء، ستحتاجين أقلام رصاص، وورقًا، وشيئًا ما جامدًا للكتابة عليه. هل يمكنك إحضار هذه الأشياء؟».

«أظن هذا».

«الظن ليس كافيًا يا سانغ لي. إن كنت تريدين بعث الأمل، فالفعل هو الأهم، هل يمكنك فعل هذا؟».

«نعم».

«حسنًا».

همت بالمغادرة لكنني استوقفتها بسؤال: «لكن يا سوبيب، متى نبدأ؟».

«سنبدأ ... يوم الجمعة!».

مكتبة
t.me/soramnqraa

# الفصل الرابع

كنت محققة بشأن كي ليم، لم يسره الأمر إطلاقًا.

«أنت لست جادة! علينا أن نشتري للشمطاء السكيرة نبيذ أرز بوريه؟ نبيذ الأرز العادي ليس كافيًا؟ من تظن نفسها؟».

قبل أن أجيبه يسأل سؤالًا آخر: «لماذا أنتِ متأكدة أن بإمكانها القراءة حتى؟».

«راقبت عينيها ليلة أن كانت هنا؛ كانت تقرأ كتاب نيساي».

«راقبتِ عينيها؟»،، يسأل.

«حسنًا، نعم، وقد كانت...» أسكت. إنه سؤال معقول، ولوهلة، أدرك أنني لست متأكدة تمامًا. قد يكون محقًا بالفعل.

فيواصل كلامه: «لنفترض لدقيقة فقط أنها تقرأ بالفعل، كلمات قليلة حتى. هذا لا يعني أنها تعرف ما يكفي لتعليمك، أو لتعليم أحد».

«حسنًا...».

«وكم ستستغرق من وقت؟ من سيعتني بنيساي؟».

يزداد قلقي مع كل سؤال. ربما كان عليّ منح عقلي المزيد من الوقت وأنا أضع خططي في المكب.

***

لم تمطر منذ أيام عدة والحر خانق. قبل النوم، أرفع ستار الباب طلبًا لبعض الهواء. الآن، بعد ساعات، ينفذ ضوء القمر من الضباب أخيرًا، فينعكس على عقارب ساعة الحائط المشيرة إلى

الثانية وعشر دقائق. ليس لدينا كهرباء وأحشاء الساعة منزوعة، فلا يتغير توقيتها أبدًا بالطبع. وجدها كي في المكب منذ أشهر عدة، وعلقتها على الجدار لأنني أحببت الزهور المطبوعة على وجهها. أظل أكرر عليه أنها صائبة مرتين يوميًا، وفي هذه اللحظة، إن جاز لي التخمين، سأقول إنها تقترب من الصواب.

رغم الرائحة الكريهة للقمامة المحترقة لم يتقلب زوجي ولا ابني ساعات. أمد يدي مجددًا لألمس الأقلام الرصاص الثلاثة المستخدمة بجوار مرتبتنا، كأن أحدها قد يحاول التسلل بعيدًا في الظلام. مثلي، تظل على الأرض في انتظار طلوع الصبح.

ساعدني محظوظ السمين في إيجادها، ولدهشتي، شحذهم لي كي بسكينه. أضعها على مرتبة النوم، مع أفرخ ورقية عدة متنوعة ومصنفة. الورق ليس جديدًا. كل ورقة عليها كلمات أو علامات على جانب منها. لا يهم، لديَّ مساحة كافية لكتابة حروفي. إلى جانب الأقلام والورق ترقد زجاجة نبيذ أرز ممتاز، الماركة الباهظة التي طلبتها سوبيب. احتج كي لكنني ذكرته أننا يمكننا شراؤها لأن سوبيب أعفتنا من دفع إيجار هذا الشهر.

في هدوء الصباح، يذكرني تنفس كي بشكوكه في جامعة الإيجار. لست متأكدة أن بإمكانها القراءة.

أتظاهر أن الساعة تدق بهدوء في الظلام، تعد الساعات، والدقائق، والثواني.. أخبرت كي أنني أريد تعليقها لأنني أحب

زهورها، لكن هذا ليس حقيقيًا تمامًا. يوجد المزيد. أحبها لأنها تؤكد لي أنه حتى الشيء المعطل، يمكنه تحقيق غرض ما. يومًا ما، إن توفر لدينا المال اللازم، سأذهب بها إلى صانع ساعات لإصلاحها. هذا سخف أعرف، لأن شراء ساعة جديدة سيكلف أقل.

**لكن أحيانًا تستحق الأشياء المعطلة أن يتم إصلاحها.**

تشرد أفكاري. هل سأتعلم القراءة؟ أتوسل إلى الأجداد أن يمنحوني فرصة فحسب. أنا أخطئ في أشياء كثيرة، لكنني أعتقد أن سوبيب يمكنها القراءة حقًا وأنها ستعلمني.

أتمنى أن أكون مثل ساعتي وتوقيتها، وأن تكون هذه واحدة من المرتين، حتى ولو كانتا مرتين فحسب يوميًا، أن أكون على صواب.

****

أندفع إلى الخارج في الصباح الباكر، وأمسح بعيني الأفق الضبابي، أحاول إيجاد سوبيب. الدخان كثيف يصعب معه تحديد الظلال. أدقق النظر دقائق عدة لأتأكد أن لا ظل منها لمعلمتي الجديدة. أحمل بعض الماء وأنظف الأرض مكان نوم نيساي في حال أرادت سوبيب الجلوس في الداخل. أجفف الأرض بقدر ما يمكنني، ثم أعود إلى الوقوف أمام البيت. لا معلمة.

يسقط الستار من أحد طرفيه، فأستخدم الصخرة التي يحتفظ بها كي بجوار البيت، لأدق بها مسمار الستار من أعلى لإحكامه. ثم أسمع شخصًا ما قادمًا فألتفت خلفي. لا يهم. إنه جارنا.

جـرة المـاء الكبيـرة إلـى جانـب بيتنـا تسـرب قليـلًا. ألفهـا حتـى تبدو لـي مسـتقرة جيدًا، ثـم أجثـم علـى ركبتـي وأنظـف حـول قاعدتهـا لتظـل مسـتقرة. أتخيـل أن سـوبيب سـتصل حيـن لا أتوقعهـا وتقاطعنـي، وربمـا حتـى أطـرت علـيّ كونـي عاملـة نشـيطة، لكنهـا لا تأتـي.

فـي الداخـل، أنظـم أوراقـي، أصنفهـا مجـددًا مـن حيـث الشـكل هـذه المـرة، وليس مـن حيـث المسـاحة المتبقيـة للكتابـة فـي ظهـر كل واحـدة منهـا. أمسـك بأحـد الأقـلام كأننـي علـى وشـك كتابـة شـيء مـا مهـم جدًا، مـع أننـي لا أتخيـل مـاذا. مكتبة سُر مَن قرأ

يغـص حلقـي أكثـر بعـد كل مهمـة، تغـور أنفاسـي، ويتشـوش بصـري، ويخبـو أملـي كقمـر الصبـاح. حيـن يصـل كـي وقـت الظهيـرة ليـرى كيـف أقضـي أول يـوم دراسـي لـي، يجدنـي أجلـس وحيـدة علـى المرتبـة. أضـم ركبتـيّ إلـى صـدري بقـوة. لا أبكـي، آبـى. ولا أتحـرك ولا أتحـدث حيـن يدخـل، أخشـى أن يحطـم أي ذكـر لمـا هـو واضـح، قـراري.

أتوقـع منـه أن يقـول: «لقـد أخبرتـك أن هـذا سـيحدث»، لكنـه لا يقولهـا، مـع أن تنهيـدة ثقيلـة أوصلـت ذلـك بالقـدر نفسـه.

يقول بدلًا من ذلك: «أين نيساي؟».

فأجيبـه: «أرادت أمـي أن تعمـل اليـوم فأخذتـهناريـن. سـأحضر لـك شـيئًا لتأكلـه، ثـم سـأذهب لإحضـاره».

لـي ابنـة خالـة، ناريـن سـوك، جـاءت إلـى المكـب مـن القريـة أيضًا. مـن حيـن إلـى آخـر، حيـن تقتضـي الظـروف، تعتنـي إحدانـا بأطفـال الأخـرى. ولأننـي لا أعـرف متـى سـتأتي سـوبيب تركـت لهـا نيسـاي منـذ الفجـر، بعـد أن ذهـب كـي مباشـرة.

الآن، بعد أن أعددت أرز كي، أرتدي صندلي، ثم نسمع نحن الاثنان شخصًا عند الباب بجوار ستارنا المسدل. نرفع بصرنا في الوقت نفسه. إنها سوبيب سين وبالكاد يمكنها الوقوف.

«أين كنت؟».، يسألها كي قبل أن تدخل وقبل أن أتفوه بكلمة. يبدو أنه نسي أنها ما زالت جامعة الإيجار، من لديها السلطة لطردنا من بيتنا في أي وقت.

تتجاهل نبرته، وتنظر خلفه كأنه غير موجود، ثم توجه سؤالها لي: «هل لديك نبيذي؟».

يميل كي جانبًا ليخفي الزجاجة عن نظرها: «لن تنالي شيئًا قبل أن تنفذي جانبك من الاتفاق».

«ابتعد عن طريقي!»، تهدده، على الأقل كما تهدد امرأة سكرانة مترنحة رجلًا أضخم وأقوى منها. تحاول الالتفاف حوله، لكنه لا يسمح لها.

«لا تجرئي!».

لا أعرف إن كان يدافع عني أم يضايقها. أفترض الخيار الأول وأقف بجانبه.

«كي، لا بأس». أقاطعه وألمس كتفه برفق. «الأمر لا يستحق»، أهمس. «ما زالت جامعة الإيجار».

ثم، وأمام سوبيب، أمد يدي وأضع في يدها زجاجة نبيذ الأرز الممتاز التي لمّعتها مرتين.

«أنتِ بحاجة إليها أكثر منا».

تهم بالمغادرة مترنحة لكنني أستوقفها.

«يا سوبيب، نسيتِ هذه». أجبر أصابعها على لمس أقلامي وأضغط يدها بقوة. ثم، وقبل أن ترى الدموع في عينيّ، أشكرها على المجيء وأتراجع إلى خلف ستارنا.

## الفصل الخامس

حين أصب قطرة من زيت المنثول في يدي، تتطاير رائحتها اللاذعة في الغرفة فيبدأ بكاء نيساي على الفور.

«أرجوك يا صغير، لم ألمسك بعد حتى».

لا يهمه وأسمع اعتراضه عاليًا وواضحًا. «*لم تلمسيني بعد حقًا لكنك ستلمسيني بالتأكيد!*».

وهو محق، لكن ليس لدي حل آخر. إنه علاج جربه والداي، ووالداهما، وأنا متأكدة أن سلسلة طويلة من الأجداد، تمتد إلى السماء، جرّبوه أيضًا. إنه بقدم كمبوديا نفسها. يدعى *كواه كشول*، ويعني كشط الهواء.

يبدأ باستخدام زيت مقطر من أوراق شجر المينتا أرفينيس [النعناع الحقلي]، عشب ينمو بوفرة في الغابة. ما إن يُدهن الجلد كله بالزيت، ويبدأ الجلد تشربه قليلًا، حتى تستخدم عملة معدنية أو قطعة معدنية مستديرة أخرى بمسكها من جانبيها في كشط ظهر المريض، وصدره، وذراعيه، بتربيتات طويلة متوازية.

يكشط الجلد لإخراج الهواء السام إلى سطح الجسد واستعادة التوازن الطبيعي بين الساخن والبارد، لحفظ التناغم بين هذين العنصرين الكونيين. وفي أثر جانبي، يسبب هذا أيضًا تمزق الأوردة الدموية الموجودة أسفل الجلد مباشرة، فتظهر خطوط كستنائية تشبه خطوط الحمار الوحشي تظل يومين أو ثلاثة قبل أن تختفي.

ذات يوم، منذ أسابيع عدة، وصل إلى ستونغ مانشي طبيب أمريكي من جمعية خيرية، منظمة مسيحية تقدم رعاية صحية مجانية لأطفال المكب مدة يوم. بالطبع انتهزتُ الفرصة، آملة أن أجد إجابات. حين لاحظ الطبيب الخطوط على جسد نيساي، دعا طريقتي، عبر مترجم، *هراء خرافيًا ومضيعة للجهد*. قال إن عليّ بدلًا من ذلك أن أثق بالأدوية الحديثة وأن أتم دورة مضاد حيوي أعطاه لي.

سأجرب أي شيء لمساعدة ابني، لذلك اتبعت تعليماته بدقة. ومع ذلك، عادت الأعراض بعد عشرة أيام حين انتهى الدواء. أريد أن أجد هذا الطبيب لأشرح له الفارق بين الخرافة والحدس، وأخبره أن دواء*ه* تبين أنه هو أيضًا *هراء ومضيعة للجهد*. لكنه لم يترك عنوانه.

لذلك أواصل بحثي عن إجابات، وأعزي نفسي، وأنا أدهن جلد ابني اليوم، بكلمات لتهدئته، ظني أنني أقولها لنفسي. «يا صغير، نحن نريدك أن تشفى فحسب. افهم هذا وأنت تتألم، هذا لمصلحتك. إن لم نفعل شيئًا سيسوء مرضك. أعدك أنك يومًا ما ستشكرني. تشجّع يا بني الصغير، وحين ستصبح أبًا، وتصب الزيت في يدك ويبدأ طفلك المريض البكاء ستتذكر».

****

ليس لدينا ماء جارٍ، إلا إذا حسبت صَبّي الماء من سطل. نشتري ماءنا من بائع في الشارع على مسافة أكواخ عدة ناحية الغرب، الذي بدوره يشتري من الحكومة مباشرة (اقرأ *رشوة*)، حقوق بيع الماء القادم من واحدة من المواسير التي تغذي

المكب. نحو مرة أسبوعيًا، أحمل الماء إلى بيتنا في سطلين كبيرين معلقين بطرفي عصا على كتفي. رحلة شاقة تتطلب الانتباه جيدًا في الدرب الذي أسير فيه كي لا أفقد توازني، وأسقط، وأسكب حمولتي الغالية.

هذا الصباح، أترك نيساي مع تيفا ماو، جارتي على مسافة بيتين على الربوة، وحين سأفرغ سأعتني بطفليها الصغيرين ريثما تقوم هي بالمهمة نفسها لبيتها.

وأنا في طريقي إلى البيت أكاد أصطدم بسوبيب التي جلست متربعة على الأرض تنتظرني. ينسكب بعض الماء حين أتوقف فجأة. إن كانت قد لاحظت غضبي فلم يبدُ عليها. تضع حقيبتها على الأرض عند جوربها المتهدل لتتمكن من الإشارة بيديها وهي تتحدث. أعلنت قائلة: «تبين أن الجمعة يوم صعب».

أريد أن أنفجر فيها قائلة: *«حقًا؟»*. لكنني لا أفعل.

أقول بدلًا من هذا: «للأسف نعم، بدوتِ في حال سيئة». أقصد أنها تصرفت كخنزير سكران، لكنني أُمسك لساني.

تسألني: «أأنت مستعدة؟».

أسألها: «لماذا؟».

« لنبدأ الدروس.. ألا تريدين تعلم القراءة؟».

«أنا... أوه... نعم.. ظني هذا، لكن نيساي... ثم علي أن أعتني بطفلي تيفا وهي تجلب...» تقاطعني: «يمكنني عمل ترتيبات. أتثقين بتيفا ماو لتعتني بنيساي؟».

«نعم... بالطبع».

«سأتحدث أنا معها. عودي بالماء وسوف آتي إليكِ في البيت».

لا أعرف ماذا أقول لكنني أتمتم أخيرًا: «حسنًا»، ثم أضيف، «هذا سيُدهش كي. لأنه لا يظن أنكِ...» .

أسكت في منتصف الجملة، نادمة على فرحتي التي أكدت غبائي. أتمنى ألا تلاحظ، لكنني أشعر بالذنب يسري بحرارة في وجهي وهي تلتفت إلي قائلة: «لا يظن أن بإمكاني *القراءة*؟».

«حسنًا، مم، ليس متأكدًا. ظن أنكِ ربما.... تدّعين».

أتوقع أن تغضب، لكنها تبدو سعيدة تقريبًا وهي تجيبني: «يا سانغ لي، لقد حظيت بألقاب كثيرة في حياتي. بعضهم يدعونني «سوبيب سين». وهنا في ستونغ منشي يدعونني «جامعة الإيجار». وما زال آخرون يدعونني «البقرة» ببساطة. لكن لقبي الأحب إلى نفسي الذي أعتز به بشدة كان منذ زمن طويل، في قسم الأدب بالجامعة الملكية لبنوم بنه. هناك، وتسعةَ أعوام رائعة، أجمل سني حياتي، كان طلبتي يدعونني *أستاذة*».

# الفصل السادس

أعرف بالفعل الأصوات الأساسية في لغة الخمير (الكمبودية)[1]. أقصد أنني، رغم كوني أمية، أتحدث اللغة بالفعل. أخبرني البعض (أغلبهم ممن لا يمنكهم القراءة والكتابة)، بعيدًا عن مسألة التحدث، أن تعلم التوفيق بين الأصوات والحروف سيكون سهلًا. *مفاجأة!*

ربما لسذاجتي الشديدة، توقعت أن تفهم سوبيب هذا.

«سانغ لي، انتبهي جيدًا! لن أكرر ما أقوله».

لا يمكنني سوى الإعجاب بالقلم اللامع الذي أمسك به في يدي، واحد من المجموعة التي أخرجتها سوبيب من حقيبتها الكبيرة. أضع سنه على الورقة الجافة غير المستخدمة الراقدة على اللوح اللامع على حجري، أحضرتْ هي كل الأدوات. أركز لملاحظة كل كلمة، لا يمكنني الكتابة بالطبع. لكنني ما زلت مستمتعة بمجرد التظاهر.

أرفع بصري بانتباه شديد تهدئه هي قائلة: «من فضلك يا سانغ لي، اتركي القلم، واسمعي».

أنا جالسة على الأرض، وهي تقف إلى جانب سبورة صغيرة. يسعدني أنها أحضرتها لأنها تجعل بيتنا الصغير يبدو كمدرسة. تكتب عليها بقطعة طبشور، ثم تمحو كتابتها بممحاة. اختراع عجيب حقًا!

---

(1) اللغة الكمبودية هي أكبر لغات العالم من حيث عدد الحروف الأبجدية، فعدد حروفها 72 حرفًا. (المترجمة).

تواصل قائلة: «تحدثنا بالفعل عن الحروف الساكنة والمتحركة. الآن تتقسم الحروف الساكنة في الخمير إلى مجموعتين. يعتمد صوت كل حرف متحرك على مجموعة الحروف الساكنة. أعرف أن الأمر يبدو معقدًا، لكنه ليس كذلك. إنها هذه الأصوات التي سنتعلمها أولًا. أتفهمين؟».

أومئ برأسي، لكنني لا أفهم.

«جيد، الآن، أمسكي بقلمك».

طوال الظهيرة تقريبًا، تكرر سوبيب حرفًا، وتكتبه على اللوح، ثم تعلن الصوت الذي يعبر عنه. أنسخه بالضبط كما تكتبه. لمساعدتي على تذكر الصوت، سمحت لي برسم صورة صغيرة بجانب كل حرف. إن كان حرف الطاء مثلًا أرسم صورة طائر بجانبه، طالما تطابقت الكلمة والحرف.

«الواجب»، تعلن سوبيب، «بعد ثلاثة أيام من اليوم، أريدك أن تحفظي الحروف التي كتبناها، بأسمائها وأصواتها. أيمكنك هذا؟».

«بهذه السرعة؟».

«نعم، هل يمكنك فعل هذا؟».

«سأحاول».

«المحاولة لا تكفي. هل يمكنك فعل هذا؟».

صار هذا السؤال مألوفًا. أجيبها: «نعم. سأفعل».

يبدو أنها راضية لأن رأسها يومئ مع رأسي: «هذا جيد. الآن، واصلي كتابة الحروف التي تعلمناها».

في أثناء كتابة الحرف الرابع، يرفع كي ستار الباب ويدخل الغرفة. ندهش نحن الاثنتان.

«ماذا تفعل هنا؟». أسأله، كأنه ليس مرغوبًا فيه. «ظننت أنك أخذت غداءك معك اليوم».

«غداء؟ يا سانغ لي، لقد حاون وقت العشاء».

«لكنه...».

تجمع سوبيب أدواتها وهي تقول: «لقد مرت قرابة ست ساعات يا سانغ لي، يجب أن تذهبي وتأتي بابنك، وأنا بحاجة ماسة إلى الشرب».

***

«كيف هي؟». يسأل محظوظ السمين، عيناه مستديرتان كخديه. لا أحد، بمن في ذلك هو، يمكنه تخيل سوبيب سين معلمة حقًا.

«إنها صارمة، لكنها ذكية أيضًا. أقصد، من كان يخمن؟».

«هل تضربك؟».

أضحك رغمًا عني. «تضربني؟ لا، بالطبع لا، ليس حتى الآن على الأقل».

سؤاله التالي يدهشني. يخفض بصره نحو قدميه أولًا، يحركهما في القمامة، ويقول: «يا سانغ لي، بعد أن تتعلمي... حين ستتمكنين من القراءة والكتابة... هل يمكنك...».

«ماذا تريد أن تقول؟ اسأل فحسب».

«هل يمكنك تعليمي القراءة والكتابة؟».

أضع حقيبتي على الأرض وأتخيل نفسي واقفة أمام السبورة، مثل سوبيب، أشرح لمحظوظ كيف يكتب كل حرف بدقة. آخذ نفسًا عميقًا، لا آبه للدخان الكثيف في الهواء، أحاول أن أتذكر

إن كنت قد سمعت طلبًا أعز من هذا في حياتي كلها. لا يمكنني التفكير في شيء.

يقاطع محظوظ أفكاري بعد دقائق عدة ويسألني أخيرًا: «هل أنتِ بخير؟».

أشيح ببصري بعيدًا، لا أريده أن يرى عينيّ. متأكدة أنني أبدو سخيفة. أتنحنح، أتظاهر أنني أسعل، أريد أن أتأكد أن صوتي لن يتهدج وأنا أجيبه. «بالطبع. سيسعدني هذا جدًا».

*****

«هل تسمعين شيئًا مما أقوله؟».، يسألني كي وأنا أغسل الأطباق بعد العشاء.

«آسفة، كنت أفكر في سوبيب».

«البقرة؟».

«لا تدعوها هكذا».

«معكِ حق. إنها أقرب إلى ثور».

«كي، من فضلك».

«ماذا عليّ أن أدعوها، الأميرة أم جلالتها؟».

«ماذا عن معلمة؟».

«إن كانت معلمة رائعة هكذا، فلماذا تعيش في المكب؟ لماذا لا تدرس في مدرسة أو جامعة؟».

سؤال معقول وحين لا أجيبه، يملأ هو الفراغ بدلًا مني. «سأخبرك الأمر بكلمتين بسيطتين، نبيذ الأرز. المرأة سكيرة لا علاج لها».

«ربما»، أجيبه. «إنها تشرب كثيرًا بالفعل، لكن يوجد المزيد».

«وما هو؟».

«لا أعرف، لكنني أنوي أن أعرف».

# الفصل السابع

في كمبوديا حين يتقدم الوالدان في السن يذهبان للعيش مع أبنائهما، ليستمتعا بمأوى وطعام وأحفاد سعداء. خطة تقاعد كاملة، ما دام أبناؤك لا يعيشون في مكب قمامة المدينة.

أمي، لينا، راضية عن وضعها تمامًا. جاءت إلى ستونغ مانشي بعد شهرين من رحيلنا عن القرية. باتت معنا ليلة واحدة فقط وفي الظهيرة التالية كانت قد رتبت للإقامة مع ابنة خالة بعيدة لها، دارا نيك، على مسافة عشر دقائق من السير في المكب. ورغم أن المفترض بي أنا الاعتناء بأمي لكنها هي من تعتني بنيساي في الأيام التي ألتقط فيها القمامة. عيبها الأساسي، على غرابة هذا حتى يومنا، أنها تعشق التقاط القمامة.

«إنها مغامرة»، تقول أمي. «لا تعرفين أبدًا أي مفاجآت ستجدينها».

أذكّرها أن المفاجآت عادة ما تكون أجزاء من أجساد بشرية.

«هذا حقيقي، لكن العاملين هنا لطفاء»، ثم تضيف، «ما عدا سيدا سون ربما، مظلاتها مثيرة للشفقة فحسب. المسكينة الغاضبة تأكلها الغيرة».

نسيتُ أن أذكر أن أمي تبني أفضل المظلات في ستونغ مانشي.

***

كانت سوبيب متسامحة في أثناء الدرس الأول، لكنها اليوم أشد جنونًا من جاموس ماء يعاني الإمساك. بعض السكيرين مريكون، يجعلون من أنفسهم حمقى طوال الوقت. سكيرون آخرون ودودون، يحنون رؤوسهم لكل من يقابلونه. سوبيب مرار طافح، ومع أنها لم تشرب لحد يُعجِزها عن التدريس، لكنها سكرانة وغاضبة جدًا على أن تُبدي أدنى قدر من الصبر.

«فتاة غبية! استمعي إلي!».

«أنا أحاول، لكنني لا أفهم ما تقولينه».

تنقر بالطبشور مع إيقاع كلماتها: «تبدأ المقاطع بحرف من الحروف الساكنة هذه...».

«هذا مريك جدًا».

تضع الطبشور: «لا أعرف كيف أشرح لك بطريقة أخرى. انتهى درس اليوم. سنحاول غدًا مجددًا».

بينما تجمع أدواتها، يفلت مني السؤال الأكثر أهمية لليوم: «لماذا تشربين كثيرًا هكذا؟».

تلتفت إليَّ فجأة: «لماذا تسألين أسئلة غبية كثيرة؟».

ثم يتلوى وجهها ويتشنج وتضع يديها الاثنتين على معدتها. تنحني إلى الأمام، كأنها ستسقط على الأرض. وقبل أن أسألها إن كانت بخير تعاود الوقوف بظهر مستقيم، وتندفع خارج الستار المفتوح، تسقط على يديها وركبتيها خلف البيت مباشرة، وتتقيأ شرابها الصباحي.

أعجز عن قول شيء.

بعد دقائق عدة، حين يبدو أنها تحسنت بما يكفي، تقف، وتستدير نحوي ثم تعلن كأن شيئًا لم يكن: «أراك غدًا».

عليّ تعلم دروسي وإمساك لساني. لا أفعل. إنها تشرب كثيرًا جدًا. عليها أن تكف. «هل ستكونين صاحية؟».

تجيبني بطبيعية بعد أن تقيأت التوّة في باحتي حتى ليظن المرء أنني سألتها عن أحوال الطقس أو عن أفضل ساعة لمشاهدة غروب الشمس عن أفق المكب: «غدًا؟ نعم، سأكون صاحية غدًا، لكن بعد غد، لا، سأكون سكرانة كجندي».

ثم تسير مبتعدة.

بعد ذلك بدقائق قليلة أخرج لجمع بعض الكرتون لتغطية فوضاها، إلى حين سقوط أمطار تكفي لمحوها جيدًا، فألاحظ شيئًا ما مزعجًا. أرى دمًا أيضًا على الأرض حيث تقيأت.

***

«نام نيساي أخيرًا»، يقول كي. «تعالي إلى الفراش».

«أخبرتك، يجب أن أنهي الواجب».

«وإلا ماذا؟ هل ستجلس عليكِ؟».

«لا، بل ستتقيأ عليّ».

حين أواصل كتابة حروفي، يسألني بإصرار: «ألن تأتي؟».

«أخبرتك، خلال دقيقة».

أعمل على ضوء مصباح الزيت الذي ندخره عادة للطوارئ، حين يمرض نيساي مثلًا. كيف أشرح لكي أن الواجب الذي سأقدمه لسوبيب يُعد طوارئ بلا شك؟

يدير لي ظهره مستاءً.

أستسلم بعد كتابة حروف عدة أخرى: «دعني أنهي ثلاثة حروف أخرى».

لا يجيبني ولا أعرف إن كان قد نام حقًا أم يتجاهلني. أكتب كل حرف بدقة ووضوح ما أمكنني. لن أقدم الواجب لسوبيب فحسب، بل ستجعلني أكرر كل حرف وصوته، يتوقف أحدهما على الآخر. من كان يعرف أن الكتابة والقراءة أمر معقد هكذا؟

حين أطفئ المصباح أخيرًا وأزحف إلى جانب كي، أقترب منه وألف ذراعي حوله. لا يستجيب. لا أراه في الظلام، لكنني أعرف من إيقاع تنفسه وتوتر صدره أنه مستيقظ.

أهمس له: «فيمَ تفكر؟».

تمر ثوانٍ. وحين يجيبني يدهشني القلق في صوته وليس الإحباط. يسألني: «ماذا سيحدث حين تتعلمين القراءة؟».

«ماذا تقصد؟».

«كيف سيغير هذا أي شيء؟».

انشغلتُ بشدة في دراستي فلم ألحظ قلقه.

«أتمنى أن يغير هذا أشياء كثيرة»، أجيبه بهدوء. «آمل أن يخرجنا هذا من المكب بطريقة ما، وإن لم نخرج نحن، فقد يمنح نيساي مخرجًا. ألا تريد هذا أنت أيضًا؟».

يمر وقت طويل قبل أن يجيبني: «أعرف أننا لا نملك الكثير هنا»، يقول بحذر. «لكننا نعرف أين نقف على الأقل».

«أين نقف؟ ماذا تعني؟».

صمت. القلق في الظلام يزيده ظلمة.

«كي؟ قل لي، فيمَ تفكر؟».

يقول أخيرًا: «الحياة هنا صعبة بالفعل، لكنها واضحة. تصل قمامة جديدة دائمًا، كل يوم. لن تنتهي أبدًا. حين نجوع أخرج وألتقط جوالًا من البلاستيك أو المعدن أو الزجاج، أبيعه مقابل ريالات قليلة، ونشتري طعامًا. لدينا ما يكفي من طعام عمومًا. لدينا سقف فوق رؤوسنا يقينا المطر. الحياة ليست معقدة هنا».

لم أتوقع ولاءه للمكب. ظللنا ثلاثة أعوام نتحدث عن اليوم الذي نجني فيه ما يكفي لعيش حياة أفضل.

«لكن العصابات كادت تقتلك...».

تخطر لي حينها الفكرة كلطمة. كان عليّ أن أفهم هذا من قبل، لكنني انشغلت بالدراسة. أضيف بحذر: «نعم لدينا هنا الطعام والسكن، لكنني لا أظن أن هذا ما يقلقك».

يستدير إلي، لا نرى في الظلام سوى تكوينات مبهمة. يقول: «العيش في ستونغ مانشي يجبرنا على إيجاد حلول، يجعل أحدنا بحاجة إلى الآخر. إن تعلمتِ القراءة...».

لا أنتظره لينهي كلامه. «كي، اسمع...» بدا قلقه واضحًا في ظلام غرفتنا الصغيرة. «لا يهم إن تعلمتُ القراءة أم لا، ولا أين نعيش، أو كيف نكسب قوتنا، سأظل بحاجة إليك رغم كل شيء».

يسمعني، ثم يسأل سؤالًا آخر: «لكن هل أنت سعيدة معي؟».

كيف لامرأة تربي طفلها في مكب قمامة أن تجيب عن سؤال كهذا بإجابة معقولة؟ عليّ أن أخطو بحرص في بيتي الليلة كما أفعل في المكب. «كي، أنت الجزء من حياتي الذي لن أغيره أبدًا. لكن منح ابننا الفرصة، والعمل معك على تحسين حياتنا، هذا النوع من التغيير جيد، ألا تظن هذا؟».

يتردد، يفكر ويستمع إلي أيضًا، لذلك أواصل: «لا أريد سوى أن يتحسن نيساي فحسب».

يسألني: «أتظنين أنه مريض لأننا نعيش هنا؟».الإجابة واضحة جدًا حدَّ الصراخ تقريبًا، ولا بد أنه يسمعها أيضًا لأنه يجيب نفسه قبل أن أجيبه أنا: «بالطبع، نحن *بالفعل* نعيش في مكب قمامة».

تمر لحظة صمت، ثم ننفجر معًا بالضحك. يحتضن أحدنا الآخر في الظلام وقتًا طويلًا للغاية، يساعدني في خلع ملابسي، ونيساي يتقلب بهدوء على طرف مرتبتنا.

***

في الأيام التي لا تستطيع فيها أمي الاعتناء بنيساي، إن لم يبكِ كثيرًا، أضعه على الأرض أسفل مظلة وألتقط القمامة بالقرب منه في الظهيرة.

فوجئ كي بحماسي لالتقاط القمامة مؤخرًا، حتى في الأيام التي أتعلم فيها الحروف مع سوبيب. لم أخبره أنني ألتقطُ القمامة كل يوم لأنها فرصة رائعة للدراسة. لعبة طورتها ببحثي عن الورق -وأنا ألتقط الورق المكتوب عليه تحديدًا- أختار حرفًا من كلمة عشوائيًا. أمنح نفسي خمس ثوانٍ لترديد اسم الحرف وصوته بصوت عال. حين أصيب عشر مرات على التوالي، أتظاهر بالفوز بجوائز مثيرة؛ أثاث، وأجولة أرز، وملابس، وصناديق طعام.

أبدأ اليوم بمطوية خضراء ممزقة. بصور لبيت باهظ الثمن في خلفيتها، وأختار حرف الألف. أتحدث إلى نيساي النائم الآن، أكرر عليه اسم الحرف ثم أنطق صوته، كأن الطفل النعس بقربي مهتم بأدنى قدر.

«نيساي، هذا حرف الآى. صوته آي. أسمعتني؟».

إن كان أحد يراقبني، سيظن أنني فقدت صوابي بالتأكيد، استنتاج منطقي بالطبع. أنبش في طبقات القمامة، أجد علبتين معدنتين، وزجاجة عطر فارغة أضعها في حقيبتي القماشية. ثم أجد ورقة أخرى مكتوبًا عليها، تبدو من مجلة، فأختار حرفي التالي. أعرف أن هذا سيكون سهلًا.

«هذا هو حرف النون، وصوته ن».

أهم بالبحث عن علب أخرى ثم أقرر البحث عن حروف أخرى. ألتقط ورقة بلون أصفر فاقع، أعرف أنه ورق لف سلسلة طعام سريع سياحية شهيرة في المدينة. لا تلفت نظري الصورة الرائعة للهامبرجر الأمريكي عليها بل الحروف البرتقالية المطبوعة أسفلها. مظللة بالأزرق فتبدو كأنها تطفو على سطح الورقة. بينما أعجب بجمال التصميم، أختار عشوائيًا أول حرف في الكلمة الأخيرة.

«نيساي، هذا حرف السين، وينطق سـ».

أكاد ألقي الورقة وأواصل عملي حين تمر عيناي على الحروف التالية في الكلمة. ظللت أردد نطق الحروف منفصلة أيامًا كثيرة للغاية لدرجة أن عقلي لا يمكنه التوقف. بينما يربط مخي الأصوات معًا، يعمل لساني وفمي معًا لنطق الكلمة. إنها كلمة قصيرة، وفي لحظة أفهم أن الحروف المجموعة معًا تنطق الكلمة سامنانج، أي *حظ*.

أدهش بشدة وأنا أنطقها مجددًا بصوت عال، أؤكد على كل صوت وعيناي تمران على الحروف، أجبر ذهني على تأكيد ما تعلنه شفتاي بالفعل. «سام... نا... نج».

قرأت كلمتي الأولى بغير مساعدة من سوبيب!

أنظر حولي بحثًا عن أحد أشاركه تلك اللحظة الرائعة. كي يلتقط القمامة. نيساي نائم. بعض الجامعين يعملون بعيدًا. أنا وحدي من شهدت المعجزة التي حدثت التوّة.

*قرأت كلمتي الأولى!*

لا بد أن عقلي قد استوعب أخيرًا عمق إنجازي لأنه يخبر جسدي الآن أن يقفز ويصرخ بصوت عال ما أمكنه، ليعرف الجميع أنني، سانغ لي، الفتاة الأمية الغبية من القرية التي تعيش في أكبر مكب قمامة في بنوم بنه، قرأت التوّة كلمتي الأولى.

أحاول الرقص بأفضل ما يمكنني في حذائي المطاطي العالي الرقبة، وأريد أن أهتف بفرح، لكن جسدي لا يطيع. بل تتخدر ركبتاي فأجلس على القمامة التي تكرمت وأمدتني بمادة لقراءتها. أضم ركبتي لصدري، أدفن رأسي في حجري، وأبكي بسرية ورضا كما لم يحدث منذ وقت طويل للغاية.

*شكرًا لك يا جدي، لمساعدتي على قراءة أولى كلماتي.*

حين أنتهي، أطوي الورقة بحرص، أضعها في جيبي، أحمل جوال المواد القابلة للتدوير على كتف، ونيساي على الأخرى، وأسير بحذائي الثقيل إلى بيتي.

****

حين يصل كي، لا يمكنه إسكاتي. فككت شفرة الشعار بأكمله والورقة الآن معلقة على الحائط تحت الساعة. أمسك بها فخورة بمهارتي الجديدة المذهلة.

مع أنني حفظت كل كلمة بالفعل، أشير لكي إلى كل كلمة وأنا أقرؤها بصوت عال: «إنه من برجر الحظ. أترى، هذا اسمهم هنا». أشير إلى الكلمات أعلى الصورة، في حال ساوره أي شك.

ينظر إلى الحروف أولا ثم إلي، آمل أن يفهم أن الآن ليس الوقت المناسب للمزاح. أواصل: «الشعار تحته، هنا، يقول روال ثاجي مين سامنانج: حيث كل يوم يوم حظ».

كي لا يفهم. «أيعني هذا أن علينا أن نأكل هامبرجر؟». أقفز نحوه، ألف ذراعيّ حول خصره، أقرب جسده من جسدي، وأحضنه بقوة. نتعانق وقتًا طويلًا، لكن أفضل جزء في الأمسية، اللحظة التي سأتذكرها أكثر من أي لحظة أخرى، حين يحتضنني بقوة هو الآخر.

## الفصل الثامن

كيم بان يزرع أرزًا
ثم يمتطي كيم جاموس الماء
كيم ينادي بورا شان.

الصور في كل صفحة رسومات بسيطة، لا يهمني. تركيزي على الكلمات يرسم صورًا ملونة ومتحركة في رأسي.

نعم، أتعثر في البدء بكلمات مثل *جاموس الماء*، لكنني بعد قراءتها مرتين أو ثلاثًا ما زلت أتردد لأنني لا أريد أن أخطئ وأحبط المعلمة. كأن عقلي يعرف المعنى لكن فمي يجب أن يُبطئ قليلًا، من باب التأكد فحسب. أحيانًا أظن أن بإمكاني سماع عقلي يصرخ: «*أنا أقرأ هنا، لذلك، فعلى جميع الأعضاء الأخرى بذل قصارى جهدها معي!*».

«كان يجب أن أحضر كتبًا أكثر صعوبة»، تقول سوبيب، وأنا أنهي صفحة وأقلبها للصفحة التالية. أعض شفتي وأتذكر ما حدث آخر مرة شعرتُ فيها بالغرور: «سأمر عليكِ غدًا بكتب أصعب قبل أن أغادر».

«هل ستغادرين؟».

«لدي موعد سيضطرني إلى الإقامة بعيدًا أيامًا عدة. أريدك أن تواصلي القراءة على الأقل أربع ساعات يوميًا إلى أن أعود».

«يقول كي إن رأسي سينفجر لو واصلت القراءة أكثر من هذا».

«لن ينفجر رأسك، أؤكد لكِ. ابذلي جهدك فحسب، ارفعي مستوى قراءتك، والمرة القادمة، سنناقش قواعد النحو».

«النحو؟».

«نعم، شُرطة الكتابة. لكن لا تقلقي، لا توجد قواعد نحو كثيرة في لغتنا. كذلك، أنتِ تفهمين أغلبها بالفعل من التحدث. بعد ذلك سنكون قد انتهينا».

«لكنني لا أريد إنهاء دروسنا».

«لماذا؟ أنتِ تقرئين جملًا. يجب أن تتقني القراءة أكثر فحسب، وسيحدث ذلك بالممارسة».

«توجد أشياء أخرى أريد تعلمها».

«أشياء أخرى؟ مثل ماذا؟».

«أريد تعلم الأدب».

«الأدب؟». تتوقف سوبيب وتلتفت إلي. «ماذا تعرفين عن الأدب؟».

«أنتِ قلتِ إنكِ كنتِ تعلمين الأدب في الجامعة».

«يا سانغ لي، لقد تعلمتِ القراءة التوّة. ظني أن من المبكر جدًا أن تقفزي إلى القصص الآن.

«أنا لا أقفز»، أتوسل إليها. «بل ظني أنها أفضل طريقة لي لممارسة القراءة». لا أعرف إن كانت تشعر بالانزعاج أم بالإطراء نحو طلبي هذا.

تسألني أخيرًا وهي تأخذ خطوة إلى الخلف: «ماذا تعرفين عن الأدب؟».

«إنه قراءة، على ما أظن- قراءة مهمة للكتب».

«قراءة، نعم، لكنه أكثر من هذا... حسنًا... كيف أشرح لكِ؟».

عيناها مرتبكتان، فمها مشدوه. تبدأ قائلة: «للأمانة، أنا لست بصحة جيدة ولا أظن أن لديَّ الطاقة لتعليمك الأدب».

«لكنك لديك طاقة كافية لجمع الإيجار، والشرب. وهذا يضر بصحتك».

لماذا لا يمكنني إبقاء فمي الكبير مغلقًا؟ أندم على كلماتي، إذ تبدو لوهلة أنها ستبدأ بتوبيخي، لكنها تعدل.

لا تجيبني فورًا، وحين تجيبني، تتحدث إلى نفسها: «ليس جسدي الذي يتألم. كيف أشرح هذا لصغيرة مثلك؟».

حين ترفع بصرها إلي أرفع كتفي. فتواصل: «تعليم القراءة يا سانغ لي مسألة ميكانيكية للغاية. مثل التقاط القمامة، قواعد واضحة وصريحة، تتحركين تلقائيًا فحسب فيما يعمل مخك».

«حسنا، أنا أفهم هذا».

«لكن الأدب مسألة خاصة. لتفهمي الأدب، يجب أن تقرئيه بعقلك، وتفسريه بقلبك. على الاثنين العمل معًا، وفي الحقيقة أحيانًا كثيرة لا يتوافقان».

«ألا يمكنك تعليمي بكليهما؟».

«هذا ما أحاول شرحه لكِ. قلبي لن يشارك. سيكون ذلك مثل أن أعد لك طبق حلوى لذيذًا وشهيًا، لكنني أضع ملحًا بدلًا من السكر. سيترك مذاقًا سيئًا للغاية في فمك. لقد تركت الأدب، وفي لحظات ضعفي التي أريد فيها العودة إليه، ينقذني نبيذ الأرز».

«يمكنك الإقلاع عن الشرب».

«وأنتِ يمكنك ترك امرأة عجوز تستريح». ثم تضيف ببرود: «كما أنكِ لست مستعدة».

«مستعدة؟ ماذا تقصدين؟».

«أنتِ متحمسة للقفز في النهر، لكنكِ لم تتوقفي لتتأكدي من مستوى عمق الماء».

لا أدّعي الفهم، لذلك أقول: «يا سوبيب، أنت تتحدثين بالألغاز. ماذا تقولين؟».

«أقول إن للحياة في مكب القمامة حدودًا، لكنها تقدم طبقًا من التوقعات. ستونغ مانشي له حدود. توجد أخطار، لكنها مفهومة، ومقبولة، ويمكن التعامل معها. حين نخرج إلى العالم، ندخل نطاق المجهول. أنا أشك في كونك مستعدة. الجميع يحب المغامرات يا سانغ لي، إن عرفوا نهاية القصة. لكننا في الحياة، مع ذلك، لا نعرف نهاية قصصنا».

أقول لها: «أنا أتحدث عن الأدب فحسب».

فتجيبني: «وأنا أيضًا».

كل منا مستفزة الآن.

فأقول لها بيأس: «اشرحي لي إذًا، لماذا تعيش امرأة مثلك هنا في المكب؟». هل تختبئين من أحد؟».

«أختبئ؟ نعم يا سانغ لي. أنا أختبئ في ستونغ مانشي، تحت الشمس الحارة، وحتى حين تغرب عني بعينيها الضاريتين يظل ظلي يسخر مني».

«أحيانا تتحدثين مثل جدي».

«لا أعرف ماذا تعنين».

«أعني أنني أريد أن أفهم... ألا تمنحينني فرصة؟».

«أنت تطلبين مني تذكر ما قضيت أعوامًا في محاولة نسيانه».

تهز رأسها يمينًا ويسارًا، تفرد كتفيها المتهدلتين، وتطرف عيناها، كأن ظهرها يؤلمها، وتظل تلتفت إلي، كأن تمنيها أن أذهب سيجعلني أذهب. حين لا أذهب تغمض عينيها.

فأنتظر.

تظل صامتة وجامدة. يخيل إليَّ أنها تحاول التحول إلى تمثال حجري، مثل تماثيل أنجكور وات، فقط لتتخلص مني، ما يجعلني أصر. أرفع إصبعي لألمسها، لكنها تفتح فمها لتتحدث، تقول: «سيكون درس القراءة التالي لنا هو الأخير».

يهوي قلبي، لكنها تواصل: «مع ذلك، سأوافق على التالي: اجتهدي جيدًا في أثناء غيابي. يجب أن تتحسن قراءتك جوهريًا من الآن وحتى أعود، وسيتطلب هذا قدرًا هائلًا من الدراسة والممارسة. ويوم عودتي، قدمي لي مثالًا للأدب يمكننا مناقشته. ثم، سنرى إن كنا على استعداد للمزيد من الدروس.

«مثال من أي نوع؟».

«هذا اختيارك».

تتجاهل حيرتي وتضع قطعة الطبشور أسفل حامل اللوح، وتدس الكتب في حقيبتها وتستدير لتغادر.

«انتظري! سأحتاج إلى كتب، أليس كذلك؟ هل أذهب إلى المدينة لأجدها؟».

تتوقف وتمد أصابعها العرقانة المهزوزة لتمسك خدّي، كما أفعل مع جدي، وعلى غرابة هذا، لكنني الآن، وأنا المتلقي، لا أحب هذه الحركة.

«أيتها الفتاة الغبية»، تقول، «لست بحاجة إلى الذهاب إلى المدينة، حتى في ستونغ مانشي، أقذر مكان في كمبوديا كلها، يغمرنا الأدب».

أسألها: «لكن أين؟». تلوح من خلف نظرتها الباردة ابتسامة. أنتظر إجابتها. لكنها لا تجيب، بل تستدير وتبتعد.

أصيح عليها: «أهذا هو كل شيء؟».

تتوقف مجددًا، وتقول: «ستعرفينه حين تجدينه. الأدب واضح. يجب أن أذهب الآن. حظًا سعيدًا يا سانغ لي».

نسيتْ زجاجتها. أصيح عليها مجددًا: «انتظري، لم تأخذي نبيذ الأرز».

تجيبني دون أن تستدير: «احتفظي بها لي... أنا متأكدة أنني سأحتاج إليها المرة القادمة».

***

لا أطيق الانتظار لمناقشة المهمة الجديدة مع كي لينتبه جيدًا وهو يلتقط القمامة من الشاحنات. لكنه يصل إلى البيت شارد الذهن.

«ما الأمر؟».. أسأله أخيرًا، بعد أن تناول الأرز والبيض المسلوق بصمت تام. «هل أنت غاضب؟».

«ممَ؟».

«لا أعرف... مني؟ لم تقل كلمتين طوال العشاء».

«آسف، كنت أفكر».

«فيمَ؟».

يهرش كاحله، يتأكد من وجود السكين هناك ويجيب: «رأيتهم اليوم».

«رأيت من؟».

«العصابة التي سرقتني».

أجثم بجانبه وأسأله: «أين؟ وماذا حدث؟».

«لم يحدث شيء. ساروا عبر المكب في منتصف النهار، كأنهم يتحدون أحدًا ما لفعل شيء. لم يفعل أحد شيء. أدار الجميع ظهورهم لهم فحسب».

«هل طلبتم الشرطة؟».

يضحك بصوت عال ويقول: «أتظنين أن الشرطة تهتم؟ تعرفين جيدًا أنهم لن يدخلوا المكب، ليس من أجلنا، في جميع الأحوال».

«كم كان عددهم؟».

«نصف دزينة، يسيرون جميعًا معًا، كقطيع حيوانات قذرة».

«هل رأوك؟».

«لا، كانوا بعيدين بما يكفي. لكنني رأيتهم. عرفتهم جيدًا حتى في الضباب، خاصة الطويل».

تقلقني نبرته الباردة، نظرته العازمة. لا أريده أن يخطط لأي شيء مجنون. أقول له: «كي، يجب أن تبتعد عنهم. دع هذا الأمر».

يدير رأسه لينظر إلي قائلًا: «لقد سرقونا يا سانغ لي. كان بإمكانهم قتلي. أخذوا ما ليس لهم. هذا ليس عدلًا».

«كي، أنا أفهم، لكن لا خير في هذا. عدني أنك ستبتعد عنهم».

يرفع رأسه، ثم يرفع كتفيه بحركة لا تلزمه بشيء، ويقول: «كالجبناء الآخرين؟ لست أفضل منهم إذًا».

«لكن هؤلاء البلطجية لا يستحقون أن تموت من أجلهم».

«أنتِ محقة، لكن أنتِ تستحقين. إن كانت حماية أسرتي لا تستحق الموت من أجلها، ماذا يبقى إذًا؟».

يربت على مقبض سلاحه الجامد، ويضيف: «الآن، إن كنت لا تمانعين، أريد أن أرتاح قليلًا».

***

كانت سوبيب مخطئة. رأسي على وشك الانفجار حقًا. ظللت أقرأ بصوت عال وقتًا طويلًا جدًا من الكتب التي تركتها لي حد أن هددني كي بحشر قمامة في أذنيه. الأمر ليس لأنه لا يحب قراءتي. بل إنها تهدئ نيساي بالفعل. مع ذلك، يقول كي إن الكثير جدًا من الحلوى يضر حتى بأقوى الأسنان. أنا واثقة بأنه يقصد الإطراء.

آخذ استراحة من الكتب، وأقلِّب في مجلات الأزياء اللامعة التي وجدها لي في القمامة. كنت من قبل أشاهد الصور فحسب، أحسد النساء الجميلات، وأتساءل عن حياتهن. الآن وقد صار بإمكاني قراءة الكلمات بالفعل، أستغرب. تتحدث النصائح المتنوعة على الأغلفة عن كل شيء:

*كيف تغرين رجلك وأنتِ في المطبخ؟* أتخيل بيتنا المكون من غرفة واحدة وأضحك.

*تناولي طعامك في البيت ووفري نقودك*. سآخذ بهذه النصيحة.

*ارتدي أفضل ملابسك في العمل*. ليست فكرة جيدة في ستونغ مانشي.

وأفضلها على الإطلاق: *هل تناول الأرز بالنشاء يزيدك سمنة؟* أنظر إلى قامتي النحيلة. هل هم جادون؟

لا أظن أن أيًا من هذا هو الأدب الذي كانت سوبيب تدرسه. سأواصل البحث.

***

تشوب خيول، أو الحِجامة، علاج قديم يعني امتصاص الريح. لا أعرف إن كان سيعمل بأفضل من الزيت، لكنني سأجربه. تقول أمي إنه لن يحسن دورة نيساي الدموية وشهيته فحسب بل وسيعيد إليه توازنه. آمل أن يُوقِف الإسهال فحسب.

نأخذ نيساي إلى حكيم في المدينة، رجل ورث الفن من والده، تُحيينا مساعِدتُه في الشارع وتقودنا في زقاق ضيق إلى غرفة العلاج. غرفة صغيرة لكنها نظيفة. الرجل في داخلها شاب، لكنه واثق من نفسه، كشخص مارس هذا العلاج ملايين المرات. يحني رأسه تحية لنا حين ندخل، ثم يواصل تحضير صينية عليها أكواب زجاجية مستديرة مصطفة كجنود. زجاجها شفاف، صنع من زجاجات المياه الغازية المذابة ربما، كل منها في حجم الليمونة. يضيء شعلة صغيرة، ثم يضعها على حامل ليبقيها مرفوعة لأعلى.

«نحن مستعدون»، يُعلن. «اخلعا قميص الصغير وسنبدأ».

ثم يشير لكي بأن يُرقد نيساي على بطنه على بطانية مفروشة على طاولة فحص خشبية رفيعة. يبدأ كي، فيبدأ نيساي البكاء. يمسك كي بقدميه لئلا يسقط. وأربت على قدميه لأهدئه. وأقول: «لا، أيها الصغير البكاء»، أعترض لأنني أعرف أنه بخير. أعرف من خبرتي أن الأكواب مع أنها ستكون دافئة على جلده، لكنها لن تؤلمه. لا يكترث نيساي، ذهب إلى الأطباء كثيرًا جدًا ليغير رأيه.

يمسك الرجل بالشعلة وكوبه الأول، يدفع الشعلة في الكوب المستدير. ما إن يبدو اللهب كأنه على وشك الانطفاء، حتى يُخرج الشعلة ويضع الكوب بحافته المفتوحة على ظهر نيساي مباشرة. يصرخ طفلي بصوت أعلى.

يكرر الرجل العملية بسرعة، ويصف الأكواب الساخنة على جسد صغيري في تماثُل تام تقريبًا. حين تبرد الأكواب أرى جلد ابني يبرز إلى الخارج في الفتحات، وتخرج الطاقة الزائدة أو الريح من جسده النحيل. حين ينتهي الرجل، أرى ظهر طفلي مغطى بثمانية أكواب زجاجية، ويبدو سخيفًا جدًا بالفعل. يوضع للشخص البالغ الذي يخضع لهذا العلاج ثلاثة أو أربعة أضعاف هذا العدد، بأكواب على الذراعين والقدمين والصدر والجبهة حتى. لو كان كي الذي يخضع لهذا العلاج اليوم لظللت أسخر منه بلا توقف. لكن مع نيساي لا أفعل هذا. ذراعاه وقدماه نحيلة للغاية حد أن الأكواب لن تثبت عليها، فنقرر أن ظهره يكفي. لا يكف عن البكاء كعهده دائمًا ورغم تشجيعي له. ومع أنه يظل يركل بقدميه عشر دقائق (بدت ثلاثين)، لكن الأكواب ظلت ثابتة. ثم يضغط الرجل بإصبعه على حافة كل كوب منها لينزعها، ويعيدها إلى الصينية بسرعة كما وضعها، وينتهي العلاج.

أرفع نيساي من على الطاولة وأحمل جسده العاري المرقط على كتفي. أقول له: «انتهى الأمر، كُف عن البكاء الآن». ولدهشتي، يسكت بالفعل.

ندفع للرجل، نجفف الدموع، ونتجه إلى البيت. ما إن ندخل المكب نقابل محظوظ السمين.

يقول حين يرانا: «جئت من بيتكما التوّة يا رفاق ولم أجدكما هناك».

«لا، لم نكن هناك»، أجيبه، أؤكد على ما هو واضح. لا يسأل أين كنا أو لماذا، جسد نيساي الصغير العاري مرقط بدوائر تامة.

«حسنًا، وجدتُ لكِ كتابًا وتركته هناك. سأواصل البحث عن المزيد. وأيضًا، مرت بكما سوبيب وأنا هناك».

«هل عادت؟».

«نعم، وتركت لكِ رسالة. قالت استعدي ليوم الجمعة، وإنكِ تعرفين معنى هذا».

أقول له: «معنى هذا أن وقتي ينفد».

# الفصل التاسع

قالت سوبيب إنه حولنا في كل مكان، وإنه يغمرنا. ربما من السهل إيجاد الأدب في مكب القمامة وأنت سكران. قرأت لفافات، علب صفيح، مجلات، ملاحظات على مناديل ورقية، تعليمات، فواتير، طرودًا، لواصق زجاجات، حتى وشوم الرجال من ملتقطي القمامة. لا شيء يشبه الأدب. أخبرت الأصدقاء أن ينتبهوا إلى الكتب، بالطبع، يجب أن أبحث عن كتب. مع ذلك الكتاب الذي وجده محظوظ السمين بالأمس عن كيفية إصلاح دراجة بخارية قد يكون أدبًا لميكانيكي أو لشخص لديه دراجة بخارية، لكن ليس لي. أريد مثالًا واحدًا فقط. إن ذهبتُ إليها خالية الوفاض ستنتهي دروسنا.

بعد العشاء، في الظلام، وبعد أن ينام نيساي أخيرًا، ونرقد أنا وكي، يقول لي بطبيعية: «نعم، لقد نسيت إخبارك، جاءت ابنة خالتك هنا تبحث عنكِ».

«نارين؟ متى؟ ماذا تريد؟».

«ونحن في الخارج نعمل»، يؤكد على الكلمة ولا أعرف إن كان يسخر مني لبحثي عن أدب في مكب قمامة، أم مستاءً لأنني لا أجمع ما يكفي من الأشياء القابلة للتدوير. حين ينكزني ويضحك، أرتاح، فأسأله: «ألم تقل ماذا أرادت؟».

«قالت إنها وجدت شيئًا ما، لكنها لم تقل ماذا».

آخذ نفسًا عميقًا، أحاول ألا أبدو فرحة. «ولم تترك شيئًا؟».

«ليس معي. ذكرت أنها ستعتني بنيساي الجمعة القادمة وستعطيكِ إياه حينها».

هذا موعد مجيء سوبيب يوم درسنا، ويعني شيئًا واحدًا فقط، أن الانتظار حتى يوم الجمعة، ثم اكتشاف أن ما وجدته نارين ليس أدبًا ليس خيارًا.

«لست مرهقة حقًا»، أقول وأنا أنهض في الظلام، «سأخرج لأستنشق بعض الهواء النقي».

يضحك كي بصوت عال حتى يتقلب نيساي. ظني أن ما قلته مضحك بالفعل، أن أربط *الهواء النقي* برائحة مكب القمامة والضباب المحيط ببيتنا ليلًا.

«خذي معكِ الكشاف»، يقول غير عابئ بسؤالي عن أين أذهب. «وسيري في طريق البيوت، حول الساحة. إنه أطول، لكنه آمن، لا تفكري حتى في الطرق الجانبية».

أقبله، ثم آخذ الكشاف الذي نستخدمه أحيانًا حين يتوفر لدينا المال لشراء بطاريات شحنه. لا أشعله وأنا في الداخل لئلا يصر على بقائي في البيت إن كان لا يعمل. القمر ينير في الخارج عمومًا، وضوءه كافٍ لأرى طريقي بوضوح.

حين أصل إلى بيت نارين، لا أرى ضوءًا في بيتها. هل أعود أدراجي بلا شيء؟

أصيح من نافذة مفتوحة: «نارين؟».

لا شيء. أحاول مجددًا: «نارين؟».

ينفتح باب البيت وتخرج ابنة خالتي. تسأل بصوت مفعم بالقلق: «سانغ لي؟ ما الأمر؟».

«كل شيء بخير، قال لي كي إنك مررت وكنت سآتي في وقت مبكر، لكنه أخبرني التوّة. هل وجدت شيئًا؟ هل وجدت كتابًا؟».

«لا، آسفة، لا كتاب. ما لديَّ قد لا يكون أي شيء. بل تذكرت أنشودة بسيطة تعلمتها في القرية علمتها لي أمي. كانت تهمس بها لي حين أمرض ولا يمكنني النوم».

«لست متأكدة أنها ما أحتاج إليه. لم تذكر سوبيب إن كانت الأناشيد أدبًا، لكنني أود بشدة أن أراها».

تنظر نارين حولها تحت ضوء القمر. «ليس لديَّ شيء مكتوب. أنا لا أقرأ. لكنني أتذكرها. كما قلت لكِ. لا أعرف إن كانت ما تريدينه، فقط».

«نارين، أود بشدة أن *أسمعها*».

تشير إلى درجة سلم فنجلس عليها، كي لا نوقظ أطفالها الذين يحاولون النوم بالفعل. تقترب مني، وتبدأ، يمكنني تقريبًا سماع صوت خالتي المبحوح.

***

اضحك معي أيها القرد.

بخدعك الشيطانية وقلبك الشقيّ.

ليزول الحزن ويأتي الفرح قبل غروب الشمس.

اركض معي أيها النمر، بفرائك البرتقالي المخطط وزمجرة تصم الآذان.

لترعب الأعداء وتلهم روحي الشجاعة.

انخر يا جاموس الماء،

لنحول الحقول الجدباء إلى أرز ذهبي حلو.

بكدّ حقيقي وعزيمة ثابتة.

ارتاحي معي يا سلحفاة،

بصدفتك الزمردية وحكمتك القديمة قدم الزمان.

علميني قيمة بيتي الذي يحميني من المطر.

اسبحي معي يا سمكة، في المياة الجارية الواسعة العميقة الزرقاء.

لتنظف جسدي وتبرده من أشعة الشمس الحارة.

غني معي يا عصفورة.

غردي أنشودة الطبيعة واحمليني من أطرافي المتعبة إلى السماء الزرقاء.

أريني امتداد العالم وعجائب الطبيعة.

هرولي معي يا دعسوقة. ذكريني بأن حياتنا قصيرة ووقتنا ثمين.

انقري بأقدامك البنفسجية لأظل يقظة ومستعدة.

هرولي يا دعسوقة... غني يا عصفورة... اسبحي يا سمكة... ارتاحي يا سلحفاة... انخر يا جاموس الماء... اركض أيها النمر... واضحك أيها القرد.

العبوا معًا في أحلامي. ارقصوا في السماء. حان الآن وقت النوم.

***

نجلس بهدوء وأفكارنا تنساب وتمتزج مع أصوات الليل في المكب. نتذكر حياتنا في القرية، لكننا نتذكر خالتي غالبًا.

«أفتقد أمي». تقول نارين بصوت عال أخيرًا.

«أعرف، أنا أيضا أفتقدها». أضع ذراعي على كتف ابنة خالتي آملة أن أعزيها.

توفت والدة نارين، خالتي، بعد شهرين فقط من وصول نارين إلى المكب. لم يصلنا خبر وفاتها إلا بعد مرور ثلاثة أسابيع تقريبًا، إذ ليس لدينا وسيلة للاتصال بها.

تسألني أخيرًا: «هل هذا أدب؟ أهذا ما تبحثين عنه؟».

فأجيبها: «لست متأكدة، لكن ظني أنه يشبه الأدب».

تبدو مسرورة وأنا أواصل كلامي: «سيكون عليَّ كتابتها. إن عدت في الصباح بقلم وورقة، هل سيمكنك تكرارها مجددًا ببطء؟».

«نعم. لكن حين تعودين، أيمكنني طلب خدمة منك؟».

«بالتأكيد».

«أتمانعين كتابة نسخة أخرى، لأحتفظ أنا بها؟».

إنها كلمات تحفظها عن ظهر قلب، وما زالت تريد شيئًا منها في يدها، لا بد أنها أدب. أضغط ذراعها وأقول . «شكرًا لكِ».

«علامَ؟».، تسأل.

«على مساعدتي في إيجاد أول قطعة أدب. الآن، لا يوجد سوى مشكلة واحدة فقط».

«ماذا؟».

«أرجو أن توافقني سوبيب».

***

حين تصل معلمتي مترنحة أفترض أنها كانت تشرب، لكنني لا أشم رائحة خمر.

أسألها: «هل كانت رحلتك موفقة؟».

«كانت أشق مما توقعت. لكنني هنا في الموعد، لهذا فلنبدأ».

الساعةَ الأولى، تدقق سوبيب في قواعد النحو. وكما وعدت القواعد واضحة ومباشرة، أفهم استخداماتها في تحدث اللغة. بينما ألاحقها أود دفع النقاش إلى الأمام، تتباطأ عمدًا كأنها تغيظني.. ثم تسألني أخيرًا:

«هل لديك أسئلة؟ إن لم يكن، فقد انتهى الدرس». تتردد، تنتظر، تراقب، فأظن أن هذا قد يكون تلاعبًا بي.

أقول لها: «لقد أنجزت واجبي».

«خمنت أنك ستفعلين»، تجيبني، «هل ستريني أم ستجلسين مبتسمة كقردة هكذا؟».

أخرج نسختين من قصيدة نارين وأعطيها نسخة.

«قبل أن نقرأها»، تقول سوبيب، «احكي لي قصتها».

أقص عليها ظروف نارين، حياتها في القرية، ووفاة أمها. لا أعرف كم المعلومات التي تريدها، لذلك، أعتذر بعد الثرثرة وقتًا أطول مما ينبغي وأنتظر التعليمات.

تقول: «اقرئي وسوف أتابعك».

أبذل جهدي لأقرأ جيدًا بلا خطأ في نطق كلمة واحدة والاحتفاظ بالإيقاع الطبيعي للكلمات، كما قرأتْها نارين عليَّ. تنساب الأصوات بسلاسة من شفتي، وحين أنتهي، تقف سوبيب هادئة، ومتأملة حتى.

«أتعرفين»، تقول دون أن تعلن إن كانت قد أعجبتها أم لا، «أن الشعر يسبق القراءة؟».

«ماذا يعني هذا؟».

«أن الناس يتعلمون الشعر قبل تعلم القراءة والكتابة حتى. يرددونه بصوت عال، ويتناقلونه شفويًا في الأغاني والملاحم والقصص، وهذه القصيدة التي قرأتها، يبدو واضحًا أنها تناقلت بالطريقة نفسها. أنتِ يا سانغ لي في الغالب أول من يكتبها».

أفكر في هذا، تلمس أصابعي الصفحة، وتمر على الكتابة التي تبدو الآن خاصة بطريقة ما. لم تنه سوبيب تقييمها بعد. تقرؤها مجددًا، أراقب شفتيها تهمسان، حركة عينيها، وحركة رأسها مع الإيقاع. تلتف أصابعها حول الصفحات، تحتضنها، فأعد نفسي منذ تلك اللحظة فصاعدًا أن أقرأ بمزيد من الحماس والشغف.

تسألني، «هل ترينه؟». «أرى ماذا؟».

«انظري إلى الكلمات، نظمها. هل ترين النمط في تكوينها؟ البيتان الأخيران يكرران الموضوع، ولكن بالعكس».

لم ألحظ. أشعر بأنني قرد أعمى.

تواصل: «وكانت هذه أنشودة ما قبل النوم، بالتأكيد».

«نعم، هذا ما قالته نارين».

«لاحظي السطر الأخير؛ لفت نظري. يقول «ارقصوا في السماء»، أترين لماذا؟».

أحدق إلى القصيدة، أقرأ السطور مجددًا. «لا. لا أفهم».

«يضيف كل مقطع لونًا. أترين الألوان؟ أحمر، ثم برتقاليًا، ثم الذهبي، الذي أفترض أنه الأصفر، وهكذا. أترين كل لون؟».

«نعم». أجيبها وقد لفتت نظري.

فتضيف: «القصيدة ترسم ألوان قوس قزح، ألوانًا ترقص في السماء. مذهلة».

هذه قراءة جديدة جدًا. لا يمكن أن تكون قد توقعت مني ملاحظة هذا، مع ذلك أشعر بأنني رسبت في أول أختبار لي، وربما الأخير أيضًا.

«الآن، لدي سؤال لكِ يا سانغ لي. لماذا ترين أن هذا أدب؟». نبرتها صارمة ومفعمة بقسوة مفاجئة.

«كما قلت التوّة، توجد كلمات وأنماط تكرر...»

تقاطعني، بحدة وصرامة أكبر: «الكلمات والأنماط لا معنى لها».

«لكنك من لاحظتِها. أنت المعلمة وقد قلتِ...» «توقفي!» تقاطعني آمرة. «نحن لا نتحدث عن المعلمة؛ أنا أسألكِ أنتِ. كذلك، إن سألت نصف دزينة من المعلمين عن الأدب، سيعطونك إجابات بضعف عددهم. الآن، اسمعي سؤالي يا سانغ لي. لماذا ترين أن هذا أدب؟ لماذا يجب أن أهتم؟».

تصيح فيَّ ولا أعرف لماذا. لا أعرف ماذا تتوقع مني. ورغم اعتيادي المواجهة، لكنني اليوم لست مستعدة لهجماتها المباغتة، كأنها وجدت ثغرة في درعي فدفعت بغضبها منها. فأسألها كطفلة حزينة: «إنها مجرد قصيدة. لماذا أنت غاضبة مني؟». لا بد أنني بدوت مثيرة للشفقة لأنها أشاحت ببصرها بعيدًا، وضعت يديها في خصرها، وخبطت بقدمها ألواح أرضيتي بإحباط. تغمغم، لكن لنفسها ولا أعرف ماذا تقول. أمسح وجهي وأبلع ريقي بصعوبة محاولة استجماع شجاعتي وأنا في انتظار عودتها لمواجهتي. تعود.

تتحـدث الآن بهـدوء وصـوت خفيـض يبـدو مسـتحيلًا أن يخـرج مـن المـرأة نفسـها. «أنـا لسـت غاضبـة منكِ. أنـا محبطـة مـن امـرأة عجـوز ضائعـة ومريضـة ومنهكـة للغايـة. الآن، هـل لديـك إجابـة عـن سـؤالي؟».

إن تظاهـرت بالفهـم بنظرتهـا الثاقبـة فـي قلبـي سـتعرف أنني محتالـة. فأجيبهـا بصـدق لأزيـل جميـع الشـكوك: «أنـا لا أعـرف مـا الأدب. لا أفهمـه. أهـذه هـي الإجابـة التـي تمنيـت سـماعها؟ إن كانـت كذلـك، يمكنـك الذهـاب الآن».

«هـذه هـي المشـكلة التـي تغيظنـي اليـوم»، توضـح. «كمـا أخبـرت عـددًا ليـس بالقليـل مـن طلبتـي، منـذ وقـت طويـل، أنـت تعرفيـن يـا طفلتـي. لكنـك فقـط لا تدركيـن».

تديـر سـاعتها حـول معصمهـا لتتحقـق مـن الوقـت وتقـول: «لـم أكـن أنـوي مواصلـة دروسـنا، لكننـي غيـرت رأيـي».

«غيـرت رأيك؟».

تواصـل: «علـى مـدار الأيـام القادمـة، سـأبذل مـا فـي وسـعي لتذكـر دروس قليلـة فـي الأدب مـن تلـك التـي كنـت أدرسـها فـي الجامعـة. لكننـا سـنمر بهـا سـريعًا».

«حسنًا، لكن لماذا سريعًا؟».

تتـردد. تتأرجـح عيناهـا وهـي تنظـر إلـى كل شـيء فـي الغرفـة عـداي أنـا. ثـم تجيبنـي بحـرص: «لـم أكـن أنـوي أن... أقصـد... لسـت مستعدة لقـول شـيء بعـد، لكننـي أخطـط للرحيـل مـن سـتونغ مانشـي».

# الفصل العاشر

وأنا جاثمة على الأرض في الركن لأزيل الرماد من موقد الطبخ يرتفع ستار الباب ويدخل محظوظ السمين مندفعًا. أهم بتوبيخه لأنه لم ينادِ أولًا، فقد أكون عارية، لكن الخوف في عينيه يمنعني. ينظر حوله قبل أن يتحدث، ويقول لاهثًا.

«أرجوك يا سانغ لي... أنا بحاجة إلى مساعدتك... تعالي بسرعة!».

«ما الأمر؟».

«صديقي جُرِح وينزف. لا أعرف ماذا أفعل».

يتهدج صوته وهو يشدني لأنهض. أنفض يدي وأمدهما إلى قميص نيساي. أغرق محظوظ بالأسئلة وأنا أُلبس طفلي.

«أين؟».

«في بيتي».

«ماذا حدث؟».

«لا أعرف».

«قلت إنه ينزف».

«نعم».

«لنأتي بتيفا. يمكنها...»

«لا!» يصيح فجأة. «لا بد أن تأتي وحدك!».

لا أفهم خوفه فيقلقني هذا أكثر، لكنني أومئ برأسي موافقة، أحمل نيساي، وأخرج من الباب.

أصر على أن نمر سريعًا ببيت تيفا، لكن لأرى إن كان بإمكانها الاعتناء بنيساي فحسب. ينتظرني محظوظ مرعوبًا كأنني قد أتسلل، وأذيع الخبر، وأؤدي إلى كارثة. لا أقول شيئًا.

يسكن محظوظ على الجهة المقابلة من المكب عند الحدود البعيدة، ويوجد حاليًا دربان يؤديان إلى بيته، الأطول يدور حول قاعدة القمامة في دائرة واسعة مباشرة وسهلة. والأقصر يصعد جبلي قمامة منفصلين عبر مساحة غارقة بها، ثم هبوطًا إلى الجهة الأخرى. لا يتردد محظوظ وهو يصعد التل. مع أنه مشهور بكونه سمينًا وسعيدًا وليس سريعًا لكنني أركض لألحق به.

مثل جميع من في المكب تقريبًا يسكن محظوظ في كوخ صغير من أعواد خيزران متنوعة، وألواح خشب متآكلة وكرتون وصفيح. كوخ أصغر من غالبية الأكواخ، لكنه يناسبه تمامًا كونه فتى يعيش وحده.

يقف أمام الكوخ، يتردد، ينظر حوله مجددًا، ثم يشير إليَّ لأدخل. أفتح الباب بحرص، أتسلل من الفتحة، وأنظر إلى الأرض.

من القليل الذي أخبرني به محظوظ بتردده القلق توقعت أن أجد فتى يتيمًا جريحًا، ينزف من جراح نالها من الاقتراب من الشاحنات في الغالب. بينما تعتاد عيناي الظلمة أرى طفلًا يرتعش بالفعل. لكن العينين المتوسلتين البنيتين بلون القهوة اللتين تحدقان إلي لفتاة مرعوبة ترقد على الأرض في ركن، كأنها تخاف التحرك، لكن جسدها يرتعش. تسيل دموعها على خديها، وملامحها المنتفخة تنم عن أنها ظلت تبكي وقتًا طويلًا.

تبدو أكبر من محظوظ بعام أو اثنين، في الحادية عشرة أو الثانية عشرة بأقصى تقدير، ومظهرها صادم. ينسدل شعرها الأسود الفاحم من أسفل قبعة قماشية رثة مشدودة لأذنيها. ترتدي قميصًا قطنيًا الأرجح أنه كان أبيض لكنه مزين الآن ببقع متفرقة بنية ورمادية.

ثم أرى الدم.

ترتدي بنطالًا قطنيًا مبللًا بالدم حول حوضها وفخذيها. يعتمل الخوف في صدري وأنا أسقط إلى جانبها، وأصلي لأكون مخطئة في فهمي.

«ماذا حدث؟ هل تتألمين؟». أسألها وأنا أمسك بيدها.

تهمس لي: «بطني يؤلمني».

«لا بأس. تنفسي بعمق. ما اسمك؟».

تواصل ارتعاشها فأربت على ذراعها برفق لأهدئ روعها كما قد أفعل لأطمئن ابني بأن كل شيء سيكون بخير.

بعد دقيقة، تجيبني بهدوء: «مالي».

«مالي؟ هذا اسم جميل»، أجيبها، «يعني بُرعمًا».

تومئ برأسها، تؤكد على حقيقة تعرفها بالفعل.

«مالي، هل جرحك أحد؟ هل لمسك أحد؟».

أتوقع أن تشيح ببصرها، لكنها تهز رأسها يمينًا ويسارًا. «لم يلمسني أحد».

أنظر إلى محظوظ لأتأكد. «هل ستخبرني بما حدث؟».

«كنا نلتقط في المكب، وفجأة بدأت تنزف فحسب. ذُعِرت وبدأت تبكي، لذلك أحضرتها إلى هنا. ولا نعرف ماذا نفعل».

حين تتضح طبيعة الموقف، أرتاح بشدة.

«مالي، هل لديك أم؟». أسألها مع أنني أخمن إجابتها بالفعل.

«أمي ميتة».

«وأبوك؟».

تهز رأسها مجددًا لتخبرني بأنه إما ميت أيضًا وإما ليس في الصورة.

«أنا آسفة. أين تعيشين؟».

يجيب محظوظ: «تعيش مع أخيها الأكبر، لم يقضيا هنا وقتًا طويلًا».

أستدير إليه: «هل يمكنك إحضار بعض الماء؟ هل لديك مناشف نظيفة؟».

«لديَّ قميصان».

«سينفعاننا».

يجمع محظوظ القمصان من صندوق في الركن محاط بتماثيل بوذا، ثم يعود بدلو ملأه بالماء من جرة في الخارج. يضعه ويراقب بقلق.

«محظوظ، أتمانع الانتظار في الخارج؟».، أسأله، «أريد وقتًا مع مالي... وحدنا. توجد أشياء قليلة يجب أن أوضحها لها».

لا يتحرك، بل يهرش رأسه بأصابعه كي يتجنب نظرتي ويسأل: «لماذا؟ أي أشياء؟».«إنها مسائل نسائية. لا أعتقد أنك ستحب سماعها».

«لكنني أريد أن...»

«اخرج فحسب. أرجوك!».

يغادر بتنهيدة استياء، وأشك أنه يتنصت علينا من خلف جدران الكوخ الرفيعة. ومع أنني لست أمًا لابنة بعد، أمتن لأنه أحضرني إلى هنا اليوم، وأقسم بين وبين نفسي ألا أتخلى عن الفتاة. في البدء أحاول تهدئة مخاوفها. بمزيج متساوٍ من الوضوح والاهتمام، أبذل جهدي لأشرح لها سبب النزيف، ماذا يعني، ولماذا لا يوجد داعٍ للخوف. تسمعني بهدوء، تومئ لي وتقول كلمات قليلة.

ثم أساعدها على تنظيف نفسها. ننظف بنطالها بأفضل ما يمكننا، ثم أعصره وأعلقه في الداخل ليجف. أتركها تكور قميصًا وتضعه بين رجليها ليمتص النزيف. ثم أبحث في صندوق محظوظ وأجد بنطالًا قصيرًا يناسبها لترتديه مؤقتًا.

«لقد جاءتك ما تُدعى «رودو»، أي الدورة»، أضيف. «إنها لحظة سعيدة في حياة الفتاة، ليست مخيفة».

«لكن لا أحد يُطرد من البيت لأنه جاءته الدورة»، تهمس بصوت ناعم ومذعور بشدة حد أني بالكاد أسمعه.

«يُطرد؟ ماذا تقولين يا مالي؟ ليس عليك الذهاب إلى أي مكان. اشرحي لأخيك ما حدث فحسب، ما تحدثنا عنه. وسيفهم».

حينها يصرخ محظوظ من الخارج: «لا يا سانغ لي! لن يفهم... لا تستطيع!».

يندفع من الباب ويضع يديه في خصره بتحدٍ يعلن أنه لن يغادر مجددًا. ويقول: «هذا ما كنت أحاول إخبارك به، أخوها في عصابة. والآن بعد أن صارت... حسنًا، امرأة، سيأخذونها إلى *تول كورك*».

بينما تستقر كلماته في ذهني، أفهم الآن الارتعاش والخوف ودموع الطفلة. هذه الفتاة البريئة الجميلة التي لا يزيد عمرها على الثانية عشرة سيأخذها أخوها إلى الحي المشبوه في المدينة ليبيعها لبيت دعارة بوصفها طفلة عاهرة.

مشهد لا يمكن لشخص متحضر تخيله، لكن في كمبوديا يحدث طوال الوقت. في الغالب بسبب فقر الأسرة، وأحيانًا لانعدام وعي الوالدين أو الأقارب. بناء على اقتراح قريب بعيد أو أحد المعارف يصل رجل ليعرض مبلغًا كبيرًا من المال على الأسرة، عادة ما يكون مئتي ريل، بوعد تشغيل الطفلة نادلةً في المدينة. لكن لا يوجد مطعم، وحين تدرك الفتاة المذعورة ما يحدث يكون قد فات الأوان.

سيدفع الزبون الصحيح، مقابل أسبوع مع عذراء، مبلغًا أكبر مما دفعه الرجل مقابل الطفلة. بعد ذلك ستصبح واحدة من مئات الأطفال العاملين في الدعارة، ستُجبَر على أفعال لا يمكن التحدث عنها مقابل ريالين في المرة. وإن رفضت، سيضربونها. ورغم العمل الشاق، ستظل ديونها مقابل السكن والطعام أكبر مما يمكنها كسبه دائمًا.

عاجزًا عن التحكم في نفسه، يتحول حزن محظوظ أخيرًا إلى دموع. يستدير ليغطي وجهه، لكنه يلمح الفتاة، وأول مرة أرى ملامحها تشرق. يتضح اهتمامه بها للحظة. وحين يعاود النظر إلي يتضح توسّله إلي أيضًا.

يقول: «يا سانغ لي، لا يمكننا السماح بحدوث هذا. علينا فعل شيء، والآن!».

توجد عصابات في المكب منذ أن جئنا. بلطجية يفضلون التجول في ستونغ مانشي عن المدينة لأن الشرطة ترفض دائمًا القيام بدوريات هنا بسبب الرائحة الكريهة، وكذلك لأن من يعيشون في المكب فقراء للغاية لدفع رشاوٍ للشرطة. في الغالب هم شباب، أو فتية يافعون، أو مهجورون أو بلا والدين، أو أي وصي على الأقل. جرائمهم تافهة في الغالب، لكنها مزعجة بالطبع. إن أمسكوا بك وحدك، يحيطون بك *ويطلبون* نقودًا، السرقة بالإرهاب. إن حدث وأغلق شاري الخردة في نهاية أيام الجمع وكنت قد نسيت إدخال جوالك، فليس من المحتمل أن تجده كما هو بجوار بيتك في الصباح. في أحيان أخرى، يقومون بأعمال الشغب لمجرد اللهو فحسب، يدهسون المرطبانات الزجاجية، يمزقون خيش الحقيبة، يلقون بفضلات آدمية أمام الأبواب لتطأها بقدمك أول شيء في الصباح (مع أننا نعيش في ستونغ مانشي ونرى الفضلات الآدمية طوال اليوم، لم أفهم هذا قط).

مع ذلك صارت العصابات مؤخرًا أشد عدوانية، وفجاجة، وفتكًا تقريبًا. إنها مفارقة مثيرة للاهتمام. كي يصر على ضرورة فعل شيء لأنهم يزدادون عنفًا، الخوف من العنف، لكن الكثيرين ممن يعيشون هنا يرفضون التورط، ولا ألومهم.

في أثناء ثورة الخمير الحمر في أواخر السبعينيات[1] أعدم الديكتاتور الفاسد بول بوت وحكومته أكثر من مليون كمبودي.

---

(١) حركة مجموعة أحزاب شيوعية مسؤولة عن إعدام ملايين الكمبوديين وتعذيبهم في السبعينيات وفرض سياسة شيوعية متشددة أجبرت سكان الحضر على الانتقال إلى الريف للعمل في الزراعة فحسب. ومعنى كلمة الخمير بالكمبودية «الفلاح». (المترجمة).

ومنـذ تلـك الإبـادة الجماعيـة ربّـى الناجـون منهـا جيـلًا كامـلًا مـن أبنائهـم علـى أهميـة السـير بجـوار الحائـط إن أرادوا مواصلـة العيش، والاهتمـام بشـأنك الخـاص فحسـب، وتـرك الكفـاح للآخريـن.

أسـير إلـى الهضبـة أعلـى الشـاحنات لأجـد كـي وأخبـره عـن مالـي. لكنـه كان يتحـدث مـع بعـض الرجـال فـي المكـب عـن العصابـات لذلك حيـن يلقانـي أخيـرًا يكـون غاضبًـا جـدًا حـدَّ أنـه لا يسـمعني.

«إنهـم جبنـاء»، يصيـح ونحـن نسـير إلـى البيـت، ويشـير برأسـه إلـى الخلـف نحـو الرجـال الجالسـين تحـت الظلـة.

أقول له: «حاول أن تفهمهم».

«أنـا أفهمهـم»، يقـول بإصـرار. «أفهـم أن العصابـات كادت تقتلنـي. أفهـم أننـا لـو لـم نفعـل شـيئًا مـا سـريعًا، سـيكون شـخصًا آخـر التالـي. أفهـم أننـا لـو جلسـنا هنـا فحسـب...»

«حسنًا»، أقاطعه، «فهمتُ قصدك».

«إنهم يفكرون في أنفسهم فقط!».

أسـأله: «وماذا عنك أنت؟».

«ماذا تعنين؟».

«هل تحمي أسرتك، أم يوجد شيء ما آخر؟».

«ما سؤالك؟».

«سؤالي هل تريد حماية الآخرين... أم تريد الانتقام ببساطة؟».

لا يجيب. أنتظر حتى نبتعد بما يكفي لأتأكد أن لا أحد يسمعنا.

«توجـد مسـألة صغيـرة أخـرى أريـد مسـاعدتك فيهـا... حسـنًا، مسـألة كبيـرة».

أشـرح لـه كيف سـاعدتُ مالـي، بمـا فـي ذلـك صغـر سنها وخوفها مما قـد يحـدث لـو عـادت إلـى بيتهـا. حيـن أخبـره أن أخاهـا فـرد فـي عصابـة تتقبـض عضلاتـه بشـكل ملحوظ.

يسأل باحتقار بالغ: «أي حيوان هذا الذي قد يبيع أخته؟».

فأجيبـه: «لا أعـرف، لكـن السـؤال الأهـم هـو، كيـف نتعامـل مـع هـذا؟».

«نحن؟».

«نعـم، علينـا مسـاعدتها!»، يعـرف كـي أننـي محقـة، وينـم تـردده عـن قلـق مشـروع.

يسـألني: «كيـف، تحديـدًا؟ نحـن نعيـش فـي المكـب نفسـه. أقصـد، يمكننـا إخفاؤهـا، لكـن إن كان أخوهـا مـن العصابـات، سيرسـلهم جميعًـا للبحـث عنهـا. لـن تكـون فـي أمـان إن ظلـت هنـا».

«يمكننـا المحاولـة مـع الشـرطة؟». أقتـرح وأنـا أعـرف الإجابـة بالفعـل.

«سـيبيعونها هـم لـدار الدعـارة، بالسـعر المعـروف، بعـد أن يتنـاوبوا عليها».

أسـأله: «مـاذا نفعل إذًا؟».

«لا أعـرف، لكـن أخبـري محظـوظ أن يبقيهـا فـي الداخـل حتـى نصـل إلـى حـل. واحـذري مـن إخبـار أحـد بهـذا... النـاس يتحدثـون. إن عـرف شـخص مـا خطـأ بهـذا، سـيكون شـيئًا واحـدًا أكيـدًا».

«وما هو؟».

«لن تنجو الفتاة».

***

تصل سوبيب، لكننا لا نناقش الأدب أو التعلم. بل تقضي الوقت في الاستماع لقراءتي مجددًا وهي تجلس في ركن وتدوِّن ملحوظات في كتبها.

رغم قلقي بشأن مالي، أحاول التصرف كأنه لا يوجد شيء. مع ذلك، لا بد أنني بدوت مشتتة بشكل سخيف وأنا أقرأ، لأنني حين أتوقف تجيب سؤالًا لم ألفظه، على الأقل ليس خلال العشرين دقيقة الفائتة.

«قراءتك تتحسن كثيرًا»، تقول، «لكن إن قفزنا في البركة قبل أن تمتلئ، سنحطم رأسينا».

أسألها بلمحة تهكم: «أهذا درس في الأدب؟».

فتجيبني بصرامة: «لا، بل درس في التفكير السليم».

في حين أتلهف لمناقشة الأدب بسرعة تستمتع هي بأخذ وقتها. لن تقول أيضًا لماذا ستغادر المكب، تقول فقط إنها كانت تخطط لهذا منذ مدة، لكن عليها إنهاء أشياء. حين أضغط عليها، تثور وتنعتني بالغبية لطرحي أسئلة *ليست من شأني اللعين*.

«هل أنتِ مستعدة؟».. تسأل فجأة وهي تقلب في أوراقها.

«نعم»، أجيبها، ولا أعرف لماذا تحديدًا، لكنني مستعدة عمومًا.

«حسنًا. لقد علمتك القراءة. الآن لنعلمك النظر».

تأخذ صفحات من دفترها وتعطيها لي.

«في الوقت المناسب، سنقرأ قصصًا من جميع أنحاء العالم»، تُعلن، «لكننا اليوم، سنبدأ بعدد من القصص الأساسية المكتوبة، قصص عابرة للزمن نشأتها الأصلية من اليونان». تشير إلى الأوراق التي في يدي الآن وتقدمها قائلة. «سانغ لي، إليكِ أيسوب، مؤلف عدد لا يحصى من حواديت الأطفال».

أومئ برأسي، كأنني أنا وأيسوب أصدقاء قدامى بالفعل. تشير بيدها إلى الكلمات، تطلب أن أبدأ على ما يبدو. لذلك أبدأ.

## القِرَدة الراقصة

كان عند أحد الأمراء عدد من القردة المدربة على الرقص. ولأن من طبع القردة تقليد حركات البشر، كانت مدربة جيدًا جدًا. فكانت حين ترتدي ملابسها المبهرجة وأقنعتها، وترقص مثل ضيوف القصر تمامًا، يصفق لها الحاضرون تصفيقًا حادًا دائمًا، حتى حدث ذات مرة أن أراد أحد الحضور أن يصنع مقلبًا، فأخذ من جيبه حفنة من الفول السوداني وألقى بها على المسرح. حين رأت القِردة حبات الفول السوداني نسيت رقصها وتصرفت (بطبيعتها) بوصفها قردة وليست راقصين. نزعت أقنعتها ومزقت قيودها، وتقاتلت معًا على الفول السوداني. فانتهى مشهد الرقص بالطبع بموجة ضحك وسخرية من الجمهور.

***

أتعثر بكلمات ولا أفهم كلمات أخرى. لكنني أفهم الفكرة العامة؛ إنها قصة مضحكة، فأبتسم. لكن سوبيب لا تمزح.

«أحد أهم الدروس التي آمل أن تفهميها أنه يوجد دائمًا في الأدب القيّم عبرة ما بوصفها جزءًا لا يتجزأ منه، حتى في القصص القصيرة كهذه».

أسألها: «دائمًا؟». فتؤكد: «دائمًا! القصص الجيدة تعرف

جيـدًا!».

أجيبها: «لعل عليها التحدث بصوت أعلى قليلًا إذًا»، أجيبها، آملة أن تبتسم لكنها تقطب جبينها، وتقول بنبرة عالية تجبرني على الانتباه: «يا سانغ لي ماذا تعلمنا من هذه القصة اليوم؟».

أريد أن أقول: «لا تلقِ بفول سوداني على المسرح حين ترقص القردة»، لكنني متأكدة أنها ليست الإجابة التي تتوقعها.

أسألها: «هل الرسالة واضحة دائمًا؟».

تطلق تنهيدة إحباط قبل أن تجيب: «القصص غالبًا مغلّفة بمعناها. إن لم تلتقطي رسالة القصة، إن فاتتك، أو تجاهلتها حتى لأنك لا تتفقين معها فقد ضيعتِ ليس وقتك فحسب، بل ووقت الكاتب أيضًا. لذلك، سأسألك مجددًا، ما الدرس المستفاد من هذه الحدوتة البسيطة؟ ماذا تعني لكِ؟».

يجب أن أجيب بشكل صائب، لكنني أرتبك تحت الضغط، يتسارع نبضي، ويخفق قلبي، وتختبئ أفكاري الجيدة، وفي الغالب لا تعود حتى تتأكد أن البر أمان. قالت إن القصة الجيدة تحمل دائمًا رسالة ما، سواء اتّفقنا معها أم لم نتفق. ماذا تتوقع؟ *أرجوك يا جدي، ساعدني على معرفة الإجابة.*

ثم يقفز سؤال في ذهني. سؤال حقيقي، ولا أريد أن أبدو كأنني أماطل. لكنني، أفشل تمامًا في كتمه: «ماذا تعني القصة لكِ أنت؟».

تأخذ نفسًا عميقًا وتتنهد بنفاد صبر واضح. وحين تخفض بصرها، وتتهدل كتفاها، وترسم تجاعيد وجهها ذلك الحزن، أدرك، أنا الغبية، أن سوبيب مثل القصص التي وصفتها مغلفة

بمعناها. إنها من طبقات هي الأخرى، تصرخ تحركاتها بصمت قائلة *هذا يوم آخر من أيامي السوداء*!

لكنها تقول بهمس تقريبًا: «يذكرني أيسوب بأنني، في مددٍ من حياتي، تظاهرت بكوني شيئًا ما غير نفسي. يذكرني بأنني حين أُلقيت على مسرحي حبات الفول السوداني، توقفتُ عن الرقص، ونزعتُ قناعي، وانحنيتُ لألتقطها بغباء. يذكرني بأنني...» تمد يدها لتلمس حامل السبورة، ليس لتستند، بل كأنها تتذكر. وتواصل: «أنا آسفة يا سانغ لي، لكنني لست معلمة جيدة اليوم. أنا أقوم بهذا كله بشكل خاطئ. ما زلتُ مرهقة قليلًا من سفري إلى المدينة. سأعود إلى بيتي الآن وأستعد بشكل أفضل».

أريد أن أعرف فيما تفكر. أن أعرف ماذا يدور في حياتها وذهنها في الأوقات الفاصلة بين دروسنا. أتوق إلى فهم الأجزاء التي تخفيها من حياتها، وربما، لأشاركها بعض أفكاري. لكنني بدلًا من هذا أسألها: «هل بإمكاني فعل شيء؟».

«نعم»، تجيبني. «انتبهي جيدًا غدًا من فضلك».

***

أهم بالذهاب إلى بيت محظوظ لأطمئن على مالي، حين يصل كي إلى البيت فجأة.

أسأله: «ماذا تفعل هنا؟».لا يبدو سعيدًا. يجيبني، «عرفتُ شيئًا ظننت أن عليك معرفته».

«ماذا؟».

«أخبرتك أن الناس في المكب سيتحدثون، حسنًا، توجد شائعات عن فتاة صغيرة اختطِفت. لدينا الآن ما هو أكثر من

العصابات لنقلق بشأنه. سيفتح الجميع أعينهم للبحث عنها».

أقضي ليلة بائسة. يظل نيساي محمومًا ومريضًا، وعليّ أن أبقيه ملفوفًا بالقماش المبلل لأمده بأدنى قدر من الراحة. ولزيادة الطين بلة، يصل محظوظ عند منتصف الليل ومعه مالي. خُيِّل له أنه سمع خطوات حول كوخه في الظلام، لذلك حين ابتعدت الخطوات خرج هو ومالي وركضا عبر المكب في الظلام ليأتيا إلى حيث يشعران بالأمان.

في الصباح الباكر يقبلني كي، الذي ظل مستيقظًا أغلب الليل معنا، ويذهب إلى العمل. ليس بوسعه فعل شيء آخر، ويجب أن نأخذ نيساي إلى الطبيب مجددًا، لذلك فكر أن يبدأ مبكرًا لكسب نقود كافية.

حين تنادي عليَّ سوبيب، أحس بأنني أنا من قضيت الليل كله أشرب. أقسم أنه منتصف الليل، لكن الشمس التي تضرب بيوتنا تقول غير ذلك.

أقول لها وأنا أرفع الستار: «نيساي مريض، لا يمكنني تركه اليوم».

تلف ساعة يدها حول معصمها، صرت أفهم أنها علامة نفاد الصبر والإحباط. بالمقارنة بترددها منذ أسابيع عدة في الموافقة على تعليمي، يبدو إحباطها الآن واضحًا ككلمات مكتوبة على وجهها. تقول أخيرًا: «سنحاول مجددًا غدًا إذًا».

يعلو بكاء نيساي، فأستدير لأنظر إليه. حين أدير ظهري لها تتقدم سوبيب خطوة. لا تبدو بخير هي الأخرى. أهُم بأن أقترح عليها أن تعود إلى بيتها لترتاح، لكنني ألحظ عينيها على الأرض حيث ينام الجميع. تعبر وجهها نظرة فضول. أحاول ألا أبدو

مريبة وأنا أسدل الستار لأواري عنها مالي.

«أتريدين ترك المكب حقًا؟»، تسألني أخيرًا، وكأن هيئتي الرثة لا تصرخ بالإجابة بالفعل. إنه سؤال مضحك. ألا يصرخ كل شيء حولي بأنني أريد الخلاص من هذا المكان.

«بلا شك»، أجيبها بقلق من قلة النوم، وضجر، لكنني أحمل نفسي على التماسك.

فتقول: «لا يذهب الناس إلا إلى الأماكن التي زاروها في أذهانهم أولًا». تردد العبارة كأنها تبوح بسر من أسرار الكون. «ربما سيساعدك التعليم على هذا. مع ذلك، يجب أن تريه أولًا، وتشعري به، ثم تؤمني به. حين تفعلين، سيدهشك إلى أين سيأخذك».

تضم يديها وتنتظر ردي، لكنني حين أدرك أنها تتوقع مني تأكيدًا، يكون صبرها قد نفد بالفعل وتسير مبتعدة في القمامة.

أقف في الشمس الساخنة بعينين حمراوين تحرقانني، وطفل مريض يبكي خلفي، وذهن لا يمكنه الوصول إلى إجابة أهم سؤال:

ماذا سنفعل لمساعدة الفتاة؟

# الفصل الحادي عشر

مر يومان ولم تظهر سوبيب. أعصابي مرهقة. لا أريد أن تعرف معلمتي شيئًا عن مالي، لذلك كل صباح قبل شروق الشمس نتسلل لنعيدها إلى بيت محظوظ. ثم عندما يأتي المساء يحضرها محظوظ إلينا بعد حلول الظلام لتنام عندنا، خشية أن يجدها أحد في بيته.

الأمر مرهق. ولزيادة الموقف سوءًا، ما زلنا لم نصل إلى حل لمساعدتها، وتعلقي بها يزداد. حين لا تظهر سوبيب لليوم الثالث، أستسلم عاطفيًا وأقوم بما كان عليّ فعله يوم أن وجدنا مالي. أذهب إلى أمي.

«سانغ لي؟ أين نيساي؟».

«هذا ما جئت لأتحدث معكِ بشأنه. أنت تعرفين أنني كنت أريد ابنة دائمًا؟».

تتوقف وتستدير لي، تحدق إلي مذهولة وتسألني: «هل أنت حامل؟».

«ليس على حد علمي، لا».

يتحول ذهولها إلى حيرة وتسألني مجددًا: «ما الأمر إذًا؟».

أشير لها لتجلس على الأرض ثم أجلس بجوارها. آخذ نفسًا وأمسك بيدها، وأشرح لها بأفضل ما يمكنني كيف أن ابنتها هي التي اختطفت الفتاة التي يتحدثون عنها في ستونغ مانشي. بالطبع لم يسبق لي أن وقفت هذا الموقف في حياتي، لذلك حين أنتهي ولا تقول هي شيئًا، لا أعرف ما يعنيه هذا.

أنتظرها وهي تفكر. ثم تقول أخيرًا: «شكرًا لكِ».

«علامَ؟».

«لأنك ساعدتني على الشعور بأنني ربيت ابنتي بشكل سليم. الآن، بخصوص مشكلتك الصغيرة، سأستغرق يومًا أو اثنين لحلها، لكنْ لديَّ حل ممكن».

***

لا تقول سوبيب شيئًا عن مكانها طوال الأيام الماضية ولا أسألها. مع ذلك عاد اللون إلى وجهها، وترتدي جوربين بنيين جديدين، ومع أنها ستظل دائمًا صعبة بدت في حال جيدة وودودة بشكل لم أره من قبل قط.

تبادرني قائلة: «يا سانغ لي أنا عجوز للغاية ولا يهمني رأي الناس فيَّ».

كنت قد فهمت ذلك الجزء منها بالفعل، فأومئ برأسي موافقة.

فتواصل: «حين تتقدمين في السن يحدث لكِ شيئان. أولًا، تكتسبين خبرة ومعرفة. تتعلمين من أخطائك لذلك يمكنك تقديم الحكمة للآخرين. والثاني أن نسيانك يزداد، مع السخرية والخرف، وحين تسدين النصح، حسنًا، أحيانًا لا تعرفين عن ماذا تتحدثين. في الغالب يصعب على الجميع، بمن في ذلك أنا، تحديد الفارق. أترين، أنا لم أدرِّس منذ مدة، وقد تسرعتُ قليلًا آخر مرة. بدأتُ الدرس فورًا دون أن أعطيك أهم قاعدة».

أستعد بقلمي.

«الأدب يجب أن تُحبيه».

أرفع رأسي لأسأل، لكنها تجيب قائلة: «حين كنتُ صغيرة، سافر أبي في عمله إلى بلدة بعيدة. وحين عاد أهداني علبة

صفيح صغيرة بها كعكة. أخبرني أنها حلوى مميزة لأن عادة أهل هذا البلد مزج لعبة صغيرة بالزبدة، وخَبز الكعكة باللعبة داخلها. المفترض أن تكون اللعبة مفاجأة، وربما كان قلقًا من أن أكسر سنًا وأنا أقضمها أو أبلعها وأختنق. رغم ذلك، ولعلمي أن اللعبة في الكعكة، بدأت أقسِّم الكعكة، أتناول قطعة تلو أخرى، أبلعها، وأنا أبحث عن الجائزة السخيفة طوال الوقت».

«هل وجدتها؟».

«وجدتها قرب القاع. كانت مخبوزة في أحد الأركان، لكنني حين وجدتها كنت قد تناولت الكعكة كلها تقريبًا».

«وحدك؟».

«نعم، بالطبع. لكن هذا ليس القصد. القصد أنني أكلت كعكتي بسرعة شديدة وبلهفة على إيجاد اللعبة، لذلك، وحتى يومنا هذا لا أتذكر مذاقها. لا يمكنني وصفها. لا أعرف إن كانت شهية أم لا. لا أتذكر حتى من أي بلد كانت. أتعرفين لماذا؟».

«لأنكِ... كنتِ... مشغولة... بالبحث عن اللعبة».

تتنهد مجددًا، لكن بارتياح هذه المرة وليس بإحباط. أعض شفتي كي لا يتملكني الغرور.

تقول: «نعم! الأدب هو الكعكة بألعاب كثيرة مخبوزة داخلها، وحتى لو وجدتِ الألعاب كلها، إن لم تستمتعي بالطريق إليها، سيكون إنجازًا أجوف. لخص مؤلف مسرحي يُدعى هيللر -أمريكي على ما أظن- هذا الأمر بقوله: *إنهم يعرفون كل شيء عن الأدب ما عدا كيفية الاستمتاع به*».

أكتب هذه المقولة.

تواصل: «التعلم علاقة تستغرق العمر كله. كوني صبورة فحسب. ستفهمين ونحن نخوض في القصص، التي سنخوض فيها سريعًا ما قاله أفلاطون: إن *الصبر أفضل حل لكل الأزمات*».

أسألها: «كيف تتذكرين كل تلك المقولات؟».

فتجيبني: «للأسف، لدي لعنة الذاكرة التي لا يمحوها سوى نبيذ الأرز. كان ماكبث محقًا حين دعا الذاكرة *سجّان العقل*».

أقول لها: «أتدركين أنك أجبت عن سؤالي عن مقولة بمقولة أخرى؟».

تبتسم، وننهي درس اليوم.

***

حين يدخل كي ويجلس بجواري وأنا أطبخ الأرز أتوقع أن أراه محبطًا. قابل عددًا قليلًا من الرجال تحت المظلات مجددًا بأمل إقناعهم بالتصدي للعصابات. لكنه يبتسم وهو يخلع حذاءه.

أسأله بشك: «هل أقنعتهم؟».

فيجيبني: «ثلاثة منهم... حسنًا، اثنين ونصف».

«هذه بداية، لكنّ ثلاثة... أو اثنين ونصف... لن يمكنهم هزيمة العصابات».

«لماذا لا؟».

تناقشنا في هذا من قبل وأعرف كيف سينتهي النقاش بالفعل. ورغم ذلك أقول متوسلة: «يا كي، المسألة لا تستحق أن تسقط جريحًا».

أنتظر اعتراضه، لكنه يفاجئني بسؤال لم أتوقعه: «أنتِ تقرئين لتساعدي أسرتنا؛ وأنا أحمينا بسكيني. ما الفارق؟».

لا تزعجني سخريته، أظل صامتة، عشر ثوانٍ كاملة. ثم أقول باستسلام يدهشه: «ربما لا يوجد فارق، لكن على الأقل لن تسبب قراءتي قتلي، وتركي أسرتي وحدها خلفي».

لو كنت مكانه لغضبت. لكنه لا يغضب. بل يقول بهدوء: «توجد أوقات وأماكن ينبغي للمرء فيها الدفاع عن نفسه، سواء أدافع بالكلمات، أم دافع بسكين. واصلي القراءة، وستتعلمين هذا من قصصك».

قال كل منا ما لديه ووصلنا إلى النتيجة المعتادة، لكن يشغلني سؤال. فأضيف: «أريد أن أعرف مع ذلك عن نصف الشخص الذي أقنعته... هل تتحدث عن محظوظ السمين؟».

ترتفع زاويتا فمه قليلًا، ما يخبرني أنني لن أعرف من إجابته إن كان جادًا أم يمزح. في كلتا الحالتين أعرف من خبرتي أنني لن أعرف الحقيقة بقية اليوم. لكنه يجيبني بصراحة ومباشرة: «لا... ليس محظوظ. من أعده نصف شخص. بل إن الشخص الشجاع الذي يرحب بالتصدي والحرب معي، الذي تحدثت عنه هي لينا، *والدتك*».

***

الجو حار وخانق، أرفع ستار الباب وأجلس على الأرض في الظل. أنظر إلى الكوخ البعيد حيث تيفا ماو وأرهف السمع لصوت من نيساي. مؤخرًا باتت صديقتي الطيبة ترحب بالاعتناء بطفلي، عندما لا تستطيع أمي، أشك في أن سوبيب قد رتبت أمرًا معها مقابل خفض جزء من إيجارها، لكنني لست متأكدة.

أقلق على نيساي، أن أتركه كل صباح تقريبًا مدة طويلة للغاية

لأتعلم من سوبيب. أشعر بأن تعلم القراءة هو الصواب، لكنني، حين يبكي وأنا أسلمه لأيدٍ أخرى، أريد أن أرمي بالكتب والأقلام وأحضنه فحسب، ومجددًا، يذكرني بكاؤه المستمر طوال اليوم بأن صحته لن تتحسن أبدًا ما لم تتحسن أوضاعنا. أتساءل إن كانت الحياة معقدة هكذا مع الجميع في كل مكان؟

تلاحظ سوبيب قلقي. فتقول لي: «لا تقلقي على ابنك، سيكون بخير».

«هل سيساعده تعليمي؟».، أسأل لأنني أريد تأكيدًا أنني اخترت الصواب.

فتجيبني: «التعليم مفيد دائمًا تقريبًا، خاصة حين يُكسبنا فهمًا لموقعنا في العالم».

«والأدب يفعل هذا؟».

«يا سانغ لي، إننا نحن الأدب، حياتنا، آمالنا، رغباتنا، أحزاننا، شغفنا، قوتنا، ضعفنا. القصص لا تعبر عن رغبتنا في إحداث فارق اليوم فحسب بل وفي معرفة الممكن غدًا أيضًا. الأدب هو المرشد الفني لكيف تكون إنسانًا. لذلك، نعم. سيفعل الأدب هذا».

«هل سيساعدني على معرفة كيف أجعله يتحسن؟».

تضع كتابها وتقول: «أنا عجوز مرهقة تعيش في المكب. لا يمكنني الجزم لكِ بأن هذا هو مسارك الصحيح. هذا سؤال لا يمكن لأحد غيرك إجابته. لكن عليّ أن أحذرك».

«تحذرينني؟ ممَ؟».

«فيما تتعلمين، فيما تقرئين قصص تتحدث إليكِ وتبدئين فهم كيف تمسّك وتمس أسرتك، قد تجدين أسئلة لم تتوقعيها».

«أي أسئلة؟».

«الأسئلة الأعمق لدى البشرية: ما معنى حياتي؟ لماذا أنا هنا في المكب؟ ما الذي تخبئه لي الأقدار؟ هل يسمعني الأجداد ويهتمون بي؟ لماذا الحياة صعبة للغاية؟ ما الخير وما الشر؟ ماذا علي أن أفعل بشأن هذا؟ إلى آخر قائمة طويلة».

«لا أفهم. كيف ستجيب قصص الآخرين عن هذه الأسئلة بالنسبة إلي؟».

«هذا ما آمل أن تفهميه، كل قصة نقرؤها يا سانغ لي، عنا نحن، بطريقة ما أو بأخرى».

«لكن كيف...؟».

«أوقفي أسئلتك يا فتاة. سيمر الصباح دون أن نفتح كتابًا. لنبدأ اليوم بقصة توم تيف[1] للمؤلف الكمبودي بريه بوتومثيرا سوم[2]».

تعطيني قصة قديمة وهي تقول: «ظني أنك ستستمتعين بها، إنها عن فتاة كبيرة جميلة تدعى تيف. في مأزق غير عادي قليلًا». تثبت عينيها عليّ كأنها تقرأ أفكاري، وتحمل كلماتها سخرية تؤكد لي أنها اكتشفت أمر مالي. وإن كانت هي تعرف، فمن أيضًا يعرف؟

أتجمد دون حراك، لا أتنفس، فتشير إلى الكتاب أخيرًا وتقول: «افتحي الصفحة الأولى ولنبدأ».

---

(1) ملحمة حب شهيرة من التراث الشعبي الكمبودي، تشبه روميو وجولييت. ترجمت إلى لغات عدة وتحولت إلى عروض مسرحية وأفلام. (المترجمة).

(2) يعرف أيضًا ببوتومثيرا سوم أو سوم فقط، راهب بوذي وواحد من أفضل الأدباء الكمبوديين، ولد عام 1852 وتوفي عام 1932، كتب توم تيف في أكثر من ألف مقطع شعري. (المترجمة).

# الفصل الثاني عشر

تُثير أمي المشكلات مجددًا عند المظلات، ويبدو أنني الوحيدة التي ألاحظ. حين أصل أجدها أقنعت سيدا سون وجوراني كاهن ببناء مظلة واحدة كبيرة معًا وليس مظلتين صغيرتين منفصلتين. تقول لهما: «إن عملتما معًا، ستبنيان أفضل مظلة في ستونغ مانشي».

المشكلة أنها تعلم جيدًا جدًا أن سيدا وجوراني تكره إحداهما الأخرى، ومع ذلك تصر. لو كان غرضها سليمًا، ولا تريد إلا الإصلاح بين صديقتين، كنت سأقدر جهودها. لكنها تصلح بين اثنتين محدودتي الذكاء، ليمكنها الجلوس ومشاهدة العرض فحسب.

«عار عليك»، أقول وأنا أجلس إلى جانبها فيما تواصل المرأتان جدالهما عن ارتفاع الكرتون أعلى حتى السقف القماش. يمكنني التدخل وتوضيح الأمر، لكنني أذكى من هذا.

أقول لأمي بدلًا من ذلك: «ماذا كان أبي سيقول عنك الآن لو كان ما زال حيًا؟»، فتجيبني: «أولًا، أنا لا أعرف عن ماذا تتحدثين، وثانيًا، أنت من يجب أن تعرفي، أنتِ من قتلته».

لا أتذكر بالطبع، وهذه القصة تتغير في كل مرة تحكيها أمي أو جدي. قيل إنه في أثناء ولادتي، كانت أمي تعاني بشدة آلام الولادة، فظلت تدفعني لأخرج، وظللت أرفض الخروج. كانت القابلة معها فيما يدخن أبي سيجارة يدوية الصنع وهو يذرع الباحة الأمامية روحة وجيئة.

قال جدي إنني رفضت ترك أجدادي الذين لا بد كانوا متجمِّعين يلقون النكات. ظني أنني، بدلًا من هذا، تلقيت من أحدهم تحذيرًا عن حياتي في ستونغ مانشي. وإن كان هذا أو ذاك، استغرقتْ ولادتي ساعات. وحين مُلئت رئتاي بالهواء أخيرًا وأعلنتُ للقرية قدومي، هرعتْ القابلة إلى أبي لتنقل له الأخبار السعيدة فوجدته ميتًا على الأرض.

بوصفي طفلة، أحببتُ التفكير في أنه منحني حياته، أن الشخص المسؤول ذلك اليوم، أيًا من كان، قد قرر وجود عدد محدود من أسرتنا على الأرض حينذاك. أقنعتُ نفسي بأنني أنا من كان يجب أن تموت، لكن أبي، في اللحظة الأخيرة، ضغط بطريقة ما على *فلاه بدو* [زر سري] وضحى بحياته من أجلي.

قصة طفولية سخيفة، لكنها ساعدتني على تخفيف أحد أشد أحزاني المتراكمة؛ أنني لم أعرف أبي قط. حتى هذا اليوم، لا أعرف شكله. كانت الصور نادرة في القرية، وضيعت أمي صورته الوحيدة وأنا رضيعة.

«هل لديكِ شيء آخر؟»، تسألني أمي وسيدا تبدأ السباب وجوراني تهم برميها بالقمامة.

لا أقصد الضحك، لكنهما مضحكتان قليلًا.

أقول لها ونحن نميل بظهرينا ونقاوم رغبة في التصفيق: «لا عجب أننا في ستونغ مانشي، لا عجب إطلاقًا».

حين يهدأ العراك، تنحني أمي إلى الأمام وتقول بطبيعية: «يجب أن تعرفي أنتِ أيضًا... لقد قمت بترتيبات للفتاة».

أميل إلى الأمام فجأة: «ترتيبات؟ لمالي؟ ماذا يعني هذا؟».

«سيكون من الأفضل أن أحتفظ بالتفاصيل لنفسي»، تقول، «لمصلحة الجميع. لنقل فقط إنني وجدت مكانًا جيدًا، بعيدًا عن المدينة، حيث ستكون في أمان».

«متى؟».

«سأرحل معها غدًا».

«مبكرًا هكذا؟!».

«نعم، لكن توجد مشكلة صغيرة واحدة». أكره حين تذكر أمي *المشكلات*.

«أي مشكلة؟».

«سنحتاج إلى مساعدة جامعة الإيجار».

****

أنتظر خارج ستار بابي حين تصل سوبيب. أرسلت لها أن علينا أن نتحدث ولحسن الحظ، تأتي فورًا.

تسألني حانقة: «ما الأمر المهم للغاية؟».

«أنا آسفة»، أجيبها لكنني لا أعرف كيف أشرح لها، أقول: «أنا فقط...» وحين أسكت تفقد صبرها.

«هل الأمر عن الفتاة؟».

آخذ نفسًا وأسألها: «أتعرفين بشأنها؟».

تجيبني بتهكم: «منذ أن رأيتها تنام على الأرض ذاك الصباح».

«أنا آسفة. أردنا أن نبقيها آمنة حتى...».

تقاطعني بسؤالها: «هل لديكم خطة؟».

«نعم، لكن...».

«قولي ماذا تريدين».

«نحتاج إلى مساعدتك. الفتاة، اسمها مالي، ستحتاج إلى نقود لركوب الحافلة، وللأسرة التي ستذهب إليها، لتغطية نفقاتها».

تسألني: «وما شأني بهذا؟».

يبدو الأمر واضحًا بالنسبة إلي، لكنني أواصل: «النقود الإضافية الوحيدة لدينا هي ما ندخره لإيجار الشهر القادم».

يقسو صوتها: «هل تسألينني إن كنت أظن أن مساعدة هذه الفتاة، الغريبة علينا نحن الاثنتان، أهم من دفع الإيجار؟».

لم أتوقع شراستها هذه، مع أنني لا أعرف لماذا. سؤالها يحتاج إلى إجابة، لكنني أتردد.

فتكرر: «هل تظنين هذا؟».

«نعم»، أجيبها، «أظن هذا بالفعل».

فتقول بحزم شديد: «لن أعفيكِ من الإيجار!»

أقول: «لكن يا سوبيب...».

فتمد يدها في جيبها فجأة وتخرج لفة نقود، كأنها كانت تتوقع هذا طوال الوقت، وتعطيها لي: «سيكون هذا كافيًا. مع ذلك، لا تعطيه لسوى من تثقين بهم لمصلحة الفتاة. متى ستغادر؟».

يجمدني الذهول فلا أقول شيئًا.

فتكرر بصوت عالٍ كأنني صماء: «أنا أسألك، متى ستغادر الفتاة؟». فأجيبها: «الليلة».

«لن نتقابل اليوم إذًا؟».

«لا، ليس اليوم».

«سأذهب لشرب كأس إذًا، وغدًا سيمكنك أخيرًا التركيز في

دراستك». ثم تصيح وهي تسير مبتعدة: «ولا تتأخري في دفع الإيجار!».

***

الحياة غريبة. أقلق يومًا لأن مالي معنا. وبعد أيام أخاف حتى الموت من أن تغادرنا.

رغم أن الشمس ما زالت تضرب بأشعتها في الخارج ونحن بأمس الحاجة إلى الهواء، نبقي ستارنا مسدولًا حتى يخيم الظلام.

محظوظ أول من يودِّع مالي. يقف بجوارها، يبدو مرتبكًا ولا يعرف هل يعانقها أم لا، تساعده على اتخاذ قراره بأن تلف ذراعيها الصغيرتين حول عنقه. يتهامسان بكلمات لا نسمعها، وحين ينفصلان، يعلن بهدوء أنه سيلقي نظرة خارجًا ليتأكد أن المكان آمن. نفهم جميعًا وهو يمسح جبينه وعينيه بطرف كمه.

أتقدم نحو مالي بدوري، وحين تأخذ في البكاء، أعانقها.

«لدي شيء ما لكِ»، أقول وأنا أقدم لها نسخة من *راما كيرتي*[1]، كتاب أعطته لي سوبيب.

«لكنني لا أقرأ».

«حتى الآن، لكنك ستتعلمين».

تلمس الغلاف وتسأل: «عمَّ هذا الكتاب؟».

«لقد أنهيت قراءته التوّة. إنها ملحمة كمبودية شهيرة ستحبينها. ستحلقين بعيدًا مع الأمير راما والملكة سيتا لتحاربوا العمالقة،

(1) النسخة الكمبودية من ملحمة راما، الإله الهندوسي الشجاع، وتعني مجد الراما أو الرامايانا. (المترجمة).

وتصادقوا القردة، وتسبحوا مع عرائس البحر، وتنقذوا أميرة بائسة. إنه عالم رائع حيث يتصدى الخير للشر، وتدوم الصداقة إلى الأبد، ويبقيك السحر بمأمن، ستتذكرينا كلما قرأتها».

أعانقها بقوة وقتًا أطول حتى ترفع لينا يدها لتعلن أن وقت الرحيل حان. تمسك مالي بأصابع لينا وتنظر إلي بتردد.

أقف بجانبها وأقول لها: «مالي، كوني قوية. يمكنك فعل هذا».

«كيف سأعيش وحدي؟»، تسأل، وتجهش في البكاء.

«لن تكوني وحدك، سنكون جميعًا هنا نشجعك».

تستجمع شجاعتها وتومئ برأسها، ثم وبسرعة كما ظهرت في حياتي، تختفي منها. رغم جهود عقلي ليشرح لقلبي أنها ليست ابنتي الحقيقية، وأن رحيلها لمصلحتها، ما زال قلبي يتألم.

# الفصل الثالث عشر

القصص التي تحضرها سوبيب أحيانًا لمؤلفين كمبوديين، لكن أغلبها كتب مترجمة لمؤلفين من أماكن بعيدة في العالم. كثير منها بالإنجليزية أيضًا، لكن ترجمتها إلى الخمير مخطوطة بين السطور المطبوعة. لا أعرف من أين تأتي بها.

عرفت أن سوبيب لم تُدرِّس الأدب في جامعة في بنوم بنه منذ سنوات فحسب، بل ودَرَست الإنجليزية قبل ذلك في كلية في أمريكا. (لم تقل شيئًا عن أسرتها لكن لا بد أنها كانت مقتدرة للغاية لتمدها بنعمة كهذه).

في الصفحة الافتتاحية لكتابها اليوم رسم بالقلم الرصاص لموجات محيط وذيل حوت تتناثر حوله قطرات الماء.

«سنقرأ اليوم نسخة ملخصة»، تقول، «لكنها ستستغرق منا يومين. يدعى الكاتب هِرمان ميلفيل، وترجمه إلى الخمير خون شيهان».

بخلاف مؤلف أو اثنين كمبوديين بدا لي اسماهما مألوفين بشكل مبهم، تبدو لي أسماء مؤلفي القصص التي تحضرها سوبيب بلا معنى. تصر على أن هذا سيتغير.

بما أنني حديثة العهد في التعليم وما زلت أحاول سبر غور القصص التي نقرؤها، من حين إلى آخر تشرح لي سوبيب ما سيحدث فيما بعد، لذلك حين أصل إلى تلك الفقرات يتك مخي ويؤز، وتنير عيناي، فيجعلها هذا تشعر بأنها أحسنت صنعًا.

تواصل: «في قصة اليوم، يقول البعض إن القبطان إيهاب يمثل الشر والرغبة في الانتقام. ويمثل الحوت الأبيض على الجانب الآخر الخير».

أسألها قبل أن نبدأ: «هل ينبغي أن يعني كل شيء شيئًا ما آخر دائمًا؟».

من كان يظن أن الأدب معقد ومتشابك هكذا؟

فتجيبني: «هذا درس رائع يا سانغ لي. تذكريه جيدًا».

«ماذا كان مرة أخرى؟»، أسألها، لا أعرف ماذا تقصد.

تكرر قائلة: «في الأدب، كل شيء يعني شيئًا ما».

ثم نفتح الكتاب ونقرأ.

****

اسمي إسماعيل. منذ سنوات -لا يهم عددها تحديدًا- كنت مفلسًا تقريبًا، ولا شيء على البر يثير اهتمامي بشكل خاص، فقررت الإبحار قليلًا لأرى الجزء المائي من العالم.

****

نستغرق أربعة أيام وليس يومين لقراءة النسخة الملخصة من قصة الحوت، لكنها أروع أربعة صباحات قضيتها في المكب، ساعدتني كثيرًا على الكف عن التفكير في مالي، وتنتهي بمعركة حامية بين القبطان والحوت.

القبطان إيهاب عجوز نزق، لا يدخر جهدًا لينتقم من عدوه الذي هاجمه منذ وقت طويل (إن كان لا بد أن تعرفوا، قضم الحوت قدمه). أقواله وأفعاله شريرة، وحتى في لحظاته الأخيرة، بينما يحارب الحوت على ظهر سفينته الغارقة، يصيح قائلًا:

*«...سأظل أحاربك حتى آخر رمق؛ سأطعنك طعنة من جوف الجحيم، وسأبصق عليك بكل البغض آخر أنفاسي»*. لكنه رغم لعناته ليس شريرًا تمامًا. شقي، بالتأكيد، تغلبه رغبة واهمة في الانتقام.

الحوت الأبيض مثله، تذكرني سوبيب بأنه يمثل الخير، ليس نقيًا تمامًا أيضًا. ومع أنه ينتصر -لمغزى انتصار الخير على الشر على ما أظن- لكنه يقتل القبطان وطاقمه (ما عدا الشاب راوي القصة)، ما يُعد بعيدًا تمامًا عن الخير.

طوال القصة، تظل ملاحظة سوبيب تقفز في ذهني، *كل شيء يعني شيئًا ما*. لا يسعني سوى التفكير في كي. يبدو مشغولًا بالانتقام، بدرجة صغيرة ربما قياسًا بإيهاب. مع ذلك فكي رجل طيب، وزوج رائع. السؤال الذي لا يبرح ذهني هو: هل كي إيهاب أم الحوت؟ سؤال مزعج، لأنه لو لم يكن الحوت وكان إيهاب وطاقمه فهذا يثير القلق. لأن إيهاب وطاقمه غرقوا جميعًا. فأسأل سوبيب باهتمام حقيقي: «هل يمكنك مساعدتي على فهم ماذا تقول هذه القصة عن التعامل مع الشر؟».

«هل يمكنك أن تكوني أكثر تحديدًا؟».

«كيف يمكننا مواجهة الشر في حياتنا الخاصة؟ هل نخوض معارك، كما فعل إيهاب مع الحوت؟ أم من الأفضل أن نتجنبه تمامًا ونهتم بشؤوننا الخاصة كما يفضل الناس في المكب؟ ماذا عن مالي على سبيل المثال؟ ساعدناها على الهرب، لكن العصابات ما زالت هنا، والأمر يزداد سوءًا».

أتوقع من معلمتي المتعلمة التي تعرف الكثير جدًا عن الأدب، إجابة معقولة ومباشرة. لكنها بدلًا من ذلك تسهم ببصرها وتقول: «إن تأكدتِ أنك تواجهين الشر وليس الجهل، فعليكِ، إن أمكنك، تدميره قبل أن يدمرك!».

صرت أعرفها جيدًا لأقرأ تعبيرات وجهها، ولأفهم لغة جسدها وحركاتها. حين تدير ساعتها حول معصمها تكون نافدة الصبر. حين تخبط الأرض بقدمها اليسرى تكون غاضبة، حين تزم شفتيها وتلوي رأسها بعيدًا تحاول ألا تبتسم لشيء ما مضحك قلته. بينما تخبرني الآن أن عليَّ تدمير الشر يتسلل إلى وجهها تعبير جديد، تعبير لم أره من قبل طوال معرفتي بها. حين تتحدث عن الشر -الشر الحقيقي- يجتاح وجهها تعبير الخوف.

لا أريد المبالغة، لكنني أريد أن أتأكد أنني فهمت. فأقول: «أنا أخبر زوجي أنني أتعلم القراءة والقصص لمساعدة أسرتنا. وهو يقول إنه يحمي أسرتنا بسكينه. من الصائب؟ أيهما أفضل، الحماية بالكلمات أم بسكينه؟».

تجيب على الفور وبيقين وحزن، ولا مجال لأي سوء فهم فيما تعنيه:

«حاربا الجهل بالكلمات والشر بالسكين. أخبري زوجك أنه محق».

# الفصل الرابع عشر

بينما أنتظر كي بالقرب من المظلات أجد أدبًا وحدي، على الأقل هذا ما أظنه. الورقة محشورة بين مجلتين مهترئتين وكدت ألقي بها جانبًا تقريبًا. العنوان المكتوب عليها *نصائح ساي ماو لزراعة الأرز*. لكنه ليس ما يلفت انتباهي، بل كلمتان أسفله مكتوبتان بخط اليد. أقرأ الصفحة بصوت عال لتسمعني أمي التي تحمل نيساي إلى جانبي.

****

الأرز هو أهم محصول في العالم. هذه النصائح ستساعدك على زراعة أرزك بنفسك.

زراعة الأرز صعبة لكنها ليست مستحيلة. تتطلب صبرًا، وعناية، وجهدًا شاقًا للغاية.

ورغم نمو الأرز في مناخات كثيرة، لكنه يحتاج إلى وفرة من ضوء الشمس، والماء، والسماد.

للأرز أنواع كثيرة -بني، وأسود، وأبيض، وأحمر- بما في ذلك الحبوب الطويلة (الرفيعة)، والمتوسطة (قصيرة وممتلئة)، والقصيرة (المستديرة تقريبًا)، والحلو، والدبق، إلى آخره. وكل أنواعه مفيدة.

السر في زراعة الأرز الجيد هو التربة الجيدة. أزل أي عناصر ضارة قد تؤذي النباتات الصغيرة. استخدم وفرة من المادة العضوية الصحية.

تأكد أن لنباتاتك مساحة كافية للنمو. انزع الأعشاب الضارة دائمًا. قد تكون العناية بنباتات كثيرة للغاية في وقت واحد عملًا صعبًا وشاقًا.

في حين ينمو الأرز جيدًا في المناخات المستقرة، أحيانًا لا تتحكم في الظروف الطبيعية. لا تقلق. للأرز قدرة فائقة على تحمل الجفاف والفيضان.

أحيانًا يُزرع الأرز في حوض صغير ثم يُنقل فيما بعد إلى حديقة. أحيانًا أخرى يُزرع في الحديقة مباشرة. كلا الطريقتين سليمتان. مزيّة الزراعة المباشرة في الحديقة أنها تقلل صدمة النقل للنباتات الصغيرة.

الأهم من أي شيء ألا تهمل العناية بنباتات الأرز. كل نبات مهم. اعتنِ بها جيدًا تنمُ ناضجة ولينة وقوية.

حظًا سعيدًا

ساي ماو

****

تبدو نصائح بسيطة للزراعة، لذلك تستغرب أمي بشكل طبيعي حين أضحك. فأشرح لها: «مع أنها تعليمات لزراعة الأرز لكن أحدهم كتب تحت العنوان «*والأطفال أيضًا*». فصار العنوان «نصائح ساي ماو للعناية بالأرز والأطفال أيضًا».

لا تفهم، فأحاول بطريقة أخرى. «سوف أقرؤها مجددًا، وكلما قلت الأرز أو النباتات، فكري بدلًا من ذلك في *الأطفال*».

وأنا أقرأ. أتوقف كلما قابلت كلمة أرز، لمنحها الوقت لالتقاط المعنى الجديد. وسرعان ما تبتسم هي أيضًا.

تعرف أنني أبحث عن أدب فتسألني السؤال نفسه الذي أفكر فيه. «هل حولت الكلمتان المكتوبتان تعليمات عادية إلى أدب؟».

أفكر في السؤال جيدًا قبل أن أجيب، كما تتوقع سوبيب.

«لاأعرف إن كان قد تحول إلى أدب»، أجيبها وينتابني انزعاج مفاجئ كالمعلمة. «أعرف فحسب أن الكلمتين المضافتين جعلتاني أنظر إلى الجمل العادية بشكل مختلف. وبأمانة شديدة، أجد ذلك ساحرًا للغاية!».

****

لا بد أن سوبيب قد لاحظت سروري لأنني بعد أن أعطيتها نسخة نصائح ساي ماو لزراعة الأرز، قفزت حولها كتلميذة في المدرسة.

«هذا يوضح درسًا كنت قد خططت لبدئه غدًا»، تقول. «مع ذلك، الآن وقت مناسب كأي وقت آخر. الكلمات يا سانغ لي ليست لها قوة فحسب، بل وقيمة أكبر من الذهب أيضًا».

أسكت. لا بد أن ملامحي تعبر عن الشك.

تسألني: «أتشكين في هذا؟».

فأجيبها: «حسنًا، نعم، الذهب يشتري الطعام والملابس والإيجار، كل شيء. ماذا تشتري الكلمات؟».

«حين تأخذين طفلك إلى الطبيب، كيف توضحين له مرض طفلك ليساعده؟ هل سيوضح له كل ذهب العالم ما خطبه؟».

«لا أظن».

«كيف سيعرف الطبيب إذًا؟».

«سأخبره».

«بالضبط... بالكلمات. بواسطة الكلمات. في حين قد يدفع الذهب أجرة الطبيب، ستساعد الكلمات بالفعل على إنقاذه».

لا تتوقف عند هذا. بل تواصل: «وإن أردتِ إخبار زوجك بمدى حبك له، ماذا تفعلين؟ هل تمنحينه ذهبًا؟».

« سيرحب بهذا بالطبع».

«إن أعطيته حمولة شاحنات القمامة ذهبًا، فأنت تمنحينه ثروة فارغة فحسب. لكن حين تعبرين عن الحب الحقيقي يا سانغ لي، تهمسين...»

وتسكت في انتظار أن أُكمل الجملة، فأقول: «بكلمات».

«أي كلمات؟ ماذا ستقولين له؟».

«ظني أنني سأقول، أنا أحبك».

«كلمتان، يا سانغ لي، كلمتان بسيطتان أثقل بمعناهما من ثروات العالم. الكلمات تمد أعمق مشاعرنا بصوت. أقول لكِ، أشعلتْ الكلمات حروبًا وأنهتها. وجنت ثروات وبددتها. وأنقذت حيوات وقضت على أخرى. وكسبت ممالك عظمى وخسرتها. حتى بوذا قال: «*علينا اختيار كلماتنا بحرص، لأنها ستؤثر في من سيسمعها بالسلب أو بالإيجاب*». أتفهمين؟».

«ظني هذا، عدا شيئًا واحدًا».

«ما هو؟».

«إن كانت الكلمات بهذه القوة، لماذا أنتِ، امرأة متعلمة وقادرة على التحدث وكتابة كلمات كثيرة، لماذا تعيشين في ستونغ مانشي؟».

يمر وقت طويل قبل أن تجيبني المعلمة أخيرًا: «الكلمات كالحبال أيضًا.. نستخدمها لنتسلق بها إلى أعلى، لكننا، إن لم نحذر، قد نسقط بها أيضًا، وأحيانًا يكون ذلك باختيارنا».

أسألها: «أتقولين إنك اخترت العيش في ستونغ مانشي؟».

في العادة، حين أخوض موضوعًا شائكًا تجيبني سوبيب بسؤال. تقول إن هذه طريقة المعلمة الجيدة، أن تجعل الطالب يفكر. وظني أنها طريقة المعلمة لتجنّب سؤال صعب.

لكن هذا السؤال ليس صعبًا. تجيبني قائلة: «يا سانغ لي، ألا نختار كلنا العيش في المكب في جوانب معينة من حياتنا؟».

****

حين أخبر كي ليم على العشاء أن سوبيب كانت تتحدث عنه، يرمقني بنظرة شك سريعة: «الأفضل أن يكون هذا جيدًا، ماذا قالت معلمتي المفضلة؟».

«قالت إنك محق».

«ماذا؟».

«لقد سمعتني، مع أنني قلقة من الغرور الذي سيتملكك الآن».

حظيت بانتباهه. يسألني: «محق فيمَ؟».

«في أن علينا مواجهة الشر في حياتنا، والدفاع عن أنفسنا، والتصدي له والقضاء عليه بلا تسامح. قالت إنه لا سبيل لوقف الشر الحقيقي بسوى تدميره».

«هل كانت سكرانة حين وافقتني؟».

«لا أظن أنها تشرب كثيرًا الآن، ليس قبل مجيئها على الأقل».

يستغرقه الأمر قليلًا ليفهم الصورة: سوبيب تتفق معه في شيء ما. وفي حين تقول حركة رفع كتفيه، *هذا ليس مهمًا حقًا*، يشع وجهه برضا واضح كأنه يقول *أخبرتك من قبل*.

أقول له: «بهذه المناسبة، عليك أن تعدني بشيء واحد».

«ما هو؟».

«لا تكن القبطان إيهاب».

«من القبطان إيهاب؟».

«إنه رجل يقاتل حوتًا كبيرًا».

«وما الخطأ في هذا؟».

«إنه يموت في النهاية».

مكتبة
t.me/soramnqraa

# الفصل الخامس عشر

أغلب كتب سوبيب لا تحوي صورًا. مع ذلك تخرج اليوم كتابًا بغلاف مقوى مرسوم عليه رسم يذكرني بكتاب نيساي تقريبًا.

أسألها: «هل سنقرأ قصة أطفال أخرى؟». «البعض يرونها كذلك».

«كيف ترينها أنتِ؟».

تفكر في سؤالي، ثم تجيب: «أراها... مميزة».

أظن أن سكوتها لعمل تأثير مسرحي قد أفلح، لأنني أمد يدي إلى الكتاب لألقي نظرة أفضل. تبعده عني، فأستسلم، وأدع يدي تسقط إلى جانبي.

أسألها: «ما المميز في هذه القصة؟». «كتبت في كمبوديا منذ سنوات طويلة. لكن الأهم من هذا أنها من عائلة مميزة قليلًا بين القصص، الأخوات، إن شئتِ تسميتها، وتستحق النقاش».

أظن أنها تحاول إرباكي لمجرد التسلية أحيانًا. فأتظاهر بالفهم لنواصل، وأسألها «ما اسم قصة اليوم؟».

«اسمها ساران».

«ساران؟ من تكون ساران؟».

«ساران فتاة كمبودية. الآن، لنقرأها قبل أن تسألي المزيد من الأسئلة».

تفتح الغلاف وتبدأ. كلماتها جميلة وسرعان ما أفقد نفسي في القصة.

منذ قرون عديدة، حين كانت إمبراطورية الخمير الكمبودية أقوى ممالك جنوب شرق آسيا، تمتد من أعلى قمة تايلاند إلى سواحل فيتنام، عاشت بالقرب من مملكة أنغكور أسرة مزارع أرز ثري وزوجته، وابنتهما الوحيدة ساران.

عاشت الأسرة على ضفة النهر العظيم، تونلي ساب، في منزل جميل مشيد على ركائز عالية لحمايته حين يرتفع منسوب المياه في موسم الأمطار. كانت ساران تنعم بكل سبل الراحة لأن أباها يملك حقولاً بطول ضفة النهر ولديه خدم كثيرون لزراعة الأرز وحصاده. مع ذلك وبالرغم من ثروتهم لم تكن فتاة مدللة، كانت بدلاً من التفكير في نفسها فحسب، كأطفال كثيرين، تساعد أمها في حمل الطعام إلى خدم أبيها وهم يعملون في الحقول. وفي البيت حين تتعب أمها كانت ساران تجلس إلى جانبها وتسرح لها شعرها الناعم بفرشاة، وكانت حين يحتاج أحد فقراء القرية إلى مأوى أو ملابس أو طعام تتطوع لمساعدته بأفضل ما يمكن لفتاة صغيرة فعله.

في حين كانت أغلب أيامها سعيدة، كانت أجمل لحظات حياتها تأتي كل عام حين يأخذها والداها إلى مهرجان الماء؛ الاحتفال السنوي الذي يبدأ حين ينعكس مسار مياه البحيرة الكبيرة لتعود وتصب في النهر، المكان الوحيد على وجه الأرض الذي تحدث فيه هذه الظاهرة. يتزامن الاحتفال أيضًا مع اكتمال قمر شهر كاديوك في التقويم البوذي.

إلى جانب الأطعمة الوفيرة، يوجد رقص رائع، وطقوس دينية، ويتنافس الصيادون في تزيين قواربهم بمقدماتها المزخرفة

المشرعة نحو السماء، وحين يعلن عن القارب الفائز يسلمه الملك بنفسه الجائزة، وهي مجداف رمزي عليه ختم الملك. عادة ما يأخذ الملك جولة بالقارب الفائز لجلب الحظ للقرية الفائزة.

كانت في مهرجان الماء حين اشترى لها والداها أعز هدية لديها، سامبوت [تنورة رسمية] من الحرير، مطرزة كلها بخيوط فضية وذهبية جميلة. كانت سامبوت مميزة، عليها أن تحتفظ بها حتى يوم زواجها، وجاءت في صندوق مزخرف بغطاء محكم. قدماها لها في المهرجان فعاشت لحظة لن تنساها أبدًا.

كانت أمطار الظهيرة قد هدأت التوّة وتسللت شمس متلهفة من خلف السحب لتلف السماء بوشاح من ألوان الطيف. جلست ساران ووالداها على ضفة النهر يتفحصون السامبوت. بالنسبة إلى ساران كان ذلك يعني أنهما يعرفان أنها تكبر. كانت الهدية مصحوبة بتذكير مهم أيضًا، قال لها أبوها «يا بنيتي، فيما تكبرين وتتفتحين كزهرة، ابحثي دائمًا عن سبل لخدمة الآخرين، وأهم شيء لا تفقدي أحلامك أبدًا».

لكن الأحلام كأقواس قزح لا يمكن إمساكها. لأن ساران ما إن أتمت الرابعة عشرة، اكتسحت القرية جائحة حمى، فمرض والداها بشدة. وفي غضون ثلاثة أيام توفيت أمها، وكان أبوها سيلحق بها لولا الساعات التي قضتها ساران إلى جانبه تستبدل الأقمشة النظيفة المبللة لتبريد رأسه، وتهمس في أذنه بكلمات الحب والتشجيع.

ورغم تعافيه في النهاية، لكن المرض أضعف قلبه (ويقول البعض، عقله). ولخوفه من أن يعاوده المرض ويقضي عليه

فيترك ساران وحيدة، قرر، على مضض، الزواج بأرملة كانت قد جاءت إلى القرية مؤخرًا مع ابنتها. ومع أن الجميع كانوا يرونها أجمل امرأة في القرية، كان آخرون، من الأشد حساسية، يرونها امرأة لعوبًا، وماكرة، وقاسية.

ورغم تلك النميمة، تمنت ساران أن يسعد أبوها بهذا الزواج. كذلك، فرحت لأنها ستحظى أخيرًا بأخت، أو أخت غير شقيقة على الأقل. لكن أباها توفي بعد أشهر قليلة من الزواج، أسلم الروح بهدوء في أثناء نومه. وبوفاته، ظهرت زوجة الأب على حقيقتها. بثروتها الجديدة، صارت مهووسة بجمالها وبدأت تبحث عن كل من يهدد مكانتها بوصفها أجمل امرأة- خاصة ساران.

أنفقت المرأة التافهة مبالغ طائلة على الدجالين، والمشعوذين والسحرة مقابل تعاويذ وتركيبات تحفظ لها جمالها وتجعلها تبدو شابة، لكن الحقد يصعب إخفاؤه.

كرهت زوجة الأب جمال ساران الطبيعي، فكانت تلقي عليها يوميًا بمهمات صعبة وقذرة- إطعام الخنازير، وكنس الفضلات، والبحث في الغابة عن طين معين يفترض أنه يجعل البشرة تتألق. ورغم قذارة تلك المهمات، ظل تألق الفضيلة يصعب إخفاؤه بالقدر نفسه. لم تكن أخت ساران نصف الشقيقة راضية عن معاملة أمها لساران، لكنها لم تفعل شيئًا لمنعها.

مرت السنون، وازدادت صعوبة حياة ساران. زالت نعومة بشرتها، وكثافة شعرها، وغاصت وجنتاها، لكنها كافحت لتبقى متفائلة. كانت تبدأ يومها بفتح صندوقها المزخرف يدويًا (الذي

تخبئه في جدار في غرفتها) لتنظر بإعجاب إلى الخيوط الذهبية لتنورتها وتتذكر نعمة حب والديها. تكرر في سرها نصيحة أبيها: «اخدمي الآخرين دائمًا ولا تفقدي أحلامك أبدًا».

ثم جاء في أحد الأيام أحد السحرة إلى الباب ليخبر زوجة الأب بوجود زهرة نادرة بقلب أصفر وبتلات بنفسجية بأطراف بلمسة بيضاء. هذه الزهرة لا تنمو إلا في أعمق مكان وأخطر مكان في الغابة. حاول الرجال قطفها، لكن لم ينجح أحد، بل في الحقيقة قليل منهم من عاد، في الغالب التهمتهم الوحوش المفترسة. يقال إنه بفرك بتلات تلك الزهرة بالبشرة ينتقل إليها وهج الزهرة وجمالها المذهل فيصير الشخص جذابًا بشكل لا يُقاوم.

بمرور الأيام اشتعل جنون زوجة الأب بالحسد والجشع، أرادت بشدة أن تحظى بالزهرة وحدها، فخطرت لها الخطة الشريرة. سترسل ساران إلى أعماق الغابة لتبحث عن الزهرة، إن عادت بالبتلات فسيكون رائعًا، وإن أكلتها الوحوش المفترسة سيكون رائعًا بالقدر نفسه تقريبًا. أي خطة أروع من هذه؟

لم تتحمس ساران كثيرًا لهذه المهمة. كانت تخاف من الغابة وتعرف أخطارها. حذرها أبوها منها كثيرًا. لذلك رفضت الذهاب، فثارت ثائرة زوجة أبيها، وصاحت فيها وهددتها، حد أن صفعتها على وجهها بالفعل مرات عدة، لكن ساران ظلت على رفضها. لا يوجد مهمات أقذر من المهمات التي تقوم بها بالفعل. ولا يمكن إجبارها على العمل ساعات أطول من ساعات اليوم نفسه. ببساطة شديدة، لا توجد عقوبة لم تُنزَل بها بالفعل.

ثم في يوم ما، اختبأت أختها نصف الشقيقة (بأمرٍ من أمها) خلف كومة ملابس كبيرة تنتظر أن ترتقها ساران. فرأت ساران وهي تُخرج صندوقها السري من مكمنه في الجدار، وتنظر بإعجاب إلى التنورة المطرزة، ثم تهمس بكلمات الحب لوالديها. كان مشهدًا مؤثرًا للغاية حد أن كان للأخت أن تبكي، لكنها لم تبكِ. بل هرعت لتبلغ أمها بما رأته، ثم انشغلت بشؤونها الأنانية الخاصة.

في وقت لاحق من ذلك اليوم، حين عادت ساران إلى البيت بعد أن أطعمت الخنازير، ذُعِرت حين رأت زوجة أبيها تحمل الصندوق المفتوح وترفعه بهدوء أعلى النار التي ستطهو ساران عليها الطعام. صرخت ساران: «أرجوكِ، الرحمة!» لكن زوجة الأب التي لا تعرف شيئًا عن الرحمة، قالت: «ستذهبين إلى الغابة وتعودين بالزهرة، وإلا سأحرق تنورتك الغالية وآخر ذكرى من والديك البائسين».

انطلقت ساران مبكرًا في الصباح التالي، سارت في الغابة البرية في الاتجاه الذي أشار إليه الساحر. سارت حتى اختفت أصوات القرية وكذلك أثر الدرب الذي بدأته. كانت تعرف مع كل خشخشة لخطوها إلى الأمام، أنها ستلقى حتفها وستلتهمها الوحوش البرية وهي حية. لكن هذا لم يحدث، بل ظلت تشق طريقها في الغابة أعمق وأعمق.

حين خيم الليل، وجدت شجرة ونامت بين فروعها، مع أنها لم تغفُ بالفعل سوى دقائق قليلة فحسب من حين إلى آخر حتى ظهرت الشمس مجددًا في السماء. ومع أنها كانت جائعة

بشدة، وظمأى، ومتعبة، واصلتْ سيرها، تبتعد عن بيتها شيئًا فشيئًا، وتمسح بعينيها طوال الوقت الخضرة الكثيفة بحثًا عن زهرة بقلب أصفر وبتلات بنفسجية بأطراف بلمسة من الأبيض.

سرعان ما تورمت يداها وقدماها واحمرت بالخدوش من الأغصان والأشواك والحافات الحادة لنباتات الغابة. وانتشرت في وجهها وعنقها عضات الحشرات، وشعرت بها تحكها وتلسعها.

عند نهاية الظهيرة، حين لم تعد قادرة على التقدم خطوة أخرى نظرت نحو أجمة خضراء داكنة بأوراق شوكية. وكانت هناك، أجمل وأروع وأزهى كرمة مزهرة رأتها في حياتها، تحمل أغصانها زهورًا متفتحة بقلب أصفر وبتلات بنفسجية داكنة بأطراف بيضاء لامعة.

ولزيادة دهشتها، رأت حين اقتربت عصفورة الجنية الزرقاء الآسيوية(1)، تجثم على غصنٍ بجوار زهرة، وتزهو بألوانها كالأزهار نفسها. لم تخف منها العصفورة، بل بدت كأنها تريد أن تبتسم بالفعل لكن لا يمكنها لأن لديها منقارًا، فغردت بدلًا من ذلك بسرور وطارت مبتعدة تاركة ساران وحدها تنظر بإعجاب إلى الزهور المتفتحة.

لخوفها من أن تكون هلاوس حمى الغابة، مدت ساران يدها لتلمس الزهور، لتتأكد أنها حقيقية، وقد كانت كذلك. حاولت قطف واحدة، فتبين أنه أصعب مما توقعت، ففركت بتلاتها المخملية بين أصابعها.

(1) جنس من العصافير الصغيرة موطنه جنوب آسيا. (المترجمة).

كانت جائعة وظمأى، لكن سعادتها بالعثور على الزهرة أنعشتها للغاية حد أن نست ألمها وراحت تجمع حفنة زهور لتعود بها إلى البيت. ثم انتبهت أن حملها سيكون مستحيلاً لأن النباتات في الغابة، أحيانًا تكون كثيفة ومتشابكة للغاية بشكل يتطلب كلتا يديها لإزاحة الأوراق والأغصان من طريقها. لن يمكنها العودة إلى البيت وهي تحمل الزهور.

ثم خطرت لها الفكرة. كانت الزهور قوية رغم رقتها، وأغصانها متينة بشكل مدهش. فغزلت الأغصان معًا في إكليل متماسك وجميل. حين وضعته على رأسها، كان يناسبها تمامًا حدَ أن شعرت بأنها أميرة. والأفضل من ذلك شعرت بالبتلات حنونة وملساء على وجهها.

حين انتهت عادت تنظر إلى الطريق الذي جاءت منه، بدت الغابة كلها متشابهة حولها، واستحال عليها تمييز الطريق. حينها سمعت العصفورة الجنية التي رأتها على الغصن حين جاءت ورأتها مجددًا. بدت تناديها، وتطلب منها أن تتبعها، ففعلت.

ومع أن طريق الخروج من الغابة كان مرهقًا ومتعرجًا مثلما كان طريق دخولها، بدا أن ساران لم تعد تلاحظ أو تهتم. وفي اللحظة التي تأكدت فيها أنها قريبة من البيت ظهر لها من بين النباتات شاب وسيم. بدا مدهوشًا لرؤيتها مثلما أدهشتها رؤيته.

حاول أن يتحدث وعيناه مثبتتان عليها. «مرحبًا. اسمي...» لكنه سكت، فاستغربت أن ينسى اسمه. ثم واصل بعد لحظات. «معذرة. ما أحاول أن أقوله إن اسمي كامول».

همت بإخباره باسمها حين أدركتْ بخجل أنها لا بد تبدو رثة، ورائحتها ليست جيدة، بعد سيرها وقتًا طويلًا للغاية في الغابة. أرادت أن تعتذر عن مظهرها، لكنها وهي تخفض بصرها، أدركت أنها ليست أيًا من ذلك. اختفت العضات التي تحك وجهها وعنقها. وكذلك جروح يديها وقدميها التي ظلت تنبض ألمًا. كانت بشرتها ناعمة وملساء ومشرقة. والجوع والظمأ الرهيبان اللذان كانا يُنهكانها، حسنًا، لم تشعر بأي جوع منذ بدأت طريق العودة إلى البيت. حينها تذكرت البتلات الملساء للإكليل التي تلمس رأسها. لا بد أن الساحر كان محقًا- للزهور بالفعل أثر سحري قوي.

من باب الفضول، سألت الشاب الوسيم ماذا يفعل وحده في الغابة فعرفت أنه يجمع توت شوك النار ليغليه ويصنع منه طلاء لقاربه استعدادًا لمهرجان الماء القادم. حين سمعته يذكر المهرجان شع وجهها سرورًا. جلسا معًا على جذع شجرة ساقط يتحدثان عن الحدث الرائع وكل الأشياء التي يحبان رؤيتها وفعلها فيه. قبل أن يلاحظا، كانت الشمس قد جلست هي الأخرى في الجزء السفلي من السماء، وسرعان ما سيخيم الظلام. لكن حين نظرت ساران إلى العصفورة التي أرشدتها إلى طريق بيتها، لم تجدها. لا يهم. الشاب يعرف الطريق، فسارا معًا خارج الغابة.

رأتْ ساران بيتها من بعيد، فشكرت الشاب الوسيم بسرعة قبل أن تركض مبتعدة لتستعيد كنزها الغالي، تنورتها. بينما تقترب من البيت، رأت أختها أمام الباب في الخارج تراقب أرزًا في وعاء يغلي على النار. بدت الأخت مدهوشة لرؤية ساران، كأنها رأت

شبحًا، إذ كانت الزهور قد جعلت ساران بهية الطلعة وجميلة حدَ أنها كانت تتألق تقريبًا، وبالطبع، لم تتوقع لا الأخت ولا أمها أن تريا ساران مجددًا أبدًا.

همت ساران بالتوضيح، بعرض الزهور على أختها، وبإخبارها بكل شيء عن العصفورة والشاب، حين نظرت أسفل إلى ألسنة اللهب المتراقصة ولاحظت البقايا المتفحمة من صندوقها. كذلك لمعت على دائرة الرماد المحيطة بالنار خيوط ذهبية. حين فهمت ساران ما حدث لم يسعها سوى أن تصيح قائلة.

«ماذا فعلتما؟ ماذا فعلتما؟».

هرعت زوجة الأب تخرج من البيت حين سمعت الصراخ، لكنها تأخرت. ركضت ساران بأقصى سرعة أمكنتها، والدموع تسيل على وجهها إلى الغابة البرية المظلمة مجددًا. حين صارت النباتات كثيفة للغاية أمامها لتركض بينها، ركعت على ركبتيها باكية، تدعو أن يظهر حيوان مفترس ليلتهمها، إذ لم تعد تتحمل البؤس أكثر من هذا. وقد ظهر حيوان بالفعل، لكنه لم يكن خنزيرًا، ولا ثعبانًا ولا تمساحًا. بل كانت عصفورة الجنية الزرقاء التي قادتها من قبل في الغابة، خفقت بجناحيها وحطت بجوارها. ثم تحولت فجأة أمام عينيها إلى امرأة جميلة ترتدي ثوبًا ذهبيًا فضفاضًا وتحمل فرعًا أخضر جميلًا من شجرة صفصاف. قالت تسأل ساران: «ما الأمر؟».

فسألتها ساران: «من أنتِ؟».

«أنا جنية الرحمة. جئت لأخفف عنك أعباءك».

«لقد فات الأوان»، صاحت الفتاة. «فات الأوان فحسب».

«لا يفوت الأوان أبدًا. لقد بدأتِ حياتك بالكاد».

«لكنهما أحرقتا تنورتي، ولم يعد لدي شيء أتذكر به والديّ».

«عزيزتي»، أجابتها الجنية بهدوء، «لست بحاجة إلى تنورة لتذكرك بوالديك. إن قلبك يفيض بالذكريات. علامات حبهما ورضاهما عنكِ حولك في كل مكان، سواء أرأيتها أم لم تريها. إن كل ما يتمناه أبواك أن تعيشي حياة سعيدة وناجحة. وظني أنه حان الوقت لبدئها».

ثم لوحت بفرع الصفصاف، فانهمرت أضواء السماء من أعلى.

استيقظت ساران على صوت ضحكات فوجدت نفسها نائمة في الغابة حيث نامت الليلة الماضية. جلست وفركت عينيها، تساءلت إن كان كل ما حدث حلمًا، لكنها، حين نظرت إلى نفسها، كانت ترتدي تنورة حمراء زاهية بخيوط ذهبية لامعة. وشعرها ينسدل على كتفيها كوشاح داكن، كأنها استحمت التوّة في النهر، ويتدفق مشرقًا من تحت إكليل الزهور الذي ما زال على جبينها.

حين سمعت أصواتًا، سارت لتخرج من الغابة إلى الطريق العام الذي يسير فيه جموع الناس فصاحت تسألهم: «أين يذهب الجميع؟».

فأجابوها: «كيف تسألين، إلى مهرجان الماء بالطبع. هل كنت تعيشين في الغابة؟».

ضحكوا لكنهم دعوا الغريبة الجميلة لتنضم إليهم في سيرهم على ضفة النهر. لم تكن قد تناولت وجبة جيدة منذ أيام، لذلك ما إن وصلوا إلى المهرجان، توقفت أول شيء عند باعة الطعام. مدّت يدها في جيبها الخالي، لكنه لم يكن خاليًا تمامًا بل كان

فيه ما يكفي من مال لاحتياجاتها. اشترت صحنًا كبيرًا من الأرز المطهو، وخضراوات، تمامًا مثل الذي اعتادت أن تتشاركه مع أبويها. ابتسمت وهي تأكل لتذكرها كيف كان أبوها يجعلها تأكل الخضراوات أولًا قبل أن يسمح لها بتناول ما تشاء من لحم الخنزيز الحلو.

بعد ذلك تجولت في بحر الباعة الجائلين بمعروضاتهم من مشروبات وأسماك وقبعات وصنادل وألعاب وبخور وملابس، وأي شيء يمكن تخيله تقريبًا حتى التنورات المطرزة. بحثت حتى وجدت واحدة تشبه تنورتها التي احترقت، وتذكرت يوم أن اشترتها.

«لقد كبرت يا بنيتي»، كان أبوها قد قال لها. «لقد تحدثت مع أمك واتفقنا أن نجعلك، مع أنك ما زلت صغيرة، تختارين سابموتا لابكا، التنورة المميزة التي ستحتفظين بها إلى يوم زواجك».

بينما يعيد ذهنها الكلمات، أجابت هامسة: «شكرًا لك يا أبي لثقتك الكبيرة بفتاة صغيرة وساذجة مثلي».

سارت ساران نحو النهر، حيث كانت هي وأبوها يقفان أعلى سور حجري عال حول الحافة الأعمق للنهر. (كان الموقع يخيف أمها بشدة، لذلك كانت تنتظرهما في الأسفل). كان أبوها يصعد أولًا ثم يمد يده لابنته الغالية ليرفعها. كان موقعًا رائعًا لرؤية السباق، إذ يجعلهما أعلى من الحشود ويسمح لهما برؤية القوارب وهي ما زالت بعيدة. اليوم، لا يوجد أحد ليمد لها يده ويرفعها، لذلك صعدت وحدها. كانت حزينة لأن أباها ليس معها، لكنها ممتنة لأنه علمها كيف تتسلق وحدها. وقفت أعلى السور، وشعرت بسلام غير عادي.

علت صيحات الحشود حين لاحت القوارب. كالأيام الخوالي تمامًا، وبتشجيع ممن حولها، لوحت ساران وهللت هي الأخرى. رأت، حتى من مسافة بعيدة، أن القارب إلى الجانب القريب، الأقرب إلى السور، لونه أحمر قرمزي قانٍ، لون تنورتها تقريبًا، فخمنت أنه لا بد قارب كامول.

هللت الحشود لفوز القارب القرمزي، وما إن وصل إلى خط النهاية، أدار كامول، المجذف الرئيس والملاح، رأسه نحوها لحظة فحسب كأنه عرفها. لا بد أنه محبوب للغاية في قريته، فكرت ساران. سيعود فوز صديقها الجديد عليه ليس فقط باحترام كبار القرية التي هو منها، بل وبشرف مقابلة الملك أيضًا.

هبطت من أعلى السور وشقت طريقها في الزحام إلى مرسى القوراب، لتلقي نظرة أفضل على المجذف الفائز. لدهشتها، لاحظها الشاب الوسيم وهي تنظر من بين الجمهور وأشار لها.

«إنه أنتِ!»، صاح وهو يقترب منها. «لقد ساعدتِنا على الفوز!».

فأجابته: «أنا لا أفهم شيئًا. كنت أراقب فحسب».

فقال الشاب: «للفوز في السباق، على الملاح أن ينتقي علامة بعيدة ثم يوجه القارب نحوها بقوة وسرعة. الميل يمينًا ويسارًا يطيل المسافة والزمن المقطوعين. وحين كنا نتجه نحو خط النهاية، اخترت امرأة في ثوب أحمر زاهٍ، ووجهت القارب نحوها مباشرة. كنا متأخرين في البدء، لكننا بالتركيز على هدفنا، تقدمنا سريعًا. وحين اقتربنا من السور الذي تقف عليه المرأة، أدركت أنها أنتِ، فتاة الغابة، ولا أعرف اسمك حتى».

«اسمي ساران».

مـد الفتـى يـده لهـا أمـام أعيـن الحشـود، ونطقـت عينـاه إعجابًـا بالفتـاة الجميلـة ذات التنـورة الحمـراء المطـرزة بخيـوط ذهبيـة. قـال: «آنسـة سـاران، أتوديـن ركـوب القـارب الفائـز؟».

شـعرت بتشـريف وارتبـاك أيضًـا، إذ كان الملـك بنفسـه يقـف علـى مقربـة ياردات قليلـة يراقـب لكنـه لـم يتقـدم بعـد.

فأجابت: «الملك أولًا بالطبع».

«الملـك؟ بالطبـع»، قـال الفتـى وهـو يسـتدير نحـوه، «أبـي، هـذه هـي الفتـاة التـي أخبرتـك عنهـا. أليسـت أجمـل ممـا أخبرتـك حتـى؟ أتسـمح بـأن آخذهـا هـي فـي جولـة أولًا؟».ابتسـم الملـك، أومـأ برأسـه لسـاران، ثـم لـوح بيـده ليـأذن لابنـه.

سألت ساران مذهولة: «هل أنت كامول أمير أنغكور؟».

قبـل أن يجيبهـا، ارتجفـتْ بشـدة وإكليلهـا يُنتـزَع مـن علـى رأسـها. كانـت زوجـة أبيهـا وأختهـا غيـر الشـقيقة، قـد شـقتا طريقهمـا فـي الزحـام وتسـللا إليهـا مـن خلفهـا.

«أخيـرًا حصلـت عليهـا. حصلـت علـى الزهـور!». صاحـت زوجـة الأب وهـي تنـزع زهـرة مـن الإكليـل وتفـرك بتلاتهـا بوجههـا وذراعيهـا ويديهـا بشراسـة. قلـدت الأخـت أمهـا، فنزعـت مـن الغصـن المشـوه زهرتيـن بـدلًا مـن زهـرة واحـدة.

قبـل أن يأمـر الملـكُ جنـودَه بالقبـض علـى المـرأة وابنتهـا، بـدأ عمـل المفعـول السـحري للزهـور. لكنـه يُظهـر الجمـال الموجـود بالفعـل فـي الأعمـاق علـى السـطح، ويبيـن طبيعـة المـرء الحقيقيـة. وإذ كانـت زوجـة الأب قـد اسـتبدلت بـكل خيـر فيهـا الطمـع والحسـد منـذ وقـت طويـل، فلـم يظهـر علـى السـطح أي جمـال. بـل وقفـت

هناك أمام ساران، والملك، والأمير، وجموع المشاهدين، تتلوى بألم وتتحول إلى بزاقة مستنقع، ثم سقطت من موقعها إلى طين أعماق النهر.

بعد دقائق بدأت الأخت تتحول هي الأخرى. لكنها تقلصت إلى صخرة صغيرة جامدة -لا تضر، ولا تنفع أيضًا- تدحرجت وسقطت في النهر بالصوت المألوف لسقوط الحجر في الماء، لتختفي عن الأنظار هي الأخرى.

حين لاحظ الأمير خطر الزهور على الحشود، التقط ما تبقى من الإكليل المسحور وقبل أن يلمسه أحد، طوح به بعيدًا في النهر، حيث اختفى إلى الأبد في أعماق الماء. حبس الجميع أنفاسهم، لأن الأمير لمس الزهور هو الآخر، لكنه، مثل ساران، كانت حقيقته معروفة بالفعل ولم يتحول إلى شيء ما أسوأ. بل تقدم إلى جانب ساران، مد يده لها، وساعدها على ركوب قاربه الفائز في جولة نهرية. بينما يدور القارب، هللت الحشود الواقفة على ضفة النهر للفتاة التي فهموا أنها ستغدو الأميرة الجديدة لأنغكور.

تغلق سوبيب الصفحة الأخيرة وتنتظر رد فعلي. تسألني: «هل استمتعتِ بها؟».

«نعم، إنها قصة رائعة»، أجيبها ثم أضيف بحذر: «مع أنني لست خبيرة في هذه الأشياء».

«هل يمكنك أن تخبريني ما الذي استمتعت به؟».

أشعر وأنا أتحدث مع معلمة بضرورة أن تكون إجابتي منطقية ومعقولة، إجابة تستوعب مميزات القصة. لكن الحقيقة أبسط بكثير، فأقول: «إنها تُسعدني».

تومئ سوبيب برأسها كأنها توافقني، بحركة خفيفة للغاية حتى أظن أنني أتخيلها، وتقول «هذه القصة، توجد منها مئات النسخ في جميع أنحاء العالم، في كل بلد، وقارة، وثقافة».

«هل يعرفون جميعًا قصة ساران؟».

«يختلف اسم الفتاة وظروفها. مع ذلك، تظل للقصة الرسالة نفسها. إنها «يي زيان» في الصين، و«ذات المعطف الرث» في إنجلترا، و«آشنبوتل» في ألمانيا، و«كريشتاش» في سكوتلاندا، و«نياشا» في أفريقيا، و«سندريلا» في أمريكا الشمالية، الأشهر من بينهن تقريبًا، والقائمة طويلة».

«وأين بدأت القصة؟».

«لا أحد يعلم بالتأكيد. توجد منها نسخ كثيرة للغاية لا يمكن للباحثين حصرها. بعضهم يقول إنها بالمئات، وآخرون يقولون بالآلاف. كان الكثيرون يعتقدون أن أول قصة لسندريلا كتبها رجل يدعى بيرولت في القرن السابع عشر في فرنسا. ثم اكتشفوا نسخة صينية تعود إلى ما قبل ذلك بقرون. وما زال آخرون يقولون إن أول نسخة هي رادوبيس، قصة من القرن الأول قبل الميلاد كتبها مؤرخ إغريقي. ويبدو أنهم كلما اكتشفوا سجلات قديمة تظهر فيها نسخة أخرى للقصة».

تتحدث بسعادة حقيقية.

«هل تفهمين يا سانغ لي؟ يوجد ناس يعيشون في جزر بعيدة وسط البحار، معزولون عن جميع الحضارات، لديهم هم أيضًا قصة ساران الخاصة بهم».

«كيف؟ لماذا توجد نسخ كثيرة هكذا؟».

«ظني أن الإجابة في القصة نفسها. ربما لمستها بنفسك حين قلت إنها تسعدك. يبدو، ببساطة شديدة، أن البشر مجبولون على الأمل».

«على الأمل؟». أسأل وأنا أقطب جبيني. «لكنك قلت لي إن الأمل مات في ستونغ مانشي».

«وهذا درس آخر، انتبهي جيدًا إلى مصدر المعلومة».

«لا أفهم».

«لا تعتمدي أبدًا على نصيحة سكير ضال».

فأسألها: «أنتِ تؤمنين بالأمل إذًا؟». تسكت طويلًا، تأخذ نفسًا عميقًا، ثم تقول: «أومن بأن رسالة القصة التي قرأناها الآن تصل إلى أعمق مما تصله شكوكنا».

ترى من وجهي أن ذهني المتعب يواجه صعوبة في فهم ما تقوله فتقرر تسهيل الأمر عليَّ، وتردف قائلة: «يا سانغ لي، يبدو أن الأمل، التطلع إلى أيام أفضل، والرغبة في عيشها، وفي توقعها متأصلة فينا، شئنا أم أبينا، يبدو أن الأمل مكتوب في أعماق قلوبنا رغمًا عنا، ورغم كل محاولاتنا إنكاره. نحن نحب القصة لأننا جميعًا ساران أو ذات المعطف الرث أو سندريلا. نعاني جميعًا الضغوط والمخاوف نفسها. ونتطلع جميعًا إلى اليوم الذي نحظى فيه بمكافأتنا. ونلوذ جميعًا بالأمل، تلك هي المشكلة».

«مشكلة؟».

«نعم، قضية شغلت معلمين كثيرين في الجامعة، منهم أنا نفسي، مسألة لم نتمكن من شرحها. هل نلوم حمضنا النووي لهذه الرغبة المتأصلة في الأمل؟ هل هي آلية بقاء أخرى

ببساطة؟ ألهذا نحب ساران أو سندريلا أم يوجد المزيد مما لا نعرفه؟».

«مثل ماذا؟».

«كان بعض زملائي يحبون تشريح القصص ووزنها، كأن الفقرات ضفادع تجارب. يفككون الجمل، يحفرون داخلها، ويكتبون نظريات عن لماذا وكيف ومتى، لكن في النهاية، حين تستقر الحروف، وتشير إجاباتهم إلى شيء ما أعمق يجن جنونهم، أعترف أنني أحيانًا ما يجن جنوني حقًا».

«حين تقولين *أعمق*، هل تقصدين الأجداد؟».

«أنا أتحدث عن الطبيعة الثابتة *للحقيقة*. فكري في فلسفة بوذا، إنها عن مسار ورحلتنا فيه. هذا هو كل ما تدور عنه تعاليمه عن طريق النبيل الثماني. أتفهمين قصدي؟ هل يوجد كتاب أدب كلاسيكي قصته ليست عن رحلة، إن كانت بالفعل أو في معناها؟».

لا أعرف قصصًا أخرى غير التي قرأتها معها. لا يهم. لأنها تجيب عن سؤالها.

«لا يوجد. إنها ليست مجرد ساران أو سندريلا. انظري إلى كل الكتب والمسرحيات والأفلام- كأننا نواصل كتابة الحبكات نفسها، بالشخصيات نفسها، والدروس نفسها. لماذا تظنين هذا؟».

«لا أحد لديه فكرة أصلية؟».

تنظر إلي باهتمام، وتسأل: «أم أن الفكرة الأصلية جوهرية ومتأصلة وعبقرية وأساسية في وجودنا، ولا يمكننا سوى العودة إليها كل مرة؟».

أحاول فهم ما تعنيه لكنني أرفع كتفي فحسب.

فتضيف: «أقصد أن الكُتَّاب ليس أمامهم خيار آخر. نحن نعيد تمثيل تجاربنا، ومشكلاتنا، وشياطيننا وملائكتنا، لأن القصص توضح حياتنا. تتكرر دروس الأدب لأنها تأتي من الأعماق نفسها. تلمس وترًا في روحنا لأنها نغمات سمعناها من قبل بالفعل. تتكرر الحبكات لأنه منذ ولادة البشر، وهم يحاولون استكشاف أسباب الوجود. تُعلمنا القصص ألا نتخلى عن الأمل لأننا سنمر في رحلتنا بأوقات علينا فيها ألا نتخلى عن الأمل. تعلمنا الصبر لأنه قدرنا. الرسالة، الأقدم من الكلمات نفسها، تتجاوز الكتابة».

تأخذ نفسًا عميقًا وتنتظر.

أقول لها: «كلامك اليوم جميل جدًا. لماذا تركت التدريس؟ لماذا تخليت عن الأدب؟».

فتجيبني بوهن شديد: «ربما الأدب هو ما تخلى عني».

«أتؤمنين بأن الأجداد يهتمون بنا ويراقبوننا؟». أسألها، ما زلت غير متأكدة قليلًا من قصدِها.

ترطب شفتيها المكتنزتين وتجيب: «أميل إلى هذا، لكن...».

«لكن ماذا؟».

«نحن جميعًا نريد أن نكون سارات. ليكون لدينا الأمل في المستقبل. ومع أنني أنا أيضًا أريد أن تنتهي قصتي نهاية سعيدة، توجد مشكلة تظل تعوق طريقي، أستيقظ كل يوم لأجدني لست سوى الأخت غير الشقيقة القبيحة».

«أتقولين هذا لأن قصصنا لا تنتهي كلها نهاية سعيدة؟».

«تلك يا سانغ لي، هي المفارقة»، تواصل، «الجزء المربك. يبدو أننا لو فهمنا هذه القصص حرفيًا، إن توقعنا أن تنتهي متاعبنا الشخصية دائمًا بأمير وسيم سيبيت بعضنا بأحلام محطّمة. وعلى الجانب الآخر، وهذا هو الجانب المحبِط حقًا، فإن لم نستوعب المغزى حقًا وعددناه مجرد ترفيه، فسنفوّت بذلك العناصر الأعمق والأقدر على تغيير حياتنا. سنفقد الغرض الحقيقي لوجودها نفسه».

سكوتها أطول هذه المرة. ثم تتغير نبرتها وتضيف: «وإن حدث هذا، سنغدو مشككين، وبعد تدريس الأدب في الجامعة، سينتهي بنا الأمر نشرب نبيذ الأرز في مكب القمامة».

حين تجبر نفسها على الابتسام أفهم أنها تقصد بتعليقها الأخير السخرية. ثم تضيف لتزيح عن كاهلنا لحظة محرجة ربما: «كذلك.. إن انتهت كل قصصنا بأمير وسيم، فلن يوجد أحد في المملكة ليقف ويشجع».

جنوب شرق المكب، حيث لم تجمع الجرافات القمامة في أكوام بعد، تتحول الأرض إلى مستنقع وبرك ماء صغيرة متفرقة، كل منهما بعمق قدم أو اثنتين وعلى مساحة مئات عدة من الأقدام ينمو القصب حول الحافات، وفي أوقات معينة في العام، تنمو الحلزونات التي تعيش في الماء بما يكفي لنجمعها.

ولما كنت نادرًا ما أجمع القمامة، ولما كانت سوبيب أعفتنا من أجرة شهر واحد فقط، أتردد في إنفاق قدر كبير من النقود التي يكسبها كي ليم لشراء لحم خنزير من السوق. بدلًا من ذلك، حين يصل كي إلى البيت مبكرًا اليوم، أمسك بأحد الأجولة التي نستخدمها لجمع النفايات القابلة للتدوير، وأطلب منه أن يعتني بنيساي، وأخبره أنني سأعود إلى البيت خلال وقت قصير في العشاء.

ذات مرة، سألني طبيب ماذا أُطعِم نيساي، فأجبته أننا في بعض المناسبات نأكل حلزونات مسلوقة. تحمس كثيرًا، كأن الحلزونات عنصر أساسي في غذاء الجميع، ثم أضاف أنه يأكلها في لو بويلون كارتييه، أحد أفضل المطاعم في فرنسا. كان هو الطبيب الذي أخبرني أن ممارسة كشط جلد نيساي مضيعة للوقت، ولم أستطع أن أحدد من نبرته إن كان يسخر مني بشأن الحلزونات أم يتحدث بصدق. افترضتُ الصدق، لذلك ففي المرة التالية التي طبختُ فيها حلزونات، أوضحت لكي أننا نأكل مثل

الأغنياء في فرنسا. لا أتذكر رده تحديدًا، لكنني متأكدة أنه احتوى كلمة *شكوات* (مجنونة).

تلعب بنات تيفا ماو الكبيرات أمام البيت، وحين يدركن إلى أين أتجه، ينضممن إلي في المغامرة. حين نقترب من برك المياه نجد آخرين يجمعون الحلزونات بالفعل، ومع أننا نتحدث عن حلزونات في مكب القمامة، أُسرع خطوي قلقة من أن يفوتني الكثير. المياه طينية، وألاحظ من أول نظرة أن الحلزونات ما زالت صغيرة للغاية، حتى نصل إلى المياه الأعمق. لا أجد الحلزونات أكبر فحسب، بل أكثر أيضًا. ثم يبدأ المطر السقوط.

أبحث في منطقة حيث يصل الماء إلى ركبتي لكن ما زالت توجد بقع من القصب، وألتقط هناك حلزونات بحجم الليمون. يزداد المطر غزارة وأنا أجمعها في حقيبتي. أبذل جهدي كي لا أنزلق، لكنني لا أشكو. المهمة محتملة إلى أن ألمح كاحلي بعد أن أخرج من الماء لأرى ما يشبه لطخة طين سوداء كبيرة.

في هذه الحياة لدينا جميعًا أنواع رهابنا ومخاوفنا. لينا تكره الحلزونات. ونارين تخاف الخنافس. ودارا نيك لا تحتمل ذكر العناكب. أنا، بدوري، أخاف البزاقات، مثل تلك التي التصقت بكاحلي الآن.

لست غبية لأترك حقيبتي، بل أمسك بها بقوة وأخرج من الماء بسرعة كأن أحد مخلوقات المستنقع سيلتهمني، وهو ما سيحدث. ما إن أصل إلى اليابسة، حتى ألقي حقيبتي وأمد يدي لأنزع البزاقة البائسة عن جلدي. لا يمكنني. إما أن أصابعي زلقة للغاية من الحلزونات التي جمعتها وإما أن يدي ترتعش من الذعر.

لا يمكنني الإمساك بالوحش الذي يمتص دمي. أحاول بطريقة أخرى، أخبط قدمي في الأرض مرارًا، كأن نيران المكب أمسكت ببنطالي، على أمل أن تسقط البزاقة، لكنها حيوان صغير عنيد لا يتزحزح.

«يا فتيات! تعالين بسرعة!» أصرخ كأن النيران أمسكت بمياه المستنقع أيضًا وسنهلك جميعًا إن لم يأتين على الفور.. يواصلن اللهو بالماء والضحك.

أصيح عليهن بصوت أعلى.

حين يصلن إليَّ أخيرًا. تدوِّر فانا، أكبرهن، بؤبؤي عينيها في محجريهما، وتقول: «انزعيها، بسرعة!» أقول فتمد يدها لتحاول. تتمدد البزاقة، طويلة وممتلئة، تنزلق من بين أصابع الفتاة النحيلة، وأنا متأكدة أنها تزداد طولًا وامتلاءً كل ثانية.

«هذا صعب جدًا»، تقول وهي تحاول مجددًا وتفشل فشلًا ذريعًا.

فتقول الصغيرة: «إنها تذهب لحالها حين تشبع تمامًا من الدم».

نصيحة مثيرة للفضول لكنني لا أنوي اختبارها! فأقول لفانا: «أعطني صندلك بسرعة».

تخلعه وتعطيه لي، فأزيل بسطحه المستوي البزاقة اللعينة عن قدمي أخيرًا. يواصل الدم النضح من جلدي في البقعة التي التصقت بها.

أعلن بتكشيرة: «سأعود إلى البيت، لقد انتهيت من جمع الحلزونات»، وألتقط حقيبتي من على الأرض وأبتعد. أنظر

بحرص حيث أخطو. أشعر كطفلة عصبية رفضت اللعب لأنه لا يسير حسب طريقتها، لكنني لا أكترث. وفتيات تيفا لا يكترثن أيضًا. يرفعن أكتافهن، ويلوحن لي، ثم يضحكن عليَّ بعد أن أبتعد بما يكفي.

حين أصل إلى البيت، أكون قد هدأت قليلًا. أعطي كي الحلزونات التي جمعتها قبل هجوم البزاقة اللعينة. أراقبه وهو يلقي بها في الصندوق الستايروفوم خاصتنا. يغمرها بالماء لينظفها، ثم يلقي بملح قليل ليخرجها من قواقعها. بينما يعمل، أعيد حكي الهجوم الشرس بتفاصيل أدق. يحاول ألا يبتسم، لكنه يبذل جهدًا قليلًا لإخفاء استمتاعه.

«أين عضتك تحديدًا؟». يسأل، ولا أعرف إن كان مهتمًا أم يغيظني فحسب. ظني أنني أريته بالفعل، لكنني، رجاء في أكبر قدر ممكن من التعاطف، أستدير وأرفع ساق بنطالي ليرى بنفسه.

«كانت هنا بالضبط...» أشير إلى جرحي، لكنني حين أنظر، لا أجد شيئًا. لا بد أنني أخطأت القدم الجريحة. أستدير إلى الجانب الآخر وأرفع ساق البنطال الأخرى. «أعني أنها كانت...»، ليست في هذا الكاحل أيضًا، ما يربكني للغاية، وفجأة، أجدني لا أتذكر أين عضتني تحديدًا.

لا يهم، كي بالكاد يمكنه التحكم في نفسه. أريد أن أشاركه ضحكه، لأن الموقف مضحك جدًا بالفعل. لكنني أهز رأسي بازدراء، وأنحني، لأعد عشاءنا في وعاء طهو، وأنوي ألا أتبادل معه كلمة واحدة حتى وقت متأخر من المساء.

****

«ظللت أفكر في شيءٍ ما قلتِه آخر مرة تقابلنا»، أقول لسوبيب بعد أن أنهينا نقاش القصة التي قرأناها.

«أنت تسمعين بالفعل إذًا».

أتجاهل سخريتها، وأردف: «قلتِ إننا جميعًا نريد أن نكون أبطال القصة».

«نعم».

«حسنًا، لقد سألت سيدا سون عن رأيها في الأبطال».

«وماذا قالت؟».

«ضحكت وأخبرتني أن أنظر حولي، وأخبرها حين أرى بطلًا يمر، لكنني سأشيب وأنا في الانتظار، ثم تركتني وذهبت».

«ربما كانت تقصد النوع الخاطئ من الأبطال».

«لا أفهم».

«الأبطال من أنواع كثيرة، بعضهم كاره، وبعضهم ودود، يتحركون أحيانًا وحدهم، وأحيانًا في مجموعات. ونادرًا ما يكونون كاملين».

«ما الذي يجعلهم أبطالًا إذًا؟».

«سيتفق أغلب المعلمين على أن العلامة الحقيقية للبطل، ما يميزه عن الآخرين جميعًا، هي التضحية. يضحي البطل بشيء ما، أحيانًا ما تكون حياته حتى من أجل الآخرين».

«هل منح الوقت يعد تضحية؟ مثل تعليمك لي القراءة؟».

نقاشنا اليوم ودود إلى حد كبير. لكن غضب سوبيب يشتعل فجأة: «لا تتأملي فيّ! لن أتسامح في هذا».

لا أفهم كيف تتحول إلى لئيمة للغاية بسرعة هكذا. أقول لها: «أنا لا أقصد... أو لا أظن أنني أفعل هذا. أنا لا أعرف حتى معنى أن أتأمل».

فتواصل: «افهمي أيتها الصغيرة، أنا لست بطلة أحد».

كالعادة، يجب أن أغلق فمي. لكنها حين تغضب بلا سبب، يجعلني هذا... حسنًا... أغضب. أقرر بدلًا من إظهار غضبي أن أدّعي الغباء، فأسألها: «لكنك تعلمينني، أليست هذه تضحية؟».

يفلح الأمر. تقترب مني بشدة حدًا يصعب علي النظر في عينيها. تخرج نبرتها ببراثن لا مرئية وتمسك بعنقي. «لا تفترضي أبدًا أنني أفعل هذا من أجلك. أنا لست بطلة، ليس لكِ، ولا لأي أحد! هل تفهمينني؟».

لست متأكدة تمامًا مما أثبتّه، لكنني أشعر بأنني أثبتُّ شيئًا ما هناك في مكان ما. «نعم»، أجيبها. «أنا آسفة».

أحيانًا حين أغضبها، ننهي مبكرًا. ظني أنني لو اضطررت إلى التعامل مع نفسي، سأحتاج إلى الشرب أيضًا. لكنها اليوم، تستعيد هدوءها وتستأنف الدرس. تقول: «توجد شخصيات أخرى مهمة إلى جانب البطل. القصص مرصعة بشخصيات ستتعرفين إليها في حياتنا اليومية. وسنتحدث عنهم أيضًا».

«مثل من؟».

«هل قابلت من قبل أحدًا يدّعي أنه شخص آخر غير نفسه؟ صديقة، ربما، مرت بك من قبل؟».

«نعم، بالطبع».

«لقد قابلتِ أحد المتحولين إذًا، مع أنهم ليسوا أشخاصًا دائمًا. القدر هو أشد المتحولين جنونًا».

ربما رأت من وجهي المقطب كله أنني لا أفهمها. لكنني أفهم. مع أنها تتحدث بسرعة شديدة وعلي التركيز كي لا يفوتني شيء.

أقول لها: «أخبريني عن المتحولين الآخرين».

فتسألني: «هل لديك أصدقاء أو أقارب مهزارون ويلقون النكات دائمًا؟».

فأجيبها: «الجميع كذلك».

فتقول: «هؤلاء بذكائهم لا يريحون الآخرين فحسب، بل في الغالب ما يأتون بأفعال شيطانية تشير إلى العبث، أو ما يحتاج إلى تغيير».

«مثل محظوظ السمين».

«وضّحي ما تقصدينه».

«ذاك النهار، سخر محظوظ من سخف شاري الخردة في وجهه مباشرة لأنه يدفع للنساء والأطفال أقل مما يدفع للرجال، وجدت الأمر مضحكًا، لكن الرجل بدا منزعجًا. وكذلك دفع لي ذاك اليوم كما يدفع لزوجي كي».

«أنتِ تعرفين مزايا المحتال بالفعل إذًا». ترفع ذراعها لتغطي به النصف السفلي من وجهها وتنحني حتى خصرها وهي تنظر حولها في الغرفة بشراسة، وحين تتحدث، يبدو صوتها منذرًا تقريبًا. إنها تمثل بالفعل؛ أرى جانبًا من المرأة لم أره من قبل قط. تقول: «ثم هناك قناع الظل، وهي شخصية ماكرة بالفعل».

فأقول: «لا بد أنها الشخصية الشريرة، مثل العصابات».

تقول موافقة: «هذا وارد»، ثم تنهض وتفرد ظهرها وتواصل: «أحيانًا، الظل هو الشرير، لكنه قد يكون أيضًا شخصًا لا يتفق مع البطل ببساطة ويحاول توجيهه أو توجيهها إلى مسار مختلف. وأحيانًا الظل ليس شخصية على الإطلاق».

«كيف؟».

«أحيانًا تكون الظلال بداخلنا، كل أسرارنا القاتمة التي تتنازعنا، أسرار لا يمكننا أو لا نريد البوح بها، ولو حتى لأنفسنا».

«يوجد شيء ما مما قلتِه يربكني».

«أنا أيضًا تربكني أشياء أقولها. ما هو؟».

«إن الظل ليس دائمًا الشرير، إنه قد يكون أيضًا شخصًا ما لا يتفق مع البطل، هل يعني هذا أن كي ظل حين يخبرني أنني مخطئة؟».

«سؤال جيد. تذكري، من وجهة نظر الظل، نحن الظل وهو البطل. وهنا شيء ما آخر مربك بالقدر نفسه: أحيانًا تمتزج جميع تلك الشخصيات معًا. قد نرى أي شخصية في القصة ترتدي قناع شخصية أخرى أو جميع الشخصيات الأخرى مؤقتًا، حتى البطل».

«كيف يتضح الأمر إذًا؟».

«في الغالب لا يتضح. هذا ما يجعل الأدب، والحياة، ممتعين للغاية. قد تكون تلك الشخصيات أمامنا مباشرة، ومع ذلك لا نراها».

تتردد قليلًا، أسألها: «ما الأمر؟».

فتجيبني: «فكري في هذا أيضًا، ثم سننهي درس اليوم. كل تلك الشخصيات التي ناقشناها، وشخصيات أخرى كثيرة لم نناقشها، معاناتها ليست واضحة دائمًا. في كل قصة تقريبًا، تدور أشد المعارك في داخلنا دائمًا».

ثم تضع كتبها في حقيبتها، حركة تخبرني أن درس اليوم انتهى. ربما كانت الحيرة التي ظلت عالقة في وجهي، أو أنني

صامتة أخيرًا ولا أطرح أسئلتي المتواصلة، في الحالتين تترك لي قبل أن تعبر الباب مباشرة فكرة أشعر بأنها ستظل في ذهني طوال الظهيرة. تقول:

«حين نظن أننا فهمنا قصتنا، يظهر أبطال من حيث لا نتوقعهم».

****

المومورديكا شارانتيا [المعضوضة الكرمية الأوراق] نبات استوائي ينمو في كمبوديا ومعروف على نطاق واسع كونه فاكهة تؤكل. الثمرة خضراء وبأحجام وأشكال مختلفة، لكنها في الغالب بيضاوية بطرفين مستدقين بوضوح. تبدو باختصار مثل الخيار النحيل بغشاء رهيب من البثور. تُدعى أيضًا القرع المر، وهي كذلك بالفعل. الفاكهة الأكثر مرارة وحموضة من بين جميع أنواع الفاكهة في كمبوديا.

تقول تيفا ماو إن أوراق نبات القرع المر تحفز الهضم، وتخفف الحمى، وقد تفيد ابني جدًا. حين تعود من رحلة إلى المدينة، تُحضِر معها بعض أوارقه ألتي اشترتها من السوق، أمتنّ لها بشدة. نيساي ليس سعيدًا مثلي. لا يهمني. لقد ساءت حالته وسوف أجرب أي شيء. أغلي النبات في الماء حتى يصطبغ بلون الأوراق، ويتحول إلى سائل أخضر فاتح زمردي. يبدو شهيًا بالفعل، حتى أني آخذ رشفة. تتقبض شفتاي وتتغلقان ويسد لساني حلقي لا إراديًا. يجعلني هذا أتساءل: إن كنت أنا بالكاد أحتمل مذاقه، كيف سأقنع نيساي بتذوقه؟

يظن كي الأمر مضحكًا، فأعطيه مهمة إطعامه للصغير.

يبدأ بملعقة، ورغم حماسة نيساي في التجربة الأولى، لكنه ليس أحمق. أرى قطرات السائل الخضراء تنسال على صدره العاري وأتساءل كم بلع منه بالفعل. يحاول كي مجددًا، فيبكي نيساي، ويبصق، ويلوي رأسه بعيدًا على كلا الجانبين، والأمر واضح للجميع -حسنًا، لي أنا على الأقل- إن هذا لن يفلح. لكن كي يصبح أحيانًا عنيدًا بقدر نيساي. يخرج بسرعة وهو يخبرنا أنه سيعود حالًا، ثم يعود سريعًا بالفعل بعلبة عصير صغيرة من فاكهة تسمى «طيب»، ومعروفة أيضًا «بتفاح الكاسترد». (لا أعرف من أين أتى بها، ويرفض أن يخبرني). ومثلما القرع المر معروف بمراره، تفاح الكاسترد معروف بحلاوته. في المحاولة الثالثة، حين يلوي نيساي برأسه، يدفع كي بملعقة من السائل الحلو بين شفتيه، فيكف عن البكاء، ويعود إليه باهتمام، ويبرز لسانه من فمه، كأنه يقول: «ما هذا، يوجد شيء مختلف هنا!».

يتم التحول بسرعة شديدة لحد لا يسعنا معه أن نكتم ضحكنا، ويبدو نيساي الآن كفرخ صغير في انتظار الإفطار. أشعر بالحزن عليه تقريبًا، لأنني أعرف ما سيحدث. سيبتلع، ويدرك، ويسعل، ثم يبكي. يدفع كي حينها بملعقة أخرى من السائل الحلو بين شفتيه ليعيد الكرة مجددًا. خداع الأبوين في أوضح صوره، وزوجي فخور بنفسه تمامًا، رغم حقيقة أن صغيرنا سيعاني مشكلات ثقة واضحة حين يكبر.

مع ذلك، إنه يوم سعيد، ويحدوني الأمل أن يفيده العلاج. لكن في الصباح التالي، يوجد إسهال أكثر، هذه المرة بلون أخضر عجيني، ويظل ابني يبكي أغلب الصباح قبل أن أسلمه إلى شخص

آخـر، ليـس أمـه، ولا يهتـم بـه بقـدر مـا أهتـم بـه، وأعـود بخطـوات ثقيلـة إلـى البيـت لأتلقـى دروس الأدب لأن هـذا مـن المفتـرض، بطريقـة مـا، فـي ذهنـي الملتـف، أن يسـاعده.

حيـن تصـل سـوبيب أخيـرًا تسـألني: «أأنـتِ بخيـر يـا فتـاة؟ تبديـن كأنـك كنـت تبكيـن».

# الفصل السابع عشر

الأحلام غريبة.

أغلبها مشاهد لا معنى لها تُضحكنا حين نتذكرها في الصباح. أخرى كوابيس مرعبة يهاجمنا فيها عصابات، وتطاردنا شاحنات القمامة، أو نهوي في ظلام بلا قاع. نادرًا ما تكون الأحلام واقعية، بتفاصيل دقيقة وعميقة، بحيث تغير مسار حياتنا. بالأمس حلمت حلمًا كهذا.

لم يكن عن طفولتي. لم أتحدث مع جدي أو أحاول فك شفرة نصائحه الملغزة كالعادة. في الحقيقة لم أتفوه بكلمة. بل، حين أستيقظ في الصباح، أو أحلم بهذا، وأفتح ستار بيتنا الصغير في ستونغ مانشي أجد المكب كله مغطى ببطانية من الرماد الأبيض. أفترض أن النيران لا بد كانت قوية للغاية لتخلف رمادًا كثيرًا بهذا القدر، لكنني حين أرفع بصري، وأرى جوراني خان، تشير لي لأتبعها، أدرك أن ما يكسو ستونغ مانشي ليس رمادًا إطلاقًا، بل ثلج.

لم أر الثلج من قبل قط، ولم أشعر بلمسته أبدًا. أعرف عنه من صور رأيتها عَرَضًا في مجلات السفر في القمامة، ومن قصص جوراني خان. ذهبتْ ذات مرة حين كانت صغيرة إلى مكان يدعى «كو.. لو.. را.. دو» في أمريكا مع أبيها. أخبرتني عن اللعب بكرات ثلج مثل القطن، لكنها ثقيلة كالطين، وقذف الآخرين بها. قالت إن أكوام الثلج على الجبال كانت طويلة للغاية مثل أكوام القمامة في ستونغ مانشي تقريبًا.

لم ألعب في الثلج مع ذلك. مرض نيساي مجددًا ولم تكن لدينا نقود للطبيب، فكان عليَّ أن أعمل. حين نظرت مجددًا إلى جوراني خان لأخبرها بذلك، كانت قد اختفت. لم أر شيئًا سوى السكون، لا ضجيج شاحنات، ولا جرافات، لا أحد يجمع القمامة، لا خنازير، لا دجاجات، لا صخب أطفال، ولا ذباب. كان المكان في صمت تام.

ورغم المشهد غير المعتاد، أمسكتُ بعصا الجمع وجوال خيش فارغ، كأنه يوم عمل عادي. كانت حقيقة أنه يوم عادي هي ما جعل الأمر جزئيًا غير عادي على الإطلاق. خرجتُ إلى الثلج، وما إن وطئت قدمي الصفحة البيضاء، أدركت أن القمامة العفنة لم تعد موجودة. اختفى كل شيء قذر في ستونغ مانشي، لا جراثيم، ولا رائحة كريهة، ولا مياه مسممة، ولا دخان، ولا نيران، ولا استعجال، ولا عصابات، ولا طعام فاسد. أقذر مكان على وجه الأرض صار نظيفًا. مكتبة سُر مَن قرأ

أجول بعينيّ مذهولة، فأرى في الأفق البعيد موطني، قرية بري فينغ. كنت أعرف أن هذا مستحيل، لأن بري فينغ وستونغ مانشي بعيدان للغاية عن بعضهما بعضًا، مسافة تحتاج إلى رحلة طويلة في الحافلة، وصعود جبل، ثم ركوب قارب في النهاية، لكنني كنت أراها رغم هذا. وفي قريتي، وقف رجل في انتظاري، بيديه ممدوتين نحوي، كأنه يريد مني أن أعطيه شيئًا ما، أو ربما كان يشير لي نحو بيتي. في البدء ظننته جدي، لأنه من يزورني في أحلامي غالبًا. مع ذلك كان الرجل طويلًا جدًا، ويقف مستقيمًا للغاية، وعريض المنكبين وليس جدي حتى في شبابه.

ثم قال: «كان عليك المجيء مبكرًا. لماذا لم تأتي مبكرًا؟».

كرر سؤاله ثلاث مرات قبل أن أجيبه. لكنني استيقظت في اللحظة التي كنت سأسأله فيها عن اسمه ومعنى سؤاله، وكان صوته ما زال يتردد في أذني:

«سانغ لي، كان عليك المجيء مبكرًا».

****

«هل تحلمين؟». أسأل سوبيب قبل أن ننهي درس اليوم.

«أتقصدين الأهداف، كأن تحققي حلمك؟ أم تعنين الاستيقاظ بشعور من الراحة لأنني لم أكن أعمل عارية في المكب حقًا؟».

لم أعرف مدى خفة ظلها حتى تعرفت إليها جيدًا.

«أقصد رؤية أشخاص وأماكن مألوفة في أحلامك، لكنك لا تفهمين ما معنى هذا، إن كان يعني أي شيء على الإطلاق».

«أنت تتحدثين عن الأحلام الجادة؟».

«نعم».

«الأحلام الجادة الوحيدة الباقية لدي ليست سعيدة عادةً».

«كوابيس؟».

تومئ برأسها وتضيف: «ربما كانت أعراض الشيخوخة».

«أنا آسفة»، أقول لها، «كيف تبعدينها؟».

«بنبيذ الأرز. لماذا كل هذه الأسئلة؟».

«حلمت حلمًا يبدو مهمًا، لكنني لست متأكدة».

«ظني أن هذا يعتمد على ما تختارينه أنتِ».

«كيف؟».

«قال ويليام شكسبير عن الأحلام إنها أطفال الذهن البليد، لا تأتي بسوى خيال عديم الجدوى».

«وما الخيار الآخر؟».

«قد تكون علامة الطموح أيضًا. ظني أنه قال: «الأحلام طموح بالفعل، لأن الطموح في جوهره ليس سوى ظل الحلم».

«ومن قال هذا؟».

«ويليام شكسبير أيضًا».

«لم يمكنه التحديد؟».

ترفع كتفيها قائلة: «في رأيي أنكِ لو شعرت بأنها مهمة فالأرجح أنها كذلك. يمكن لوعينا الباطن أن يكون مثابرًا للغاية في دفعنا نحو مسارنا، حتى إن لم نسلكه من قبل».

«الأحلام مهمة إذًا؟».

«قطعًا. بعض أهم القصص في العالم، أعمال أدبية غيرت حيوات، جاءت من أحلام».

«حقًا؟».

«لنرَ. كثير من كتابات بوذا المقدسة تصف أحلامًا معينة. ثم هناك *أليس في بلاد العجائب* للويس كارول، أنموذج واضح لقصة من أحلام. توجد أيضًا كوبلا خان، قصيدة لكوليريدج تعد من أعظم أعماله، تحتفل بالإبداع وبتواصلنا مع الكون كله، وقد نظمها ذات ليلة عقب حلم. وكان روبرت لويس ستيفنسن، روائي سكوتلندي، يحلم أحلامًا قوية، وكذلك بونيان، الذي ينسب الفضل بكامله في روايته *رحلة الحاج* إلى الأحلام. كذلك صاغ الكاتب الكمبودي نهيان أوي العديد من أحلامه في قصص.

امنحيني الوقت فحسب وقد أتذكر دزينة عناوين أخرى، وربما المئات أيضًا، ولا ننسى كارل يونج، الطبيب النفسي السويسري، الجد الأكبر لعلم نفس الأحلام. أكد يونج أن الأدب والأحلام يتضافران معًا بطرائق مذهلة. وقد وثق للصلة بين أحلام مرضاه وشخصيات من الأساطير، مع مَن لم يقرؤوها حتى».

«وكيف يمكن هذا؟».

«كان يرى أن كلًا منهما يأتي من نبع أعمق».

«لكن كيف أعرف معنى *حلمي*؟».

«إن استمعت إلى يونج فقد قال إن علينا لنعرف معنى أحلامنا أن نتأمل فيها. ظني أنه قال «يستسلم العقل الواعي لتأثيرات اللاوعي بسهولة شديدة، لأنها في الغالب أصدق وأكثر حكمة من التفكير الواعي».

«لا أفهم ماذا يقصد».

«يقصد أن الأحلام أهم مما نتخيل حتى، لكننا علينا الاستماع إليها فحسب».

****

يجب تحميم نيساي، نقف خلف البيت حيث أسكب عليه الماء بكوب صفيح لأنظف جروي الصغير قبل عودة أبيه إلى البيت. فات الأوان. يصل كي مبكرًا ويركض حول البيت ليجدنا. قبل أن يفتح فمه ليقول كلمة، يخبرني وجهه أن ثمة خطب ما.

أسأله: «ماذا حدث؟».

«لا تقلقي. كل شيء بخير. إنه محظوظ السمين».

«أخبرني! ماذا حدث؟».

«حين لَم يأتِ إلى المكب اليوم، ذهبت أمك لتطمئن عليه...».

«وماذا حدث؟». أثبت عيني على عينيه، في انتظار أن يواصل كلامه.

«يبدو أن بعض أفراد العصابات ما زالوا يبحثون عن الفتاة».

«وذهبوا إلى بيت محظوظ؟ كيف عرفوا؟ ماذا فعلوا به؟». أصيح في الشخص الوحيد في المكب الذي لا يجوز لي أن أصيح فيه.

فيجيبني: «حين لم يخبرهم بشيء، قرروا تلقينه درسًا».

يخفق قلبي وأتمنى أن ينطق بها فحسب. «أرجوك أخبرني إن كان بخير».

«أبرحوه ضربًا وحطموا معظم تماثيل بوذا. وتلقى لكمة في عينه، فتورمت حتى انغلقت، لكن لينا معه الآن ويبدو أنه سيكون بخير».

«إنه طفل. كيف يؤذون طفلًا؟». سؤال غبي، أنا أتحدث عن أشخاص يريدون بيع فتاة صغيرة للعمل في الدعارة. ومع أنني ظللت دائمًا أومن بالسلمية، وجدتني أريد أن أرميهم في وجوههم بتمثال حجري لبوذا.

«ماذا سنفعل؟». أسأل كي وأنا على استعداد لأخذ سكينه والانطلاق لملاحقتهم فورًا.

«قابلت التوّة عددًا من الرجال. يبدو أن محظوظ محبوب من الكثيرين.

يعني هذا، إلى جانب كلمات سوبيب، التي أخبرتهم بها، أننا سنحارب الشر... حسنًا، يبدو أنني أحرز بعض التقدم أخيرًا».

«ماذا تعني؟».

«أعني أن عدد الرجال الذين يريدون المواجهة والتصدي يقترب الآن من ثلاثين».

# الفصل الثامن عشر

تقرر سوبيب أن تجلس اليوم لأنها تشعر بتعب قليلًا، فنجلس معًا، جنبًا إلى جنب، على الأرض حيث يمكن لكل منا أن ترى. تفتح الكتاب عند صفحة وضعت عندها علامة. تقول: «ظني أن الوقت حان لمأساة».

«حقًا؟ لست متأكدة من استعدادي للمزيد».

«لا أحد كذلك أبدًا يا سانغ لي».

تعطيني الكتاب ثم توضح: «هذه هي القصة التي يرى الكثيرون أنها ألهمت شكسبير لتأليف روميو وجولييت».

أومئ برأسي موافقة، كأن الأمر معروفًا، كأنني سمعت عن القصة التي تتحدث عنها.

فتواصل: «في القصة الأصلية، اسماهما بيراموس وثيسبي».

«لماذا غيّر اسميهما؟».

«لم يغيّرهما. إنهما قصتان مختلفتان وعن أشخاص مختلفين. والبعض يرون أن بيراموس وثيسبي هي الأولى... حسنًا، لنبدأ ثم ستفهمين».

هذه المرة تطلب مني أن أقرأ أنا، فأبدأ القراءة ببطء.

في وقت لاحق من الظهيرة حين أذهب إلى المظلات، أرى منظرًا في ستونغ مانشي أكثر إعجازًا من الثلج. اصطفت أربع شاحنات قمامة، تفرغ كل منها حمولتها كالعادة، ولا أحد -أعني لا أحد- يقف قريبًا للالتقاط منها. أحدق إلى المشهد الغريب،

متأكدة أنه ليس حلمًا، لكنني لا أعرف ماذا أفعل، وذهني يحاول تمييز صوت غير مألوف. أسمع إلى جانب أبواق الشاحنات المتراجعة إلى الخلف وطنين الذباب، ما يبدو أنه تهليل في مباراة كرة قدم. مع ذلك، حين أنظر حولي، لا أرى سوى الفراغ.

حينها تمر من خلفي امرأة تركض. أعرفها، لكنني لا أتذكر اسمها. غالبًا ما تنتظر عند المظلات في الظهيرة فيما يلتقط زوجها، حديث العهد في المكب، القمامة التي تلقيها الشاحنات. تقول لاهثة: «أسرعي، إنهم أعلى التل مباشرة»، وتشير نحو ما ألاحظ الآن أنه مصدر التهليل. «لقد قبضوا على واحدٍ منهم»، تضيف بفرحة شديدة تزغرد في صوتها. «قبضوا على أحد اللصوص الذين ضربوا الفتى».

حين أصل إلى الجموع، يستمر الصياح والسب دون توقف. أشق طريقي بين المتجمعين، أمر بغرباء، وجيران، وأصدقاء. وحين أصل إلى مركز الشجار، أتعثر وتخر ركبتاي، لم أتوقع المشهد الذي في انتظاري. منحوا المجرم مساحة ما الآن، لأنه لن يذهب إلى أي مكان. ليس سوى صبي. عيناه المفتوحتان تحدقان إلى الشمس مباشرة. ذراعاه أسفله، كأنه سيقفز ويهرب، لكنه راقد على ظهره بساقيه مثنيتين بشكل غير طبيعي على الإطلاق. يسيل الدم الطازج من فمه وأذنه، ويكشف قميصه الممزق عن جروح غائرة، سببتها قطعًا المشاجب المعدنية الحادة لعصي التقاط القمامة التي نستخدمها جميعًا.

الفتى، على مقربة بوصات قليلة من وجهي الآن، ميت.

ثم ألاحظ شيئًا مألوفًا في وجنتيه الحادتين. أطرف بعيني وأشعر بدوار، وبرأسي خفيفًا، فأدرك أنها نوبة فرط تنفس. أغطي فمي، ليس للتحكم في تنفسي فحسب، بل أيضًا لأمنع معدتي من تفريغ محتوياتها إلى الخارج.

يصيح رجل، «إنه مَن ضرب محظوظ»، ويضيف آخر، «لص». ويوضح رجل آخر، «قبضنا عليه متلبسًا بالسرقة». تمتزج أصواتهم الجازمة وتدور معًا في دوامة من التبرير الفوضوي حول الفتى العاجز عن إجابتهم.

«ماذا سرق؟». أسأل، لا أحد على وجه التحديد.

تجيبني امرأة تقف في الدائرة: «كان هناك أربعة منهم حاولوا سرقة حقيبة علب من مين تشيم. كان محظوظ يستريح على بعد مظلتين، ما زال مريضًا من الضرب، وتعرّف إلى ثلاثة منهم على الأقل».

أبحث عن محظوظ، لكنني لا أجده.

أصيح: «ما اسم الفتى؟ من فضلكم، هل يعرف أحد منكم اسم الفتى؟».

أتمنى أن أكون مخطئة، وألا يكون الراقد الميت أمامي هو شقيق مالي، فيجيبني صوت: «لا أعرف اسمه لكنه من كان يبحث عن الهاربة».

قبل أن تستقر الإجابة في ذهني، أتهوع وأتقيأ في القمامة على الأرض.

أردت منذ أيام قليلة فحسب أن أقتل المجرمين بنفسي. لكنني أردت الانتقام من لصوص وبلطجية، صور قاتمة للشر تتجمع في رأسي حين أتخيل من ضربوا زوجي أو محظوظ السمين، وليس من فتية، خاصة هذا الفتى.

ثم أشعر بلمسة كي المرتعشة على ظهري. يرفعني من على الأرض، بعيدًا عن الجثة، وسط الزحام الذي بدأ يقل بانسحاب الكثير نحو الشاحنات. يتنفس بصعوبة، ويقبض على سكينه بيده الأخرى.

«ماذا حدث؟». أسأله حين نجد مكانًا وسط القمامة لنجلس فيه، لست متأكدة من استعدادي للإجابة. يستغرق دقيقة ليستعيد هدوء تنفسه قبل التحدث. تخرج كلماته متقطعة ويداه ترتعشان. أنظر إلى يديّ، ترتعشان أيضًا. ثم يقول: «كنت أعمل مع الرجال... قرب الشاحنات... حين بدأ شخص ما بالأعلى عند المظلات يشير ويصيح. ثم بدأ عدد قليل من الرجال ملاحقتهم، ثم تبعهم آخرون. وسرعان ما كان الجميع يلاحقونهم».

ينظر إلى يده فيدرك أنه ما زال ممسكًا بسكينه، فينظر حوله كأنه يبحث عن أحد ليأخذها منه، أو مكان ما ليضعها فيه. لكن لا يجد. فيواصل:

«حين سقط واحد منهم، أمسكوا به. كان الجموع يصيحون «لص وسارق» ويضربونه بعصيهم وأنا أركض نحوهم».

«من هم؟».

«لا أعرف تحديدًا، الجميع، على ما أظن. حين أحاطوا به، ركضت مع شي وبران تيو خلف الثلاثة الآخرين. حين أوشكنا

نمسك بهم، فكرت في أنني لست متأكدًا أنني أريد هذا».

يرفع ساق بنطاله بيده التي ما زالت ترتعش، ويزلق السكين في جرابها. ثم يمسح أصابعه في قميصه. ويواصل: «خرجوا إلى الشوارع، قرب المصنع على طريق شوام شاو، وفقدناهم... وكنت سعيدًا. ثم حين عدنا... حسنًا، حينها وجدتك تركعين بجانب...».

لا يعرف كي اسم الضحية، لا يدرك من يكون، لا يريد أن يدعوه الفتى، لذلك يسكت لحظة قبل أن يواصل: «عرفت أنه ميت، ثم.. لم أرغب في أن تريه».

«لم يكن صوابًا ضربه. لم يكن صوابًا أنه مات»، أغمغم والدموع التي ظلت منتظرة في مقلتي تسيل على وجهي.

«أعرف يا سانغ لي»، يجيبني بصوت ما زال فيه أثر للخوف. «أردت فقط أن أوقفهم... لم أقصد أن يحدث هذا...».

ثم لا يجد أحد منا شيئًا ليقوله للآخر. نجلس معًا فحسب وسط قمامة ستونغ مانشي ونبكي على مقتل لص، سارق، بلطجي، أخ، فتى، لا نعرفه حتى. ووسط بكائي الهادئ، تتدفع في ذهني صورة لحوت أبيض وقبطان غاضب. كنت سعيدة جدًا وأنا أقرؤها مع سوبيب، القبطان الراغب في الانتقام يصطاد الحوت والسفينة تغرق، ثم يلقى حتفه هو نفسه بحبل مربوط حول عنقه.

أصرت سوبيب على أن أفهم الموضوع الأساسي، *الخير ضد الشر*. وقد تساءلت وقتها، لماذا، إن كانت هذه رسالة مهمة، لم تتحدد بشكل أفضل؟ هل كان المؤلف كاتبًا هاويًا، ليس كفئًا للمهمة؟ في القصة، لم يكن القبطان إيهاب دنيئًا دائمًا وكذلك

الحوت لم يكن نقيًا دائمًا. فهمت على الفور أن كاتب القصة يفهم العالم تمامًا، وتساءلت رغمًا عني إن كان قد عاش في مكب قمامة يشبه ستونغ مانشي.

حين يهدأ تنفسنا وتجف أعيننا وتستقر معدتانا أخيرًا، يعينني كي على النهوض من بين القمامة وتتشابك أيدينا ونحن نسير معًا لنأخذ ابننا. قبل أن نصل إلى بيت أمي، يتوقف كي ويقول: «أنا حزين لمعرفتي بقتل الفتى»، يقول: «لكنني أريد توضيح شيء ما».

أمسك بيديه وأقول: «ماذا؟».

«أريدك أن تعرفي أنه لو كان هو أو أي فرد عصابة آخر مثله، صغيرًا أو كبيرًا، قد حاول إيذاءك أو إيذاء ابننا، فلم أكن لأتردد في الدفاع عنكِ».

نأخذ نيساي ونسير في طريقنا إلى البيت صامتين لأنه، برغم القوة التي تحملها كلمات كثيرة، كما أوضحت سوبيب ببلاغة، لا يجد أي منا تعبيرًا لائقًا عن مشاعر الذنب، والحزن، والغضب، والراحة، والقلق، والألم الطاغي التي تعتمل في قلبينا.

****

في الصباح، وما زالت صورة الجثة في ذهني، أترك رسالة لسوبيب أخبرها فيها أنني سأعود على الفور. ثم أتوجه نحو محظوظ السمين بنيساي على ذراع وكيس أبيض صغير في يدي الأخرى. يوافقني محظوظ على فكرتي، وننطلق معًا.

في كمبوديا، حين يتوفى شخص ما، جرى العرف أن تقدم قربانًا ما، هدية لاسترضاء روح الميت. حين نقترب من البقعة

التي قتل فيها الفتى، تصل امرأة تعيش قريبة من المكان بقربان هي الأخرى. تخبرنا أن الشرطة لم تأتِ قط، وأنها حين ذهبت للنوم ليلة أمس كانت الجثة ما زالت في موضعها، ممزقة ومكسرة، لكنها تحدق إلى السماء بسلام. وفي الصباح، اختفت الجثة، ورأت المرأة آثار جرافات حيث تبعثرت القمامة في الأنحاء في أثناء الليل.

«لتكن حياتك التالية أكثر سلامًا»، يعلن محظوظ، ثم نضع الهدايا التي اشتريناها؛ موزة، وعلبة وأرزًا، وملحًا، وبخورًا، وتمثالًا صغيرًا لبوذا وجده محظوظ سليمًا.

عين محظوظ تبدو أفضل، وفي طريق عودتنا، يعود إلى طبيعته الثرثارة السعيدة مجددًا. فيسألني: «ماذا تظنين حالها الآن؟».

لست بحاجة إلى سؤاله عمن يتحدث. فأجيبه: «أنا متأكدة أن مالي بخير».

حينها يقول شيئًا يثبت أنه عقله أكبر من سنه الصغيرة: «ظني أنه الآن في المكان الذي يمكنه منه رعايتها أخيرًا».

«نعم»، أوافقه. «ظني أنك محق».

فكرت في إخبار سوبيب لدى عودتي، إن وجدتها ما زالت هناك في انتظاري، أن الأربع والعشرين ساعة الماضية كانت عاصفة بالعواطف لحد لا يمكنني معه التركيز في الدرس اليوم. لكنني، مع ذلك، فيما أتأمل في الحياة والموت، والعدالة والرحمة، والقبطان إيهاب ولص ستونغ مانشي، أتساءل إن لم يكن الوقت مناسبًا تمامًا رغم كل شيء.

# الفصل التاسع عشر

لغسيل الملابس في ستونغ مانشي، أجلس منكبة على دلو أزرق كبير أحتفظ به خلف بيتنا وأظل أفرك الملابس بعضها ببعض حتى أراها نظيفة، حسنًا، بقدر ما يسمح به العيش في ستونغ مانشي. بعض النساء في المكب يستخدمن لوح غسيل، وقليلات منهن يفركن الملابس بصخرة مسطحة. يقلن إن هذا يذكرهن بموطنهن، غسيل الملابس في النهر في القرى.

ملابسنا من الطراز الغربي المعروف، سترات، تي شيرتات، بناطيل قصيرة، أغلبها بشعارات ماركات شعبية. لا نرتدي الملابس الأمريكية لأنها الصيحة، بل لأنها رخيصة. كل شركات الملابس الكبرى لديها مصانع في كمبوديا، ويمكننا شراء القطع المعيبة مقابل بنسات فحسب.

يخرج كي من البيت وأنا أغسل ليجلب لي منشفة نيساي التي ينبغي غسلها. أبادره بسؤال ظل يتردد في رأسي قبل أن يقول شيئًا.

«قالت سوبيب إن القصص تحمل معاني أخرى للأشياء، ودعتْ هذا استعارة».

«استعارة؟ ماذا تعنين؟».

«حسبما قالت سوبيب، إنه استخدام كلمة ما أو عبارة لتوضيح معنى مختلف. مثل أن أخبرك أن ستونغ مانشي سجن. إنه ليس سجنًا حقًا، ولا يوجد سجانون، لكنه يشبهه».

ينظر كي إلى المنشفة القذرة التي ما زال يمسك بها، وأعرف أنه يفكر في أنه أخطأ حين خرج وجاء إليَّ في هذه اللحظة تحديدًا. ولا يسعه سوى أن يسأل: «وبناء عليه؟».

«حسنًا، ظللت هنا وحدي مدة ساعة تقريبًا، أغسل ملابسك أنت ونيساي فحسب، ففهمت أخيرًا معناها الحقيقي».

«استعارات الغسيل؟».

«نعم».

«إن الكلمات المعقدة التي ظللت تقرئينها ستذهب بمخك. أنت تغسلين الملابس لأن *ملابسنا قذرة*».

«أرأيت»، أوضّح له، «ظني أن هذا يعني أننا لما كنا نرتدي ملابس، فعليك أن تساعدني في الغسيل، ظني أن هذا هو المجاز الذي كنت أفكر فيه».

«حسنًا»، يقول. «ظني أن هذا يعني أن عليَّ خلع ملابسك الآن لأغسلها».

يتقدم من خلفي ويشد قميصي، لكنه لم يستحم بعد يوم عمل ورائحة القمامة ما زلت عالقة به.

فأعترض قائلة: «ظني أن هذا يعني أن رائحتك سيئة للغاية لفعل هذا الآن. وكذلك، ما زال النهار لم ينقضِ ونيساي مستيقظًا».

«حسنًا إذًا»، يقول. «هذا يعني أن الأفضل أن أستحم لأكون نظيفًا لاحقًا حين لا يكون نيساي مستيقظًا».

أحاول أن أتذكر أين تحديدًا فقدت التحكم في مسار هذه المحادثة. «حسنًا، هذا يعني أن عليك أن تُحمم ابنك معك إن كنت ستستحم الآن في هذا الوقت المبكر».

«هذا يعني أننا اتفقنا!».

يغادر بابتسامة، وأسمعه يقول لنيساي إن الوقت حان ليستحم جيدًا جدًا لأن ماما وبابا لديهما شيء ليفعلاه لاحقًا. ثم أتفكر وقتًا أطول قليلًا في الطرف المستفيد من هذا الاتفاق.

أحيانًا تكون المجازات في الأدب مربكة للغاية.

***

كان جدي يقول: *إن كنت تعرف الكثير، فاعرف بقدر يضمن لك احترام الآخرين. وإن كنت أحمق، فكن أحمق بما يكفي لضمان شفقتهم.*

أنتظر اللحظة المناسبة، أتصنع وجهي المثير للشفقة، ثم أستعطف معلمتي. «بودي أن تحضري كتابًا معينًا لقراءته في المرة القادمة».

تسرها مبادرتي، حتى تسمع اسم الكتاب. «أود أن تحضري كتاب نيساي، الذي...».

«أنا أتذكر الكتاب»، تقاطعني. ليس بغضب، لكن وجهها خالٍ من التعبير تقريبًا، ككتاب نزعت منه صفحة العنوان. تسألني: «لماذا ذلك الكتاب؟».

«لم أستطع قراءة الكلمات حين أمسكت به آخر مرة. والآن وقد تعلمت القراءة، يراودني الفضول. بدت قصة جميلة».

تجيبني: «إنه كتاب أطفال».

«نعم، أفهم هذا».

«لكنه ليس كتاب أطفال بالمعنى المفهوم».

«أتقولين إنك لا تفضلين أن أقرأه؟».

«أقول إنك لو أردت قراءته على نحو لائق، وهو المقصود من هذا الكتاب تحديدًا، فيجب أن تقرئيه وابنك يجلس في حِجرك».

يفتنني شغفها، «يمكنني فعل هذا، لكنْ لدي شرط أنا أيضًا».

«تشترطين *عليَّ* الآن؟».

«نعم، *هذه المرة*».

«وما شرطك؟».

«أريدك أن تكوني موجودة وأنا *أقرؤه*».

بدا أنني إما فاجأتها تمامًا وإما أن لديها الكثير لتفكر فيه. تسألني أخيرًا: «لماذا؟».

«لأنكِ المعلمة. ربما أردنا مناقشتها بعد ذلك».

تمر لحظة صمت مريك، تشرد، ثم تستسلم، ثم تومئ برأسها موافقة وتقول، «سأحضره هذا المساء».

كما قال جدي:.... *كن أحمق بما يكفي لضمان شفقتهم.*

****

إنها فكرة رائعة، أن يجلس صغيري نيساي بهدوء على حجر أمه، في انتظار انتهاء صفحة تلو أخرى، مستمعًا بانتباه إلى أحداث القصة وهي تتكشف. ككثير من القصص الكلاسيكية، فكرتي محض خيال. لأن نيساي يظل بدلًا من هذا يمد يده إلى الكتاب ليمسك به، يريد أن يلعقه ثم يأكله. فنقرر أن الحل الوحيد أن يجلس في حجر كي بجواري ليمكن لأبيه منعه بالقوة إن اقتضى الأمر، وإجباره على الاستماع. وكذلك يسمح لي بالتركيز في القراءة.

أتساءل متى ستصلنا جائزة الوالدين المثاليين؟

بروح المعلمة، تقف سوبيب خلفنا، تراقب دون أن تتفوه بشيء، ولوهلة، ألمح زاوية فمها تتحرك إلى أعلى.

غلاف الكتاب أكثر إغراء مما أتذكره، وبينما ألقي نظرة عابرة على الصفحات، لألتقط لمحة عامة عن مهمتي، أتذكر الرسومات المذهلة للجبال والأشجار والمحيطات.

«هل ستبدئين؟». يسأل كي بنفاد صبر.

«بالطبع».

أقرأ العنوان، «الحب الأبدي»، ثم أفتح الصفحة الأولى.

لو كنت الأشجار...

كنت سأحول أوراقي إلى ذهب وألقيها في دوائر من أعلى رأسك حتى قدميك..

لتعرف الدهشة.

ولو كنت الجبال...

كنت سأرفعك إلى أعلى لأريك كل دروبي السرية، حيث تجري الأنهار ووحوش البرية...

لتعرف الحرية.

أغير مقامات صوتي لألفت انتباه نيساي. مع ذلك، كي هو من تأسره الكلمات. يجلس بعينين متسعتين كفتى فضولي صغير يستمع لحدوتة.

ولو كنت المحيطات...

كنت سأحملك بأمواجي الهادئة إلى عرض البحر لتسبح مع الحيتان والدلافين تحت ضوء القمر،

لتعرف السلام.

ولو كنت النجوم...

كنت سألمع كما لم يحدث من قبل وأسقط من السماء كقطرات مطر رقيقة،

لتظل دائما ناظرًا إلى السماء وتعرف أن باستطاعتك الوصول إلى النجوم.

ولو كنت القمر...

كنت سآخذك وأبحر بك في الفضاء لأريك الأرض من أعلى بكل جمالها وغرابتها،

لتعرف أن الأرض جميعًا تحت أمرك.

ولو كنت الشمس...

كنت سأتوهج كما لم يحدث من قبل لأدفئك ولأُضيء السماء بالبرتقالي والوردي،

لترنو ببصرك إلى أعلى وتعرف أن المجد في الأعالي دائمًا.

لكنني أنا...

ولأنني أحبك، سأحملك بين ذراعيّ وأقبّلك من أعماق قلبي،

وسأظل كذلك حتى...

تنهار الجبال...

وتجف المحيطات...

وتسقط النجوم من السماء...

وتنطفئ الشمس والقمر...

إلى الأبد.

إنـه كنـز. ألتفـت لأشـكر سـوبيب لسـماحها لـي بقراءتـه، لكنهـا ليسـت عنـد البـاب تراقـب.

ذهبت.

****

تنـادي سـوبيب علـيَّ فـي الصبـاح الباكـر. جـاءت لتؤجـل موعـد اليـوم. تبـدو عليهـا أعـراض الأنفلونـزا وتحتـاج إلـى الراحـة. قبـل أن تغـادر، ألتقـط كتـاب نيسـاي، وأقـول: «ظنـي أن ابنـي لـم يسـتمع لكلمـة منـه، لكـن كـي اسـتمتع بـه».

«سيستمتع به نيساي، إنها مسألة وقت».

حيـن أعطيهـا الكتـاب، تلـوح لـي بالرفـض وتقـول: «أود أن يحتفـظ بـه ابنـك بوصفـه هديـة».

أريـد أن أرفـض، لأنـه كتـاب مهـم جـدًا، منحـه بسـهولة هكـذا يعنـي الكثيـر جـدًا، ثـم أذكّـر نفسـي أن منحـه ربمـا ليـس سـهلًا علـى الإطـلاق».

«نحـن نعـرف أنـه كنـز. لكـن هـل لـي أن أسـأل لمـاذا يعنـي لـك الكثيـر جـدًا؟».

«نعم. جئت لأحكي لك قصته أيضًا».

نجلس على الأرض، وما إن تستقر في جلستها، تبدأ.

«كتبـتْ هـذا الكتـاب صديقـة عزيـزة لـي. كنـا نـدرس معًـا فـي الجامعـة. وكنـا قـد درسـنا معًـا فـي الولايـات المتحـدة قبـل ذلـك بسـنوات، وتناقشـنا فـي قصـص الأطفـال الكثيـرة الصـادرة هنـاك كل عـام. لاحظنـا أن القليـل جـدًا منهـا للأطفـال الكمبودييـن. كانـت صديقتـي هـذه عنيـدة وشـغوفة، فألّفـت هـذا الكتـاب، نظمـت

الكلمات أولاً، ثم عينت فنانًا لرسم اللوحات. وبعد أن اكتمل كل شيء ساعدتها في البحث عن دار نشر محلية صغيرة».

«وهل بيع الكتاب؟». أسألها.

تتردد، تخطو بحذر وسط أفكار أطلال. وتقول بتردد:

«لم نحظ بفرصة، بعد أسبوع واحد من إصدار أول طبعة، احتل جنود الخمير الحمر المدينة. نهبوا المدارس والجامعات. ألقوا بالكتب في أكوام كبيرة وأحرقوها. عذبوا من كتبوها، وقتلوهم، وأحرقوهم أيضًا. هل تتخيلين الموت لأنك كتبت شيئًا ما جميلًا؟».

«هل قتلوها؟».

«نعم. والرسّام، وآلافًا غيرهما. كانت توجد نسخ قليلة جدًا من الكتاب في البدء لذلك افترضتُ أنها فقدت جميعًا، حتى رأيته ذاك النهار على الأرض في بيتك. لم أكن متأكدة إن كانت الحياة تتيح لي فرصة أخرى أم تصفعني على وجهي. أحيانًا يختلط الأمر بين الاثنين».

«أنا آسفة للغاية لما حدث لصديقتك».

«ما زلت أفتقدها، بعد كل هذه السنوات، لكنها مع ذلك ليست السبب في بكائي حينذاك».

«حقًا؟».

«يا سانغ لي، صديقتي ليس لديها أطفال». تسكت، تتنهد، تتردد. ثم تقول: «كانت القصة عني، وعن ابني».

****

أسمع طرقًا مترددًا على الدعامة الخشبية خارج بيتنا، وحين أخرج من الخلف بإناء ممتلئ بالماء لطبخ الأرز للعشاء، أجد ابنة خالتي نارين في انتظاري. تبادرني قائلة: «سانغ لي، آسفة لإزعاجك».

أعرف من نبرتها المرتعشة، والجزع في وجهها، أنها ليست زيارة اجتماعية. يخفق قلبي وأسألها: «ما الأمر؟ هل كي بخير؟».

تهز رأسها قائلة: «لا. ليس كي».

«من إذًا؟».

تستند إلى البيت، وأفعل مثلها. تسألني: «هل تعرفين مكارا هونغ؟».

«لا».

«تبيع فاكهة في المدينة، بجوار العيادة الفرنسية».

«نعم، أقصد، لا. لا أعرفها، لكنني أعرف كشك الفاكهة. لماذا؟».

«نحن صديقتان. تعيش أختها الكبرى في قطاع دانغكور من بنوم بنه».

تسكت فأسألها: «ما علاقتي أنا بمكارا أو بأختها الكبرى؟ أرجوكِ».

تسرع سردها: «أختها تعمل ممرضة في المستشفى. ذهبتُ إليها مع مكارا، لأخذ نقود». تنقل وزنها من قدم إلى أخرى بتعب وتواصل: «تحدّثنا، وحين عرفتْ أنني أعيش في ستونغ مانشي، قالت إنهم يعالجون مريضة من المكب».

«من؟».

«قالت إنها امرأة تدعى سوبيب، سوبيب سين».

«يعالجونها؟ ممّ؟ ماذا تقولين؟».

«سانغ لي، إنها مريضة في صدرها. يا ابنة خالتي، لقد جئت لأخبرك أن سوبيب مريضة جدًا، وربما كانت تحتضر».

أسمع كلماتها، لكنني لا أصدقها. «ماذا يعني هذا؟ هذا ليس صحيحًا. هذه المرأة من المستشفى مخطئة. كانت سوبيب هنا. غادرت التوّة ولم تذكر شيئًا عن...» تتباطأ كلماتي وذهني يعود مسرعًا إلى الخلف، القيء، الدم، الترنح، الأيام السيئة، كيف لم أره؟

تواصل نارين: «إنه ورم في صدرها، يضغط على قلبها».

«سرطان؟».

«ظني هذا».

«هل قالت شيئًا آخر؟».

«نعم، قالت....» تتردد قليلًا فأسألها: «ما الأمر؟ أخبريني أرجوكِ!»

«إن الوقت المتبقي لها قصير للغاية».

مكتبة
t.me/soramnqraa

# الفصل العشرون

تدخل سوبيب منحنية وتضع حقيبتها على الأرض. لا أقول شيئًا وهي تجلس على الأرض وتخرج كتابًا صغيرًا بغلاف ورقي أصفر. تفتحه على صفحة معينة ثم تبعده قليلًا عن وجهها ليمكنها التركيز. وتعلن: «سنقرأ اليوم أجزاء من قصة لمؤلف ياباني، ياسوناري كاواباتا.. كنت أقرؤها لطلبتي كثيرًا».

لا يمكنني إمساك لساني وقتًا أطول. لذلك أبدأ الاستجواب: «لماذا لم تخبريني؟».

تتوقف، ترفع بصرها لي، لكنني لا أمنحها الوقت لتقرر *إن* كنت أعرف أو ماذا أعرف. أصيح: «أنت تحتضرين، ولا تقولي لي شيئًا!».

تغلق الكتاب وتجيب بثقتها المعتادة والمربكة: «أخبرتك أنني سأرحل. لم أذكر إلى أين فحسب».

أريد أن أنقض عليها، وأصيح، وأزعق، أن أبرحها ضربًا في صدرها حتى تفهم أنني أشعر بالألم نفسه في صدري. لكنني أسألها فقط: «لماذا لم تخبريني؟».

«رأيت أنه... ليس الآن فحسب».

«أنا أستحق أن تخبريني».

«كنت في انتظار الوقت المناسب. وكان شغفك بالتعلم، ورغبتك الطفولية في عب القصص عبًا. كانا... كانا منعشين للغاية. لم أرغب في إفساده، لمصلحة كل منا».

«إفساد ماذا؟».

«براءتك، أملك في المستقبل، ثقتك بالكلمات والرسائل التي تحملها القصص. لم أعرف كيف أجعلك تفهمين».

«أفهم ماذا؟ أن القصص كلها ليست سعيدة؟ أن الحياة قد تغدو بائسة؟». يجب أن أسكت، لكنني لا أستطيع: «أتظنينني حمقاء ولا أدرك هذا؟ أنسيتِ أن طفلي مريض، وأنني أعيش في مكب قمامة مقرف؟».

تظل هادئة أمام ثورتي. تأخذ نفسًا عميقًا وثابتًا، كأنها تسحبه من غليون. ثم تقول: «قد تكونين محقة في هذا، ربما كنت أفكر في نفسي، أحاول إعادة كتابة أشياء ينبغي تركها».

لا أتظاهر بفهم ما تتحدث عنه، لكن نبرتها آسفة بالفعل. يجب أن أخبرها أنه لا بأس، وأنني أفهم، لكنني لا أفعل. ما زلت غاضبة جدًا. فأسألها: «ماذا قالوا عن مرضك؟».

«إنها قائمة طويلة، لكن إن كنت تسألين عن التشخيص، فقد أخبروني أنه ورم يسبب انقباض الشريان الذي يغذي قلبي. من الواضح أن الشرايين لا تحب الانقباض».

«هل يمكنهم إجراء جراحة؟ هل يمكنهم استئصاله؟».

«يمكنهم ذلك لو...».

«لو ماذا؟».

«لو كنت أصغر. لو كنت قد ذهبت في وقت مبكر، لو كانت لدي نقود أكثر، لو كنت أعيش في أمريكا أو أوروبا أو أي بلد آخر في العالم الحر الذي يملك مرافق حديثة. الحياة ممتلئة بأكثر للغاية من كلمة لو».

«منذ متى وأنتِ تعرفين؟».

«منذ مدة».

«أرجوكِ، منذ متى؟».

«أخبرني الطبيب في اليوم الذي هدّدتك فيه بالطرد، لم يكن من أفضل أيامي. كان يوم عاطفيًا ومربكًا».

«يجب أن ترتاحي في البيت».

لأول مرة تنتفض، ويقسو صوتها: «أنا لن أفعل شيئًا كهذا! نحن هنا لدروس الأدب، وقد قضيت وقتًا في ترجمة قدر كبير من هذا الكتاب بنفسي، واللعنة عليك إن لم تسمعي! ليكن في عِلمك فحسب»، تقول وهي تلوح بإصبعها المعقوف المدبب بين عيني مباشرة بوضوح شديد، «لا نقاش في هذا. سأظل آتي إلى هنا كل يوم حتى أظن أنك مستعدة، أو حتى... حسنًا، حتى تكوني مستعدة».

تفتح الصفحة ويبحث إصبعها عن الجملة ثم تضيف: «كذلك، لن أموت الآن وقد بدأت التوّة أعجب بك».

****

تغبشت دروسنا. أنا أستمع، أبدي ملاحظات، أحاول ألا أطرح أسئلة متواصلة. ألاحظ الآن أشياء قليلة في معلمتي بعد أن عرفت بحالتها الصحية: الأنفاس الطويلة التي ظننتها لإضفاء الدراما على السرد أدركت الآن أنها لتخفيف الألم في صدرها؛ اختيارها الجلوس بجواري، ليس ليمكنني رؤية الصفحة بل لأنها مرهقة للغاية ولا يمكن أن تظل واقفة؛ حججها لتنهي الدروس مبكرًا كي لا أراقبها وهي تسير مترنحة إلى الخارج، تنحني على ركبتيها، وتتقيأ.

توجد أوقات تدمع فيها عيناي -لا يمكنني منع نفسي- مع أن عيني سوبيب لا تدمعان أبدًا، وأعترف بأن هذا يُغضبني. لأنه يذكرني بمحادثة بيني وبين وكي يوم أن عرفت بمرض سوبيب.

سألته بغيظ: «كيف يمكنها الجلوس وقراءة القصص بشكل عادي وهي تعرف طول الوقت أنها مريضة، ثم لا تخبرني بشيء؟».

فسألني مدهوشًا قليلًا: «أكانت غاضبة؟».

«لا، لم تغضب منذ مدة».

فقال: «لا تغضبي إذًا».

بدا أنه لم يفهم، ويجب أن أوضح له، فقلت: «هذا ليس عدلًا. إنها بحاجة إلى مزيد من الوقت».

سكت، تركني أستقر، ثم سألني سؤالًا ما زال عالقًا في ذهني: «أهي التي تحتاج إلى مزيد من الوقت؟ أم أنتِ؟».

يا للسخرية، سوبيب هي من تحتضر ومع ذلك أنا من أشعر بالحزن على نفسي لأنها لا تمانع الرحيل!

أترك أفكاري تشرد مجددًا وأنتبه فقط حين أدرك أن معلمتي تخاطبني:

«سأحضر غدًا واحدًا من كتبي المفضلة».

«ما عنوانه؟».

«إنه قصة عن... حسنًا، إنه من كتبي المفضلة».

«عمَّ؟».

«إنها مجاز، لكن، ماذا في الأدب ليس مجازًا؟ إنها قصة قديمة تبدو مأساوية في البداية، لكنها في النهاية... حسنًا، لا

أريد أن أحرقها لك. لا، هذه القصة ستفهمينها أفضل لو لم تعرفي نهايتها».

«لن تخبريني إذًا؟».

«غدًا. سنقرؤها غدًا».

****

«سانغ لي، يا سانغ لي!».

حتى من مسافة بعيدة أسمع الذعر في صيحات أمي عليَّ، فتميد بي الأرض. تصل مقطوعة النفس وعيناها متسعتان رعبًا، ونيساي هامد بلا حياة بين يديها.

تتمتم بسرعة شديدة فلا أفهم منها شيئًا. «كان يلعب... على الأرض... لم يبك قط... ثم سقط... لا يمكنني إيقاظه... حاولتُ لكن لا يمكنني إيقاظه!».

«نيساي؟ نيساي!». أرفع جفنيه لأفتح عينيه، تدور حدقتاه إلى الخلف. أضغط وجهي بوجهه، لأشعر بأي علامة حياة. ظني أنه يتنفس؛ أتمنى أنه يتنفس، أنظر إلى السماء: «أرجوك يا جدي، ساعده ليظل يتنفس».

آخذه من أمي وأستدير غريزيًا نحو البيت لأجد كي. *مهلًا، إنه ليس في البيت*. تأخر الوقت. الشمس تغرب. يجب أن يكون هنا، لكنه ليس هنا. ما زال يلتقط النفايات في المكب. من غيره يمكنه مساعدتي. تيفا ماو. أقول لأمي بسرعة، «اركضي إلى الشاحنات. أخبري كي بما حدث، سآخذ نيساي إلى تيفا».

لا أعرف لماذا، لكن تيفا تعرف عن هذه الأشياء. بالتأكيد ستتمكن من المساعدة. إنها على مقربة بيوت قليلة، عند كوم

القمامة الفاصل بين منظري بيتينا. بنيساي بين ذراعي، أفعل الشيء الوحيد الذي يمكنني التفكير فيه؛ أركض.

تخلع فردة صندلي اليسرى، لكنني لا أتوقف لاستعادتها. أنطلق عبر القمامة بقدم حافية نحو بيت تيفا، لا آبه لأي شيء حاد أو خطِر قد يجرح قدمي. أصل وأصيح بأعلى صوتي: «تيفا، النجدة!». لا يجيبني أحد، لا صوت، لا أحد في الداخل قادم ليرى من ينادي. أصيح مجددًا: «تيفا، أرجوكِ!».لكن تيفا ماو ليست في البيت.

أتفقد نيساي مجددًا ويبدو مريعًا. أريد أن أصرخ، أن أبكي، أن أسب، أن أتضرع إلى الأجداد، لكن لا شيء من هذا سيساعد صغيري.

العيادة! سآخذه إلى العيادة الفرنسية.

أعود أدراجي إلى البيت. تنتظرني فردة صندلي بصبر في الطريق وبشكل إعجازي، ليست مقلوبة. أرتديها دون أن أبطئ تقريبًا. أمر ببيتنا، أهبط المنحدر على الجانب المقابل حتى تستوي الأرض بالطريق المؤدي إلى شوارع المدينة.

في يوم جيد، أسير بنيساي إلى العيادة. اليوم ليس جيدًا على الإطلاق. ألهث حين أصل إلى الشارع الذي تمر فيه السيارات. ألوح بعصبية لكن أول سيارتين لا تتوقفان. ربما عرفوا أنني نسيت ما لدينا من نقود في البيت. الثالثة توك توك يتوقف بجوار الرصيف إلى جانبي. السائق كبير في السن.

أتوسل إليه: «أرجوك»، بكل جزع الأم الذي يمكنني إبداؤه. «أحتاج إلى مساعدة. يجب أن أذهب بابني إلى العيادة في جادة خيماراك قرب المستشفى الروسي. إنه مريض!».

يتردد، كأنه يعرف هو أيضًا أنني لا أملك نقودًا أدفعها له، لكنه ينظر إلى ابني ويقول: «اركبي!».

نستقل التوك توك، وقبل أن أستقر حتى يندفع في غمار حركة المرور. في أي يوم آخر، كنت سأغضب بشدة. اليوم، أشعر بالامتنان. بينما نشق طريقًا متعرجًا وسط زحام المرور، أهمس لنيساي بكلمات تشجيع. «كدنا نصل يا صغيري. إنهم أطباء ماهرون. سيساعدوننا وستكون بخير».

لا يتحرك، عدا بسبب انعطاف التوك توك واهتزازه. ثم يتوقف التوك توك فجأة وأهبط منه على الفور. لا تعنيني كثيرًا نظرة الأسف على وجه السائق. أتجاهل ذهوله وهو يحدق إلي أركض نحو مدخل العيادة. فقط حين أرفع بصري أفهم، الأبواب والنوافذ كلها مغطاة بشباك. العيادة مغلقة.

«لا»، أصرخ. «افتحوا أرجوكم، افتحوا!» آمر البوابة كأن السلاسل ستطيعني وتنفك. لكنها لا تفعل.

ثم يتغبش إحساسي بالوقت. يعصف الهلع بذهني، أتمنى، آمل، أتوسل أي أحد ليساعدني، أشعر بأنني لا أعرف ماذا يحدث وكيف. أستقل التوك توك مجددًا، لكنني أبكي بهلع لأنني لا أعرف إلى أين يأخذنا السائق. إنه أسوأ كوابيسي. وبدلًا من السقوط في هوة بلا قرار ، أنا في توك توك في شوارع بنوم بنه ليلًا بصغيري جثة هامدة بين ذراعي، عاجزة عن الاستيقاظ أو الترجل من التوك توك.

لكنه ليس حلمًا، لأنه لو كان كذلك لكان الألم والجزع أيقظاني من النوم وأنا أصرخ، ولوجدت كي يربت علي ويخبرني أن كل شيء بخير.

بل أنا وحدي وحلمي ليس واقعًا فحسب، بل ويزداد سوءًا.

نصل إلى مبنى زجاجي عالٍ. حين أدرك أن السائق يريدني أن أترجل إلى الطريق، أرفض. يشدني من ذراعي وأنا أصيح فيه. «كيف يمكنك! كيف يمكنك!».

يشدني بقوة وأنا أحمل ابني، أظل واقفة في الشارع أنتفض غضبًا وأتوسل المساعدة. ثم يلمس شخص ما كتفي. امرأة كمبودية أكبر سنًا مني، ترتدي الزي الأبيض للعاملين في الرعاية الطبية. أجدني أمام المستشفى الوطني للأطفال في جادة كامبوشيا كروم.

تقودني المرأة إلى المدخل مع ابني. ألتفت خلفي قبل أن ندخل من الباب لأشكر السائق، لأعتذر عن سلوكي، لكنني لا أراه، ذهب.

يأخذون طفلي مني، وظني أنني أخبرت الممرضة ما خطبه، لكنني فيما بعد وأنا أحاول التذكر، لست متأكدة. يطلبون مني الانتظار في غرفة، حين أدخلها لا أجد مكانًا للجلوس. الكراسي مشغولة ببائسين آخرين يعيشون كوابيسهم الخاصة.

أجد مكانًا خاليًا بجوار حائط أثق بأنه صلب، وألقي بنفسي مرهقة على الأرض. أضم ركبتيّ والأدرينالين الذي ملأ جسدي ينسحب. قد أتقيأ، لكنني مرهقة للغاية لأبحث عن مرحاض. لست متأكدة إن كنت قد غفوت أم ظللت أحدق أمامي بخواء إلى الجص الأبيض للحائط، لكن في وقت ما في أثناء الليل، تلمس المرأة نفسها كتفي لتوقظني. تحتاج إلى معلومات. أخبرها باسمي وأين نعيش، وحين تسمع *ستونغ مانشي* لا تسألني عن

إمكانية الدفع. تقول قبل أن تتركني مسرعة إن ابني بخير، وإن الطبيب سيخبرني خلال وقت قصير بالمزيد. سيبدو لمن كان يراقبني حينها أنها حملت أنباء فظيعة، لأنها حين ابتعدت، أشعر بارتياح بالغ حدَ أن أغطي وجهي بيدي وأجهش بالبكاء.

توجد في غرفة الانتظار ساعة حائط، وفي الساعة الثانية وعشر دقائق ليلًا، أتذكر ساعة الحائط في بيتي. أقلق بشأن كي والرعب الذي لا بد أنه تملكه الآن، لا يعرف ماذا حدث لزوجته وابنه. ثم أراه بعد ساعة يندفع داخل غرفة الانتظار متعرقًا ويتنفس بصعوبة. حين يراني، ما زلت مستندة إلى حائط بعيد، يغمره شعور بالراحة ملموس للغاية حدَ أن أشعر به قبل أن يعبر الغرفة، وحين يصل إلى حيث أجلس، يلقي بنفسه بجواري على الأرض. يحيطني بذراعه ويسأل: «كيف حال نيساي؟».

أقترب منه ما أمكنني وأنا جالسة: «إنهم يعتنون به. سيكون بخير».

لا نتبادل كلمة دقائق عدة، مرتاحين كوننا معًا فحسب رغم كل شيء.

ثم أسأله أخيرًا: «كيف وجدتنا؟».

«ظللت أبحث في كل المستشفيات. يسعدني أنك لم تذهبي إلى المستشفى الواقع شمال بنوم بنه». أدرك حينها أنه بحث في كل المستشفيات.

في كمبوديا، من الشائع للأسف أن يسكر الأزواج ويضربوا زوجاتهم. أزواج آخرون يهجرون أسرهم لتعول نفسها. لكن زوجي بدلًا من هذا، يركض في المدينة ليلًا بحثًا عن زوجته وابنه.

نجلس معًا على الأرض ساعات، نتثاوب الغفو ونحن في انتظار الطبيب الموعود. في وقت متأخر من الصباح، يظهر رجل بهيئة منهكة ومعطف أبيض. يبدو مستعجلًا وأتوقع أننا لن نتحدث معه طويلًا.

«أنا دكتور خان. سيكون ابنكما بخير. كان يعاني جفافًا شديدًا وقد أعطيناه محاليل طوال الليل. سنأذن بخروجه الآن، لذلك يمكنكما أخذه إلى البيت».

لا يسعني التعبير عن فرحتي لأن نيساي بخير، لكنني أفهم أيضًا أنه سيعود إلى البيت لأننا لا نملك نقودًا للدفع مقابل إيداعه المستشفى.

«كيف يمكننا الإسراع بتحسُّن حالته؟».

لا يجيبني الطبيب، لكنه يخبرني بتعليمات. «من المهم للغاية أن تعطيه سوائل كثيرة و...».

«أنا أحاول»، أقاطعه فجأة. «لكنه يعاني إسهالًا دائمًا، ثم لا يريد تناول أي شيء».

«لدي بعض الحبوب التي تساعد».

«حين ستنفد الحبوب، سيعاوده المرض مجددًا».

«تذكري فحسب، الكثير من الماء. الآن، لدي مرضى آخرون في انتظاري، وإن كانت لديكما أي أسئلة، ستساعدكما الممرضة».

وكما ظهر سريعًا اختفى سريعًا. لا ألومه، ولست ساخطة. أجلس في غرفة انتظار مكتظة في مستشفى وسط أمهات يائسات، من بينهن كثيرات فقدن أبناءهن. كيف قد أشعر نحو الرجل بأي شيء سوى الامتنان؟

تسلمني الممرضة نيساي نائمًا، لكنني ألاحظ عودة اللون إلى وجهه. لا يطلبون أجرًا ونحن لا نعرض عليهم. نستقل توك توك إلى البيت بالنقود الباقية مع كي. آمل أن أرى السائق الذي أحضرني، لأدفع له أجرته وأشكره. حين نوقف التوك توك، أنظر إلى السائق، لكنه ليس هو.

نصل إلى البيت في الظهيرة تقريبًا، منهكين تمامًا. ورغم الحر، نسدل ستار بيتنا لمنع الضوء ونرقد. أغمض عينيّ وأستدعي روائح المكب وأصواته لتدور في ذهني وتتضم إلي في نعاسي، تُطيعني، تعبرني كنسيم غير موجود سرعان ما سيجعل كل شيء في العالم على ما يرام.

«أنا أحبك يا كي، شكرًا لك للعثور علينا»، أهمس، أو يخيل لي أنني أهمس، ثم أغطّ في النوم، أفتح فمي على وسعه نحو السماء لأن كل شيء حولي رائع. للمرة الثانية في غضون شهر، أرى الثلج المنهمر من السماء يغطي ستونغ مانشي.

****

يظل وجه الرجل مبهمًا وهو ينادي عليَّ في أحلامي مجددًا. مع ذلك، تذكرني نبرته البعيدة، واليقين في صوته، وسلوكه المتحفظ بشخص ما، أحد المعارف المنسيين من سنوات مضت. مثل شخص تراه عرضًا في السوق وتظنه صديقك، لكنك تعجز تمامًا عن تذكر اسمه. ثم بعد مرور أيام عدة أو أسبوع أو شهر حتى يقفز الاسم في رأسك، كأنه كان مختبئًا خلف ستار في الذهن، ينتظر اللحظة المناسبة للظهور على المسرح.

حين أستيقظ لا أجد كي بجانبي. حذاؤه ليس في الركن، فأخمن أنه ذهب إلى المكب ليلتقط. أعرف من لون الضوء المتسلل من الشقوق أننا في نهاية الظهيرة، وأتضور جوعًا. آمل أن يمكنه كسب ما يكفي في هذا الوقت القصير لشراء شيء ما مع الأرز.

يرقد نيساي بجانبي يتنفس بصعوبة. لست مدهوشة. هذه عادته بعد زيارات الأطباء الغربيين والمستشفيات الحديثة. يعطونه أدوية، أحيانًا فيتامينات، وأحيانًا أخرى مضادات حيوية بأسماء لا يمكنني نطقها دائمًا، فيشعر بتحسن فوري تقريبًا. يهدأ، يغيب الإسهال، تعود شهيته. لكن حين تنفد الحبوب، ورغم إصرار الطبيب على أن ابني بخير، تعاوده نوبات الحمى دائمًا.

سرعان ما سيستيقظ، وأعرف أنه سيكون جائعًا أيضًا. أنهض من جانبه بهدوء كي لا أزعجه. لا يتحرك، مع أنني متأكدة أنه سينام وقتًا قصيرًا. يسعدني بشدة أيضًا ألا أجد فوضى حوله لتنظيفها.

ما زال لدينا كيلو أرز أو اثنان، لكن لا شيء آخر، فأجمع قطعًا خشبية صغيرة عدة وأضعها بهدوء في الفتحة السفلية لموقد الطهو الفخاري الخاص بي الذي يقبع في الركن مطيعًا. أمسك بالقداحة اليدوية وأضغط عليها فيلمس لهبُها الخشبَ وتمسك فيه النار. لا أستغرق طويلًا في جلب الماء من الخارج، وسكبه على الأرز، ثم أضع الإناء في الأعلى حيث تصل حرارة النار بالفعل. سرعان ما سيغلي، وبقدر من الحظ، سيصل كي قريبًا بشيء ما آخر، خضراوات، لحم خنزير، لحم بقري، أي شيء. سأرضى بحلزونات حتى رغم البزاقات القذرة تلك.

بينما يتصاعد البخار إلى أعلى مع الدخان، أعود إلى طفولتي، لأدرك أن الأمهات في كمبوديا ظللن يطهين الأرز بهذه الطريقة ذاتها لمئات، بل ربما لآلاف، ثم أتذكر! في منتصف أفكاري.

النداء في أحلامي من رجل أعرفه في القرية، رجل لم أره منذ سنوات. حتى حينذاك، وأنا طفلة، كنت أبقى بعيدة عنه وكان يبقى بعيدًا عني. ليس لأنه كان قاسيًا معي أو مع الأطفال الآخرين، أو يؤذينا بأي طريقة. بل كانت شائعات الطفولة، حتى تلك التي ينتجها خيال الصغار، يمكنها ترك انطباعات تدوم. كان يعيش على الجهة الأخرى من النهر، على مسافة عشر دقائق تقريبًا بالقارب من بيتنا، وثلاثين دقيقة سيرًا على الأقدام بحذاء النهر. نادرًا ما فكرت فيه منذ أن تركت القرية، لكنه الآن يظهر في أحلامي، ولا يسعني سوى التساؤل إن كان ذلك أضغاثًا أم رغبتي الشديدة في تحسن صحة نيساي قد تسللت إلى لا وعيي.

نسيت اسم الطبيب النفسي السويسري الذي ذكرته سوبيب. رأى أن الأحلام مهمة، وأن علينا تأملها لفهم معناها والوصول إلى إجابات لمشكلات حياتنا. يوتّرني هذا الرأي الآن. الرجل الذي يناديني في أحلامي، ويصر على أنني *كان علي المجيء في وقت مبكر*، هو بونا هينغ. قد يدعوه الأطباء الغربيون وبعض العاملين في الطب طبيبًا دجالًا، لكنه معروف جيدًا في قرية طفولتي بأنه *المعالج*.

لا يهمني ما يظنه الأطباء الحديثون، لأن أدويتهم لم تكن ناجعة تمامًا. بل كلماته هي ما تقلقني.

«كان عليكِ المجيء في وقت مبكر».

لـو أن حلمـي عـن نيسـاي، ولـو كان *علـيَّ المجـيء فـي وقـت مبكـر*، أيعنـي هـذا أننـي تأخـرت جـدًا بالفعـل؟

إن كان طبيـب الأحـلام السويسـري ذاك محقًـا، وقصـص وصـور أحلامنـا مهمـة بالفعـل، إن كانـت تمدنـا ببصيـرة مـا حقًـا، فهـم مـا، أو إنـذار حتـى، فعلـيَّ الإنصـات بانتبـاه إذًا.

بينمـا يغلـي الأرز، أفهـم غريزيًـا مـا علـيَّ فعلـه. يجـب أن أسـافر مـع ابنـي إلـى قريـة بـري فينـغ التـي قضيـتُ فيهـا طفولتـي لمقابلـة المعالـج، ويجـب أن أغـادر بأسـرع مـا يمكننـي.

****

نحمـل معظـم ملابسـنا فـي حقيبتـي سـفر قديمتيـن، هديـة مـن المكـب. أخبـئ كل شـيء آخـر ذي قيمـة؛ أدوات طبخـي، وموقـدي الفخـار، وأدوات الطعـام، ومراتـب النـوم وحتـى سـاعتي المعطلـة فـي فتحـة أسـفل أرضيـة بيتنـا، أصـل إليهـا مـن الخلـف. مـا زال لا شـيء فـي مأمـن. قـد يؤخـذ كل مـا نملكـه فـي الليـل، أو فـي أي وقـت، دون أن يلاحـظ أحـد. لكـن ليـس لدينـا خيـار آخـر.

لـم أر سوبيب منـذ عودتـي إلـى البيـت مـن المستشـفى، ومعدتـي تنقبـض كلمـا فكـرت فيهـا. إنهـا محنـة يظللهـا القلـق علـى ابنـي فحسـب. أفتـرض أن سـوبيب سـتمر بـي لتحديـد موعـد درسـنا التالـي، وسـيمكنني توديعهـا، لكنهـا لا تفعـل. ذهبـتُ إلـى بيتهـا مرتيـن، لكـي أوضـح لهـا سـبب سـفرنا، لكننـي لـم أجـد أحـدًا.

«هـل يجـب أن نمكـث يومًـا آخـر؟». أسـأل كـي للمـرة المئـة. «قـد تعـود سـريعًا». يتجاهلنـي، يعـرف أننـي بعـد دقيقـة أخـرى سـأخبره أن علينـا أن نسـرع، وأن نرحـل الآن. فـي الحقيقـة لا يمكننـي أن أتيقـن

إن كانت ضرورة الذهاب بنيساي إلى المعالج حقيقية أم من باب قلقي فحسب. أحيانًا يصعب جدًا تحديد الفارق.

أحصينا نقودنا ولدينا ما يكفي للرحلة إلى القرية. يظل سؤال كيف سنعود بلا إجابة. أقنعت كي أن نغادر المكب من الطريق الطويل، المتفرع من الطريق الغربي، الذي يمر ببيت سوبيب، لأرى إن كانت هناك مرة أخيرة. نقف أمام البيت على أهبة الاستعداد للرحيل حين أرى محظوظ السمين يركض نحونا.

«إنها قادمة!»، يقول لاهثًا. وهي كذلك بالفعل. تصعد الدرب، ظل بطيء لا تخطئه العين على خلفية أكوام قمامة عالية.

يقول كي: «سآخذ نيساي والحقيبتين وأنتظرك في ركن بوينج وكينج، بجوار مزرعة الدجاج».

«لا يمكنك حمل كل شيء، اترك لي حقيبة، وسألحق بك سريعًا».

لكنه بطريقة ما يحمل الحقيبتين والصغير، ثم يشير إلى محظوظ ليتبعه. يبدو الفتى محبطًا لأنه لن يمكنه البقاء والاستماع، لكنه يطيع كي. أدقق النظر في سوبيب وهي تقترب، ومجددًا لا أجد الكلمات المناسبة للتعبير عن مزيج الألم والامتنان الذي يمزق قلبي.

«كيف حالك؟». أسألها وهي تخطو إلى جانبي وتستند إلى جدار البيت. تبدو منهكة.

«شرياني منقبض قليلًا»، تقول ويدها على صدرها. ثم ألمح أثرًا ضئيلًا لابتسامة وهي تضيف: «هذه إجابتي المفضلة الجديدة».

أجيبها مبتسمة: «بجدية، أأنت بخير؟».

«ما زلت هنا. كذلك، لا شيء يعجز نبيذ الأرز عن إزالته».

«يجب ألا تشربي، أنت تعرفين أنك ستموتين».

من الواضح أنني الوحيدة المؤمنة بهذا المنطق. لأنها تسألني «ولماذا لا أشرب، وأنا أعرف أنني سأموت في جميع الأحوال؟».

أغير الموضوع: «مررت بك مرات عدة، لكنك لم تكوني في البيت».

«نعم، كانت لدي شؤون أخرى في المدينة، مهمات جمع إيجار. استغرقت وقتًا أطول مما توقعت. وسعدت حين عرفت أن نيساي بخير».

«من أخبرك؟».

«أنا أسمع هذه الأشياء. ما زلت جامعة الإيجار، أتعرفين».

لكنها حينها تخفض بصرها، وتنطفئ سخريتها. «كنت آمل أن ننهي دروسنا. يوجد الكثير جدًا كنت آمل أنت نتحدث عنه».

«سنفعل»، أقول لها.

تسألني متجاهلة ردي، «هل قرأنا قصة العنقاء من قبل؟».

«لا، لا أظننا قرأناها».

«هذا سيئ للغاية. إنها واحدة من قصصي المفضلة، ظني أنني لذلك أجلتها».

«سنقرؤها معًا في وقت لاحق»، أؤكد عليها، «ما إن أعد».

تسكت وهي تنظر في القمامة عند أقدامنا. ثم تجيبني أخيرًا «بالطبع»، لكن الكلمة تتردد بخواء. ثم تضيف: «رغم تعلقنا بالأمل، نادرًا ما تنتهي قصصنا كما نحب».

«أهذه مقولة؟». أسألها، لا أعرف إن كانت تتحدث عن نفسها أم عني.

«لا، هذه حقيقة»، تجيبني. ثم تمد يدها في حقيبتها، حركتها التي سأفتقدها. «أحضرت لكِ شيئًا لقراءته في الطريق».

«حقًا؟». أقول بسرور.

تخرج كتابًا مغلفًا بالجلد وتعطيه لي قائلة: «لتقرئي لابنك أيضًا».

«شكرًا لكِ»، آخذ الكتاب من يديها العرقانتين. أتململ ولا أقول شيئًا آخر. كما أقرأ لغة جسدها، تقرأ هي الأخرى لغة جسدي.

«ما الأمر يا صغيرة؟ انطقي بسؤالك».

«كنت فقط... حسنًا... كنت أفكر في مرضك... أتساءل ماذا سيحدث... تعرفين... حين تغادرين ستونغ مانشي؟».

«حين سأموت؟».

«نعم. كيف سيكون الأمر في رأيك؟ هل سيكون الأجداد في انتظارك حقًا؟ أنا لا أعرف الكثير عن هذه الأشياء، وأتساءل».

«هذه الأسئلة كانت موضوع تأمل بعض أذكى الرجال في العالم وجدلهم ونقاشهم».

«وماذا قرروا؟».

«يبدو أنهم لم يصلوا إلى شيء بعد».

«هذه نكتة، أليس كذلك؟».

«إن كنت تسألين حقًا، فهي نكتة سخيفة قليلًا».

«هل تتحدثين مع أجدادك؟».

«في الغالب نتصارع».

«تتصارعون؟».

«نعم، ولا أنصحك بهذا. ستخسرين دائمًا».

«أنا أريد إجابة جادة».

تتنهد وتقول: «أنا آسفة. يجب ألا أمزح بهذه الشرايين السيئة، أليس كذلك؟ المشكلة أنك تريدين إجابة صادقة، ولا أظنني أفضل من يمكنه مدك بشيء كهذا».

«لماذا لا؟ أنت المعلمة».

«لأنني أبتعد عن الجنة ثم أشكو من بعدها عني. اسمعي، بينما تواصلين الدراسة والتعلم، ستجدين آراء كثيرة. يمكنك تصديق الكاتب داراني ما، الذي يرى أننا نواجه كونًا باردًا وصامتًا، أو تصديق فيرون فان، الذي يرى أن ثمة قوة ما ترشد خطونا...».

«هذا ما أقصده»، أقاطعها. «كيف أعرف؟ أنا أحب ما تعلمته. أحببت قراءة القصص، لكنها أحيانًا ما تكون...».

تسألني: «مربكة ولعينة؟».

أبتسم، حينها تجيبني كعهدِها بمقولة: «يقول الشاعر هانت، «لدينا عالمان: عالم يمكننا قياسه بالمِسطرة، وعالم نشعر به في قلوبنا وخيالنا». ظني أنك لو أخذت بنصيحته، ستكونين بخير».

«سأفتقد مقولاتك، لا أفهمها كلها دائمًا، لكنني سأفتقدها».

ثم نجلس معًا بصمت، لكنه ليس صمتًا مربكًا. ربما حزن، أو أسف قليلًا، لكنه ممزوج بقدر مناسب من الرضا.

تقول أخيرًا: «وداعًا يا سانغ لي».

«وداعًا يا معلمتي».

# الفصل الحادي والعشرون

تعج شوارع بنوم بنه بضجة متواصلة لآلاف الدراجات البخارية والدراجات والسيارات والحافلات والتكاتك بصفة خاصة، تندفع وتنحرف وتميل وتزعق بأبواقها وتهمهم وتقعقع معًا بفوضى ميكانيكية مجنونة، جنون اعتدنا البقاء فيه دائمًا. ننتظر أمام المحطة القريبة من السوق الجديدة في وسط المدينة، حيث تصطف خطوط الأتوبيسات بلا نظام وتبدو كقطع دمينو قد ينهار بعضها فوق بعض في أي لحظة.

كان العثور على الحافلة الصحيحة عذابًا من قبل، مهمة تحمل ضغطًا وقلقًا مع تكرار السؤال نفسه على عدد من الأشخاص، بأمل الحصول على إجابة متماسكة بما يكفي لنتأكد أننا في المكان الصحيح. الآن أقرأ لافتة أماكن الوجهة المعلقة على الزجاج الأمامي للحافلة ببساطة.

بينما أقرأ تراقبني امرأة عجوز، ثم تقترب مني وتسألني: «هل تعرفين أي أتوبيس يذهب إلى سيم ريب؟».

أمسح بعينيّ لافتات الحافلات حتى أجد حافلتها وأشير إليها بثقة لتعرف أنني متأكدة. تحني رأسها بامتنان وتختفي في الزحام.

لن تنطلق حافلتنا إلا بعد مرور أربعين دقيقة أخرى، لذلك ننتظر قرب المحطة ونأكل بعض الأرز الذي نحمله للرحلة. نؤجل شراء اللحم والخضراوات حتى نترجل من الأتوبيس. سيكون

ثمن الطعام أقل بالقرب من النهر، وما قد ندخره من نقود، سيساعدنا على العودة.

بينما نأكل يلفت نظري رجل يمر بنا، يحمل كومة من الكتب الملونة بألوان زاهية. لكنها ليست الكتب فحسب ما يلفت نظري. يضعها على الأرض بجوار سلة قمامة قريبة بكعوب الكتب نحوي، ثم يُفرغ جيوبه، فيلقي منها بأشياء متفرقة. بالطبع أتوق إلى قراءة العناوين، لأعرف موضوعات الكتب، ولأقلب صفحاتها وأحاول قراءتها بنفسي. مع ذلك، بينما تدور تلك الأفكار في رأسي تراودني رغبة غريبة أيضًا في نبش سلة القمامة لأرى إن كان يلقي بشيء آخر ذي قيمة.

إنه العرض المذهل لمشاعر متصارعة الآن في قلبي وعقلي ما يجعلني أتأكد أن الأمر ليس مصادفة، وأنا أعرف مَن ألوم. أتحدث إلى السماء. «مضحك جدًا يا جدي، مضحك جدًا بالفعل».

***

حافلتنا وسيلة نقل مخلخلة تحمل ندوبًا من أطفال أشقياء هرموا منذ وقت طويل. الأسماء المحفورة على مقاعدها، وما زالت مرئية، أجنبية. يبدو أنها خدمت مدة في تايلاند قبل أن تتقاعد بسعادة في كمبوديا. تسعل دخانًا رماديًا يتصاعد إلى أعلى من كلا جانبيها وليس من مؤخرتها حيث ينبغي أن توجد ماسورة العادم. يذوب الدخان في الهواء والحافلة تغادر المحطة وتزحف في حركة المرور شمالًا إلى خارج المدينة. الراكبون الجالسون حولنا مرهقون هم أيضًا من الحر، والانتظار، وشاكرون لتحرك

الحافلة. على مقعد إلى يميني شابة أصغر مني تحمل رضيعًا نائمًا، فتاة على ما أظن. سيكون مشهدًا مؤثرًا، لكن نيساي بدأ التوّ نوبة بكاء، والأم تظل ترمقنا بنظراتها، كأنها تتساءل لماذا لا يمكنني إبقاء صغيري هادئًا كصغيرتها.

أمامي بصفين، في الجهة الأخرى من الممر، يجلس رجل أعمال وحده بفوضى من الأوراق المنتشرة على مقعد بجانبه تتحدى أي شخص يحاول الجلوس عليه. ولأن الحافلة ليست ملأى، وربما حتى وإن كانت كذلك، يبدو قادرًا تمامًا على الدفاع عن منطقته. يتحدث مع الرجل الجالس أمامه، يشكو عدم وجود مكيف هواء. يجعلني أفكر في بيتنا في ستونغ مانشي، ليس بلا مكيف هواء فحسب، بل بلا كهرباء ولا باب حتى. أشعر بامتنان شديد للرياح التي تهب من النوافذ الآن ونحن نغادر المدينة وتزداد سرعة الحافلة.

تجلس أمامنا مباشرة امرأتان كبيرتان في السن بملامح متشابهة، شقيقتان ربما، تتناوبان على الإشارة إلى مشاهد في الطريق، كأنهما في زيارتهما الأولى للمدينة، وحجزتا جولة محدودة الميزانية.

أراقب المسافرين حولي، وأتساءل عن قصصهم. علمتني سوبيب أن القصص حولنا في كل مكان، أننا نسبح في بحر الأدب، حتى في ستونغ مانشي. إن كان الأدب عنا، عن أحلامنا وآمالنا، ومسارتنا وكفاحاتنا، هل كانت تتحدث عن الناس: الأصدقاء، والجيران، والغرباء، والأعداء؟ أصرف الفكرة في البداية، لأن أغلب قصصنا تافهة بالقياس إلى حكايات التنانين والخادمات،

والشيوخ والقوارب، وغرام الشباب، والحرب الشعواء. أظن أن هذا حقيقي ظاهريًا، لأنها علمتني أيضًا أن أصعب معارك الحياة تلك التي نخوضها في داخلنا، وقد ينطبق هذا على الجميع.

زاد بكاء نيساي وصراخه. كنت أتمنى أن يهدهده اهتزاز الحافلة حتى ينام، لكنه يؤثر عكسيًا. أحمله وأهدهده وأنا أهمهم. ظنني أنني أقصد تهدئته، لكنني أخشى أنني أحاول صرف النظرات الثاقبة التي يرمقني بها الركاب الآخرون. تعبيرات وجوههم أعلى صوتًا من كلماتهم: *رائع. لا مكيف هواء، مقاعد غير مريحة، حر خانق، والآن طفل بكّاء!*

يعرض كي أن يحمل نيساي، لكنني أقف في الممر وأرفعه فوق كتفي، أهدهده بنعومة وأتوسل إليه أن يغمض عينيه وينام. أكاد أفقد صبري معه، مع أن هذا لا يجوز، لأن قلبي يتألم له أيضًا. ومثل أغلب الركاب أتعرق، ومتعبة، وحانقة. وما لا يفهمه أحد أنني، بالإضافة إلى قلقي على ابني، قلقي على سوبيب يأكلني أيضًا.

ثم يعرض كي مجددًا: «دعيني أحمل نيساي يا سانغ لي لتقرئي له قصة. لنرَ إن كان سيهدأ». أهز رأسي بالنفي في البداية، ظنًا أن هذا سيزعج الركاب الآخرين أكثر، ثم أنظر حولي. أدرك حينها أن لا شيء قد يزيد الأمر سوءًا.

أعطيه نيساي وأُخرِج الكتاب الذي أهدته لي سوبيب. أعرف من الغلاف أنه مجموعة قصص قصيرة من الهند وجنوب شرق آسيا. سيئ للغاية؛ القصص الأطول أفضل كثيرًا، لأن رحلتنا طويلة. مع ذلك، أقلب الصفحات وأتوقف عند فصل على صفحته الأولى

صورة نمر. بالتأكيد سيستمتع نيساي بقصة عن النمور. أسفل الصورة فقرة عن الكاتب. اسمه راجام بانرجي. ولد بالقرب من ساواي ماسوبور في الهند الشمالية، كتب هذه القصة منذ أكثر من مئة سنة، حقيقة أجدها مذهلة. في حين كل شيء حولنا في الحياة يقدم ويبلى، القصص مثل أرواحنا لا تقدم. تُرجمت إلى الخمير عام 1963. أقرأ أيضًا أن السيد بانرجي كتب قصص مغامرات و... يلمس كي كتفي ليشجعني، لا، بل ليتوسل إلي أن أكف عن القراءة في سري وأبدأ.

«طريق النمر»، أعلن، وأحرك إصبعي أسفل الكلمات وأنا أقرأ. «بقلم راجام بانرجي».

أجدها قصة عن رجل يسافر عبر الهند لجمع ثروة. يصف التناقض بين جمال البلد وقسوتها أحيانًا بوضوح للغاية حدَ أن تتدفق صور المكان في ذهني وأنا أقرأ.

يتوغل الرجل إلى قلب الغابة بحثًا عن العاج، بالقرب من منطقة تُدعى رانثامبور. نجا بحياته بالكاد بعد أن هاجمه نمر ضخم وقتل حصانه وهو يراقب من قريب بلا حول ولا قوة.

وصفُ قتل النمر الحصان وحشي للغاية فأتوقف عن القراءة وأنظر إلى كي.

«هل أواصل؟». أسأله. «هل نريد حقًا أن نقرأ لابننا قصة عن القتل؟».

ما زال نيساي يبكي، لا يعيرنا انتباهًا. ينظر إليه كي، يدوِّر بؤبؤاه في محجريهما، ثم يرمقني بنظرة استغراب وكأنه يقول: «حقًا؟».

فأواصل القراءة.

بلا حصان يجر عربته الصغيرة، تقطعت بالرجل السبل في أعماق جبال أرافالي. وبدلًا من السير مبتعدًا لينجو بحياته، يغضب بشدة من النمر ويسحب مسدسه وينطلق تحت ضوء القمر في إثر الوحش ليقتله بنفسه، إن لم يقتله الوحش أولًا.

بعد فصول أخرى عدة، يظل نيساي يبكي فأجدني أقرأ بصوت عالٍ لألفت انتباهه. حين أدرك أنني لا بد قد قدت جميع من حولي إلى الجنون، أستعد لأقدم أصدق اعتذاراتي. لكن نظراتهم إلي غير متوقعة البتة. المرأة على الجهة الأخرى، الجالسة بجوار النافذة، مالت بجانبها نحو الممر. ووضع رجل الأعمال، الذي دفن وجهه في عمله حين بدأت الرحلة، أوراقه جانبًا وبدأ يراقبني. كانت المرأتان الجالستان أمامنا الأشد دهشة. جلست إحداهما بقدميها في الممر ليمكنها توجيه أذنها نحوي لتسمع بشكل أفضل. ولدهشتي الشديدة رفعت رفيقتها قدميها إلى أعلى وجلست القرفصاء على المقعد بشكل معكوس تمامًا لتنظر إلي مباشرة. بدا ذلك مزعجًا للغاية، لكن حركة رأسها تخبرني أنها بخير تمامًا، ثم تقول: «أرجوكِ أن تواصلي يا عزيزتي».

تحرك الأم الأخرى رأسها تأييدًا، فأعيد إصبعي إلى حيث كان على الصفحة وأواصل.

يقتفي الرجل أثر النمر طوال الليل بقلب يملؤه الغضب، إلى أن يجد عرينه أخيرًا في منطقة من القصب الجاف. ولعلمه أنه سيكون انتحارًا إن خاض بين القصب وحده، حيث سيمكن للنمر رؤيته دون أن يراه هو، ينتظر أول ضوء للصباح، ثم يشعل النيران في القصب بعود ثقاب.

يجف ريقي بعد القراءة بصوت عال وقتًا طويلًا للغاية، ثم ألاحظ أن نيساي لم يكف عن البكاء فحسب، بل أيضًا ساد هدوء تام عدا همهمة الحافلة على الطريق غير الممهد. الجميع حولنا صامت ومنتبه. الحافلة نصف ملأى تقريبًا، وأرى أن عددًا من الذين كانوا يجلسون في المقدمة عادوا إلى الخلف ليجلسوا في مقاعد أقرب إلي. ومع أنني لست قارئة سريعة، يبدو أن لا أحد يمانع. حين يلاحظ رجل الأعمال أنني ألعق شفتيّ، يمرر زجاجة مياه للمرأة الجالسة ناحية الممر ويشير نحوي برأسه لتمررها لي. أومئ شكرًا لكل منهما. وفي رحلة بدأت بشكل مزعج للغاية، أشعر بأنني محاطة بأصدقاء. أفتح الزجاجة وأشرب جرعة طويلة، ثم، وبجميع الآذان المصغية إلي بانتباه، أعطي الزجاجة لكي وأعود لمغامرتنا الهندية.

تستعر النيران حول النمر بشرر يعلو عشرين قدمًا في الهواء، تمتلئ السماء بدخان وشظايا. وقف الرجل بسلاحه ينتظر بصبر متأهبًا لإطلاق النار ما إن يظهر الوحش.

حين يظهر النمر أخيرًا، تتبعه أنثى أصغر وشبلان يافعان. يسدد الرجل بحرص، لكنه حين يهم بضغط الزناد، تندفع في عينه اليمنى شظية محترقة. يقفز ألمًا ويفرك عينيه بهلع، ليزيح عنها ما طالها في اللحظة نفسها التي يرى فيها آخر أثر لذيل النمر يختفي في الغابة المحيطة.

كان أشد الرجال غضبًا على وجه الأرض حينها. كان عليه أن يستسلم ويعود أدراجه إلى بيته لينجو بحياته، لكنه لم يفعل.

أهـم ببـدء الفصـل التالـي حيـن يميـل علـيَّ كـي ويهمـس: «كـم تبقـى؟ لسـنا بعيديـن للغايـة عـن محطـة هبوطنـا».

حيـن تسـمعه المـرأة الجالسـة قبالتنـا، تتسـع عيناهـا بجـزع: «أرجـوكِ»، تتوسـل إلـيَّ، «اقرئـي أسـرع. يجـب أن تنهيهـا».

يقـول كـي: «واصلـي أنـتِ القـراءة، سـأذهب إلـى السـائق لأخبـره أيـن يوقفنـا. يمكننـي سـماعها فيمـا بعـد».

يعبـر بـي إلـى الممـر بنيسـاي ويتوجـه إلـى مقدمـة الحافلـة. أسـرِع قراءتي.

أواصل قراءة صفحات تصف مطاردة الرجل للنمور عبر وادٍ.

ثـم حيـن تخـف الأدغـال، ويلمـح الخطـوط البنيـة يرفـع سـلاحه، ويطلـق النـار علـى أول الوحـوش الأربعـة، أحـد الشـبلين.

لكنـه، حيـن يعيـد حشـو بندقيتـه برصاصـة أخـرى، تنحشـر فيهـا، لتتركـه بـلا حـول ولا قـوة وأنثـى النمـر تزحـف علـى بطنهـا نحـوه. يتراجـع إلـى الخلـف بحـذر، ويظـل يخبـط بندقيتـه بيـده حتـى تنـزف راحـة يـده. يتأكـد أنـه سـيلقى حتفـه، لكنـه يـدرك حينهـا أن أنثـى النمـر تقتـرب لأنـه يتراجـع نحـو الشـبل الآخـر مباشـرة.

ينجـح أخيـرًا فـي حشـو الرصاصـة المحشـورة بسـكينه والتمركـز فـي موضـع جديـد، يرفـع سـلاحه، ويضغـط علـى الزنـاد، فيسـقط الشـبل الثانـي. بـدلًا مـن الهـرب، تسـتدير أنثـى النمـر وتتوجـه نحـوه مباشـرة. وفـي لحظـة يتلخـص الأمـر فـي أن أحدهمـا سـيردي الآخـر قتيـلًا. تتوقـف أنثـى النمـر لتـزأر بغضـب شـيطاني، يرتعـش الرجـل، لكنـه يطلـق النـار، فيقتلهـا فـي اللحظـة المناسـبة تمامًـا.

بقتله الجميع عدا نمر واحد فقط، يجب على الرجل أن يعدّ انتقامه كافيًا. لكنه بدلًا من ذلك، يتتبع الوحش الأخير إلى مرتفع صخري حيث ينتظره الحيوان، وهو يضرب بذيله. وقبل أن يرفع الرجل سلاحه، ينقض النمر عليه من أعلى المنحدر بهجمة واحدة قوية.

أقلب الصفحة، ألاحظ أن الحافلة أبطأت، وبالنمر يقفز في الهواء، أتوقف عن القراءة. لا أعرف ماذا أفعل لأننا وصلنا إلى وجهتنا. فأقول لهم: «أنا آسفة، علينا أن نترجّل هنا».

فتقول المرأة العجوز الجالسة بجوار النافذة: «لا، لا يمكنك هذا، يجب أن تنهيها».

يصيح رجل الأعمال متساءلًا: «كم تبقى منها؟».

أعد الصفحات المتبقية فأجدها لا تزيد على صفحتين. أجيبه: «صفحتان تقريبًا، لكنني أقرأ بأسرع ما يمكنني».

حينها يُقدِم رجل الأعمال، الغريب علينا جميعًا، على فعل كريم وتضحية أجدها مثيرة للإعجاب ومؤثرة: «سأذهب لأتحدث مع السائق. سأقنعه أن يبطئ حتى تنتهي». ويربت على محفظته مؤكدًا: «ثقوا بي، أنا مقنع».

يلتفت نحو المرأتين العجوزين: «أنتما الاثنتان استمعا بانتباه شديد لتخبراني كيف انتهت». ثم يتجه نحو مقدمة الحافلة بلا تردد.

قالت سوبيب إن الأدب لديه قوة تغيير حيوات وعقول وقلوب. حتى تلك اللحظة، وأنا أقرأ للآخرين على متن حافلة قديمة مخلخلة عن النمور في الهند، لم أكن قد فهمت معنى هذا بشكل كامل.

«لا تقلقوا»، أعلن للجميع. «سأنهيها».

يقفز الوحش الضخم عاليًا في الهواء، ينقض على الرجل في قوس كبير، في اللحظة التي يصل فيها إصبع الرجل إلى الزناد، يرفع الرجل بندقيته أعلى كتفه ويطلق النار. تصيب الرصاصة هدفها، لكن متأخرًا جدًا. يسقط النمر على الرجل وينشب أسنانه البيضاء الكبيرة في فخذه. يصرخ الرجل بألم وأسنان النمر تنهش عظامه. يعد نفسه ميتًا، لكن حينها تفلت قبضة النمر.

يقف الوحش ويزأر بصوت يهز الصخور قبل أن يترنح إلى الأمام والخلف ثم يسقط صريعًا. يربط الرجل فخذه بمنديل قماشي ليوقف تدفق الدم. ثم، وبمساعدة القرويين المحليين، يصل إلى الهند حيًا، لكنه يظل قعيدًا بقية حياته.

أغلق القصة بعد نهاية آخر صفحة وأنظر إلى وجوه متأملة تعبرها دفقات رضا. المرأة العجوز رقم اثنان، كما سميتها في ذهني، هي أول من تتحدث. تقول: «صار قعيدًا»، وتومئ موافقةً على النهاية العادلة. ثم تضيف: «لم يكن عليه إطلاق النار على النمور».

تميل المرأة في الجهة المقابلة من الممر نحوي: «أنت قارئة قصص جيدة جدًا. لقد استمتعنا جدًا بهذا».

يوافقها آخرون، ولا أعرف ماذا أقول حتى يتغلب الرضا على الإحراج وأردد أخيرًا: «شكرًا لكم»، ثم أتوجه نحو مقدمة الحافلة.

يراقبني رجل الأعمال، الواقف بجوار السائق، أقترب. يترجل كي ليم من الحافلة أولًا وهو يحمل نيساي، وقبل أن أتبعه، يستوقفني رجل الأعمال. كل شيء فيه مُختَار بعناية شديدة، بما في ذلك ملابسه، ولا يسعني سوى التساؤل لماذا شخص مثله قد يستقل هذه الحافلة.

«شكرًا لكِ»، يقول وهو يمد يده نحو يدي. أشعر بالنقود التي يمررها لي في يده.

أقول له: «لا، أرجوك، لا يمكنني قبول هذا.. كنت أحاول أن أهدئ ابني فحسب».

«أنا أصر على أن تأخذيها. كنت متأكدًا، حتى قبل أن تبدأ الرحلة، أنها ستكون رحلة بائسة، لكنك، حسنًا، أثبتِ خطئي. ثقي بي حين أخبرك، كنت أفضل من أي كتاب مسجّل».

من الواضح أنه اعتاد تنفيذ أوامره، وأدرك أن أي اعتراض من جانبي سيكون بلا جدوى. أضع هديته في جيبي وأنحني. كذلك، أشعر بإطراء. لقد أشاد بي التوّة رجل أعمال مهم، أنا سانغ لي، جامعة القمامة من ستونغ مانشي. أنحني مجددًا بامتنان شديد، وأنا أحاول كتم ابتسامة عفوية. وأترجل من الحافلة.

نقف أنا وكيم لي، ونيساي معًا على جانب الطريق وتبتعد الحافلة ويلوح لنا أشخاص غرباء علينا تمامًا بالوداع.

يسألني كي أخيرًا: «ماذا قال لكِ؟».

أخرج النقود المطوية وأنظر إلى المبلغ، يكفي نفقاتنا كلها ويفيض. أجيبه: «قال إنني أفضل من أي كتاب مسجل».

يغضن أنفه ويسأل: «ما الكتاب المسجل؟».

«ليست لدي أدنى فكرة».

## الفصل الثاني والعشرون

نستغرق أكثر من ساعة تقريبًا لصعود الطريق إلى ضفة النهر حيث الزوارق. متعبين، متعرقين، وجائعين، نفرح كثيرًا برحلة في النهر. نشتري ببعض نقود رجل الأعمال عشاء من الأرز واللحم وفاكهة التنين. يجب أن نأكلها ببطء لكننا لا نفعل. بعد أن ننهيها، أرتاح مع نيساي في الظل ويرتب كي مع أحد الزوراق ليأخذنا عبر النهر إلى قريتنا.

حين كنا في المحطة استعرنا هاتفًا واتصلنا بخالي كيو لنخبره أننا قادمون. بدا أننا أحسننا صنعًا، لأننا قُوبلنا بالصياح والتلويح على الجانب الآخر من النهر ونحن نقترب من قريتنا. عيّن خالي ابني عمومة بعيدين للترحيب بنا. وحين نصل إلى الضفة، يتطوع الفتيان ليحمل كل منهما حقيبة. ولا نرفض.

القرى على ضفة نهر ميكون (أو أي نهر آخر في كمبوديا) متشابهة. تحتضن البيوت ضفة النهر كنقاط لا تنتهي على حافة الماء أميالًا. خلفها، حيث يودع فيضان النهر حصته السنوية من الطمي والغرين، توجد حقول الأرز المقسّمة التي أمدت أجيالًا لا حصر لها بالقوت والعيش والأمل. وخلف حقول الأرز المحروثة توجد الغابة.

بيت خالي كيو قريب. ظل خالي يعمل في حكومة القرية منذ ثلاثة أعوام، لست متأكدة بأي صفة. كلما سألناه سمعنا إجابة مختلفة. حتى زوجته لا تعرف بالتأكيد. يبدو أن وظيفته

إما غامضة للغاية وإما غير مؤكدة، لأن مسؤولياته تظل تتغير. لكنها بعيدًا عن هذا، تعود عليه بفوائد. منذ عامين تقريبًا، تلقى حمولة خشب لبناء بيت جديد قبالة بيته القديم. وبعد ذلك بعام تقريبًا، صار من القلة التي تمتلك هاتفًا في القرية.

حين نصل يستقبلنا هو وزوجته بترحاب. يقول: «من الرائع أن تعودا». وتسأل خالتي: «كيف حال *القرد الصغير*؟». وهي تنظر إلي، لكنها لا بد تتحدث عن نيساي، لأن أحدًا لم يدعوني قردًا صغيرًا منذ خمسة وعشرين عامًا.

فأجيبها: «ليس بصحة جيدة، ولهذا جئنا: لنرى المعالج».

تؤكد نظرتها المتسائلة شكي في مسألة القرد ونضحك كلتانا. تشير إلينا لنصعد السلم ثم إلى داخل البيت.

تحضر خالتي بعض الفاكهة ويسأل خالي عن أخبارنا: «كيف حال أمك؟».

أجيبه بجدية: «عنيدة»، فيقهقه.

ندردش قليلًا، نميمة في الغالب، عن القرية، والمكب، وصعوبة العيش في كل منهما. يخبرنا أن ماني ساب، جارًا لهم على مسافة عشرات البيوت، قد عضته أفعى حفرة في منتصف الليل ومات بعدها بثلاثة أيام. أخبره أن براك سيم قد دهسته شاحنة قمامة ومات على الفور. كنت على وشك أن أخبرهم أن صديقتي سوبيب سين، امرأة مشاكسة ورائعة، علمتني القراءة، ولديها شيء ما يضغط على شرايينها، وأنني أتوسل إلى السماء أن تظل على قيد الحياة حين أعود، لكنني أمسك لساني.

في أثناء الحوار، يذكر خالي أنه بعد اتصالنا به حاول الاتصال بالمعالج ليخبره أننا قادمون، لكنه عرف أنه سيغيب في صعيد النهر يومين آخرين. أتنهد سرًا. لا بد أن خالي شعر بأننا مرهقون للغاية، لذلك يخبرنا حين يهدأ الحوار أننا سنمكث في بيته القديم على الجهة الغربية، لكن حماته قد انتقلت إليه مؤخرًا، لذلك سنمكث هناك معها. حين أؤكد له أنه لا توجد مشكلة، يكتم ابتسامة. لست متأكدة إن كانت تحذيرًا لنا أم تسديدة لحماته.

ألواح البيت القديم ليست عالية مثل بيته الجديد، ما يدل على فيضانات أشد في الآونة الأخيرة، وأشعر بالامتنان لأنه ليس موسم الأمطار. حين يرتفع منسوب مياه النهر لا يمكن الخروج من أي بيت على ضفته إلا بقارب. حين ندخل خلف خالي، تغمغم امرأة عجوز بشعر أبيض، يبدو واضحًا أنها ليست سعيدة للغاية بالغزو. لا أتذكرها من طفولتي، وأنا متأكدة أن عليَّ هذا، لكن حينها يوضح خالي أنها كانت تعيش في ستونغ ترينج مع شقيقة زوجها. لكن اضطرتها ظروف ما (لا يوضحها) إلى العودة إلى القرية. يؤكد على كلمة العودة بطريقة تجعل المرأة تبدو كأنها مذنبة، فأعرف لماذا فورًا.

أشياؤها موزعة بترتيب شديد تقريبًا في الغرفتين، وتتركز بشكل واضح في المساحة الأصغر التي سنمكث فيها.

«نانا»، يقول خالي، بنبرة توبيخ، «أخبرتك، أن لدينا ضيوفًا أيامًا عدة».

لا تجيبه.

يقول خالي متحدثًا إلينا كأنها غير موجودة: «أنا أسمي هذا السمع السحري، يعمل في أغرب المناسبات، حين يحين وقت العشاء مثلًا. ثم حين ينبغي العمل، يختفي... سمع *سحري*».

يخيل لي أن المرأة تقطب جبينها.

بينما يجمع خالي أشياءها ويلقي بها في الغرفة المجاورة ليفسح لنا مكانًا، أحاول عقد السلام معها فأقول لها: «أنا آسفة. لن نقيم هنا مطولًا. نحن هنا لنأخذ صغيري إلى المعالج فحسب».

إن كانت تفهم فلم يبد عليها شيء.

«كأنكما في بيتكما»، يقول خالي بمكر قليل في صوته فأخمن أنه يضمر شيئًا ما.

يهبط نصف السلم ثم أسمعه يصيح: «طاب مساؤك يا نانا»، ثم يضحك.

ينظر كي، الذي لم ينطق بشيء تقريبًا حتى الآن، إلى المرأة وهي تجمع كومة أشيائها التي ألقاها خالي على الأرض، ويقرر هو الآخر الانسحاب، فيقول: «سآخذ نيساي إلى النهر لحمام سريع. تعاملي أنتِ مع الأمر هنا».

لست متأكدة لماذا يغادر. إنه من يملك سكينًا. لكن عرضه تحميم نيساي لا يمكن رفضه.

وحدي مع المرأة. التي ما زالت لم تتفوه بكلمة واحدة معقولة، أُخرِج أولًا كتاب سوبيب. تلمع عيناها، تتحرك زاويتا فمها، وتتم غمغمتها الجديدة عن فرح أكثر من الاستياء. *هذا هو الأمر*، أقرر. من الذي لا يحب القصص؟ غدًا سأقرأ قصة النمر مجددًا

ليسمع كي نهايتها، ويمكن للعجوز أن تستمتع، وسيكون الأمر مثل رحلة الحافلة تمامًا.

سأقرأ لها أدبًا، ستفهم أننا لا نريد بها شرًا، وسيكون كل شيء في العالم بخير مجددًا.

****

الهواء رائع والشمس دافئة والريف يرحب بعودتنا كوننا أصدقاء قدامى. رتب خالي مع أحد المزراعين في القرية ليساعده كي في زراعة الأرز. لن يجني ما كان يجنيه من جمع النفايات القابلة للتدوير في بيتنا، لكنه شيء ما على الأقل.

أحمل نيساي في عربة إلى النهر لأريه القرويين وهم يلوحون في الضباب على جواميسهم المائية الضخمة تعبر بهم النهر إلى الضفة الأخرى. لو كان بصحة جيدة، فسيضحك ويقهقه ويصفق بيديه. اليوم بالكاد يمكنه فتح عينيه. كانت نوبة الحمى والإسهال شديدة بشكل خاص ليلة أمس، ولم تتسامح شريكتنا في السكن مع هذا بأدنى قدر. ومع أنها لم تتفوه بكلمة، لكنني سمعت ما يكفي من غمغمتها وتمتمتها لأقرر قضاء اليوم في الخارج.

حين ينتهي مشهد عبور جواميس الماء، نسير بحذاء النهر، على خطوات قدماء كثيرين تقاطعت مع خطوات طفولتي. أتمنى لو كان نيساي قد رأى جده، لكنني كالعادة، يمكنني ملء سلة كبيرة بأمنياتي، وماذا بعد؟ نرتاح قليلًا في ظل شجرة تين، لنأكل طعامًا أعدته لنا خالتي، لكننا لا نبقى هناك طويلًا.

أقول له: «يجب أن نعود، أنت تعرف ماذا قال الجد. *لن نملك السماء إن ظللنا جالسين تحتها*».

ثم أذكر نفسي أن الجد أيضًا من قال: «*إن كنت ستفعل خطأ ما، فاحرص على الأقل ألا يزيد وزنك*».

ألاحظ أننا اقتربنا في تجوالنا من بيت المعالج، أقرر زيارته لتحديد موعد رسمي. أفهم أن هذا ليس ضروريًا له، لكنه كذلك لي. تُحيينا زوجته، وفي البدء لا أتعرف إليها، مرت سنوات كثيرة للغاية وكنا جيرانًا بعيدين بالفعل. حين أوضّح لها سبب زيارتي، تومئ بأدب وتقول: «نعم، عودي بعد يومين. ستجدينه حينها».

أشكرها ونغادر. «يومان آخران يا نيساي»، أقول لولدي ونحن نعود. «يومان آخران وستتحسن أخيرًا».

حين نصل إلى البيت، أرى دخانًا يتصاعد من نوافذه المفتوحة، أنا متأكدة تقريبًا، لا، بل واثقة تمامًا أن كي ليس من يعدّ لنا عشاء. ثم أراه يقف على مسافة ياردات عدة يتحدث مع خالي. يراه نيساي أيضًا ويغمغم بشيء ما أعده قريبًا لكلمة بابا (بابا) بحيث أسلمه له. ثم أصعد السلم إلى حجرتنا.

حين أرى مصدر الدخان، أصرخ مذعورة فجأة: «لا! توقفي!».

المرأة العجوز المجنونة تغلي الأرز على موقدها السيراميك. وأسفله، وقودًا للنار، كتابي، مجموعة القصص القصيرة، بأغلب صفحاته ممزقة ومحترقة!

لا بد أنها ظنت أنني سأقتلها من انتفاضي بشراسة، ما كنت على وشك فعله بالفعل، لكنني حاولت أولاً سحب الصفحات المحترقة من أسفل موقدها. فات الأوان. انتزعت بقايا الكتاب من جانبها وأنا أخوض معركة أخرى في داخلي، الغضب ضد الدموع، وقبل انتصار أحدهما، يندفع خالي وكي لسماعهما

صرختي. أريد أن أطلب من كي أن يعطيني سكينه، لكنني قبل أي شيء تنهمر دموعي فجأة. أحتضن ما تبقى من كتابي، وأخطو ببطء وضعف على الأرضية الخيزران، أبكي كطفلة حزينة. تمر دقائق عديدة قبل أن أسمع عزاء الرجلين.

يقول خالي: «إنها عجوز خرفة، لا تفكر بشكل سليم طوال الوقت. لم تتخيل أن أحدًا هنا يقرأ. لم تستخدم الكتب القديمة في حياتها لسوى إشعال النار».

لا أصدق براءتها، ودليلي الوحيد على خبثها هو تعبير الرضا على وجهها. أمسح خديّ، وأفرد كتفيّ، وأحاول استعادة هدوئي وأقول: «كنت سأقرؤه لنيساي».

«ربما سيمكننا إيجاد كتاب آخر لكِ؟». يقول خالي، مناورًا انتقامية العجوز.

فأطالب: «عليها هي أن تدفع ثمنه».

ينظر خالي إلى الغلاف الذي ما زال في يدي، ويقول: «سيكون هذا صعبًا، إلا إذا أمكنك الانتظار للمرة القادمة التي سأسافر فيها إلى المدينة. لأنني لا أعرف بوجود أي كتب في القرية سوى كتب قراءة قليلة يستخدمها المعلمون في المدرسة».

أعرف أن هذا حقيقي، أو على الأقل كان كذلك في عهد صباي في القرية. مع ذلك ما زالت الكلمات صادمة. حتى في مكب القمامة، أقذر مكان في كمبوديا، بل وعلى الكوكب كله، يمكنني دائمًا إيجاد شيء للقراءة.

****

أظل حتى شروق الشمس أراقب العجوز بعين حذرة مشككة. وفي الصباح تأتي خالتي لتصحبني أنا ونيساي في جولة إلى النهر لتغسل الملابس، لا بد أنها افترضت أنني سأخطط لانتقام شرير. لكن بدا أنها تريد الدردشة فحسب.

تقول: «قالت أمك إنك أنت وكي سعيدان رغم الصعوبات المادية بسبب نيساي».

«أمي؟ متى تحدثت مع أمي؟».

«نتحدث من حين إلى آخر».

«حقًا؟».

تقهقه قائلة: «القرية بعيدة، لكننا في القرن الحادي والعشرين بالفعل يا عزيزتي».

تذكرني مخاطبتها لي بـ «يا عزيزتي» بوسبيب، وأرتاح لهذا. تواصل خالتي، «منذ أن حظينا بهاتفنا، ظلت أمك كل شهر أو شهرين تستعير هاتف أحدهم الخلوي دقائق قليلة. لا أعرف كيف، لكن ظللنا على علم بالأخبار كلها. إنها فخورة بك جدًا لأنك تتعلمين القراءة، مع أنها قلقة قليلًا».

«قلقة؟».

تتردد خالتي وتقول: «لا تقولي شيئًا عن هذا».

«بالطبع لن أقول شيئًا، ما الذي يقلقها؟».

«قد لا تكون هذه هي الكلمة الصحيحة. إنها فخورة بكِ وتريد أن تظل بالقرب منكِ لترى أحفادها وهم يكبرون».

«حفيدها»، أصحح لها. «مفرد، وليس جمعًا، وما شأن قراءتي بذلك؟».

«ظني أنك الآن وقد صرت تقرئين، فهي قلقة من أن تجدي عملًا وتغادري ستونغ مانشي، تقول إنك تكرهين هناك».

«إنها محقة. أنا أكره المكان بالفعل. رائحته القذرة. النتن. الهواء ممتلئ بالدخان طوال الوقت. نيساي لن يتحسن هناك أبدًا. هنا في القرية الحياة... هادئة جدًا. أفتقد وجودي هنا».

«نعم...» تقول خالتي بشرود، ثم تبتسم وتضيف، «الذكرى أحيانًا قرد خبيث كامن».

«لا أفهم ماذا تقصدين؟».

«أقصد أن القرية لا تختلف عن المكب. إنها صعبة وقاسية بالقدر نفسه، بل وأصعب من أوجه عدة. هل نسيتِ لماذا غادرتِ؟».

«لكنك بخير».

«منذ أن بدأ خالك عمله الجديد، الأمور أفضل. لكنها لم تكن كذلك دائمًا، ومن يعرف ماذا يحمل المستقبل؟ أغلب العائلات هنا تعاني. أنت تعلمين هذا».

ما تقوله حقيقي لكنني لا أستسلم بسهولة. «نعم، لكن...».

«سانغ لي، هل تحبين فاكهة دوريان؟». تغير الموضوع فجأة، فأخمن وجود فخ.

«نعم...» أقول بحذر. «ظني هذا». وهو حقيقي. أحب بالفعل مذاقها، رغم سمعتها السيئة. فرغم كونها من أفضل الفواكه مذاقًا في كمبوديا كلها، لكنها ذات الرائحة الأسوأ، رائحتها سيئة جدًا، حدَ أنها ممنوعة بالفعل في فنادق كثيرة.

«ظني يا سانغ لي»، تقول، «أن المكب يشبه فاكهة دوريان كثيرًا».

«معكِ حق. كلاهما مقرف».

«صحيح، إنهما كذلك. لكن هذا لا يهم. المهم هو ما تجدينه وسط هذا. هذا ما يجعل الدوريان شعبية للغاية».

«البذور؟». أقول لأعاند قليلًا.

لا يهمها. «إنها ليست طيبة المذاق فحسب» تقول، «بل ومن أكثر فواكه البلد فائدة غذائية أيضًا».

ثم تسدد ضربتها القاضية: «المكب مثل الدوريان. رغم رائحته الكريهة، يلم شمل العائلات، عائلة كعائلتك. ورغم كونه مقرفًا، يمدكم بالغذاء».

أفترض أن الدرس قد انتهى. لكنه لم ينته.

تواصل خالتي: «على الجانب الآخر يا سانغ لي، القرية مثل فاكهة التنين. ألوانها زاهية وجذابة وتسر العين، ورائحتها حلوة، وهي كذلك. مع ذلك لو ظل المرء يأكلها هي فحسب، سيموت جوعًا. ليست لها فائدة غذائية خاصة».

أميل وأربت على يديها إيماءةَ شكر على درسها. تكف حينها فقط عن فرك الملابس وتستدير لتنظر إلي في عيني. من الواضح أنها لم تنتهِ بعد.

أجيبها بانحناءة شكر وهي تواصل.

«العودة إلى الوطن من حين إلى آخر شيء جيد، وأنتم على الرحب والسعة دائمًا. العودة إلى الجذور شيء صحي وطيب. مع ذلك، يجب ألا يكون على حساب البحث عن طريقك في الحياة،

أو لفقدان الرؤية للأمور الأهم، ظني أنك قد ترتكبين خطأً».

إن أرادت أن تتحدث بجدية، فأنا لها. أصر قائلة: «يا خالتي، ماذا لو كان القدر يحاول إبقائي في المكب؟ إنه مكان قبيح للغاية. وهذا لا يبدو صوابًا».

فقالت: «فليكن إذًا. لكن تذكري أن القرية، رغم جمالها، لديها جيوب القبح الخاصة بها. وكذلك المكب رغم قبحه، لديه جيوب جمال أيضًا. ظني أن إيجاد الجمال في أي مكان يعتمد ببساطة على قرارك أنتِ».

ثم تشير إلى ملابسها المغسولة، وتقول: «الآن نيساي ليس ثقيلًا للغاية. أنتِ تحملينه على ذراع واحدة. ساعديني في حمل هذه الملابس إلى البيت، من فضلك».

# الفصل الثالث والعشرون

أحمل نيساي ونسير بجوار النهر، ولا يهدأ ذهني. إن كان الأشخاص يُوضعون في طريقنا، إن كانت الأحداث تقع لسبب ما، إن كان لكل شيء معنى وكانت الشخصيات في القصص والأساطير نسخًا تحاكي حياتنا وأحلامنا، وإلا فلماذا يظهر المعالج في حلمي، رجل صامت دائمًا، ناءٍ بنفسه ومنعزل. هل سيؤدي دور بطولة في قصتي؟ هل سيكون الرجل الذي سيساعد ابني أخيرًا؟ أم سيتبين أنه متحول آخر وتنهار آمالي مجددًا؟

قرر كي أن يظل يعمل في الحقول ليضمن أن تكون لدينا نقود كافية لرحلة العودة. وافقت خالتي على المجيء معي إلى المعالج بدلًا منه. الآن، ونحن نترجل من الزورق الصغير إلى ضفة النهر، لا بد أنني بدوت قلقة لأن خالتي وضعت يدها على كتفي وغمغمت لتطمئنني: «سيكون كل شيء بخير. لا تقلقي».

يقف المعالج قريبًا من الطريق لاستقبالنا.

يقول وهو ينحني بأدب: «مرحبًا. تسعدني رؤيتكما».

نحيل متوسط القامة، يرتدي بنطالًا قصيرًا أسود باهتًا، وصندلًا، وتي شيرت داكنًا بحروف إنجليزية بيضاء. لم أره منذ سنوات، لذلك لا أعرف ما أتوقع بالتحديد، لكنه ليس مخيفًا كما أتذكره. بل في الحقيقة لن ألاحظه إن مررت به في الطريق.

يسألني: «كيف حالك؟». ومع أنني لا أتخيل أنه يتذكرني بالفعل، يُعجبني تظاهره.

فأجيبه: «بخير»، ثم أتذكر أنني لست بخير على الإطلاق، فأضيف: «ما عدا أن ابني مريض. لهذا جئنا».

يسأل: «ما مشكلته؟». ويبدو مدهوشًا، مع أنني لا أعرف لماذا، مع علمه مسبقًا بأننا قادمون، وأنه هو المعالج.

أخبره ونحن نسير إلى البيت عن إسهال نيساي، وفقدانه شهيته، وبكائه الدائم، ويأسي. وعن المستشفيات، والأطباء الغربيين، وعلاجات كواه كشول، والكوب خيول، والأدوية الحديثة التي تعمل وقتًا قصيرًا فحسب. يستمع إلى كل شيء باهتمام ثم يقول ببساطة: «يؤسفني للغاية سماع كل هذا. كان عليك المجيء مبكرًا».

«كنا سنفعل، لكننا نعيش في المدينة الآن و...» كان رده عفويًا للغاية، تلقائيًا للغاية، حدَ أنني كنت في منتصف إجابتي عليه، حين أخبرت أذني مخي بأن يقف لحظة وينتبه إلى ما قاله الرجل التوّة؛ *كان عليكِ المجيء مبكرًا*!

كان في حلمي يقولها بيقين. اليوم سلوكه عادي وهادئ. وبينما أحاول أن أفهم إن كان يوجد صلة بالفعل، أم أن خيالي يضحك مني الآن، يمد المعالج يده ويلمس خد نيساي. يبدو لوهلة كجد ودود، ثم يميل عليه ليشم رائحة أنفاسه، فأفهم أنه بدأ عمله بالفعل.

«لا تقلقي»، يقول وهو ينظر في عينيّ. «يمكنني مساعدته».

نصل إلى سلم غرفة العلاج، كوخ منفصل، على ركائز منفصلة عن بيته أيضًا. يقودنا إلى أعلى وتتبعه خالتي. آخذ نفسًا وأخبر نفسي أن كل شيء سيكون بخير، وأدعو أن يحدث هذا بالفعل، ثم

أتبعهما وأنا أحمل ابني. أجلس متربعة على الأرضية الخيزران قبالة المعالج، ونيساي في حجري. تقف خالتي بعيدًا كي لا تعوق المعالج.

نراقب باهتمام والرجل يفض كيسًا بلاستيكًا مربوطًا بأربطة مطاطية ثم يفصل بين سرنجات عدة مستخدمة، وسكين فضية حادة، وملعقة، ومرطبان بلاستيك صغير يحوي صخرتين سوداوين لهما شكل غير مألوف. مع أنني أراقب بصمت، نيساي ليس كذلك. كعادته في جلسات علاجه بالكواه كشول وكوب خيول، أو أي زيارة للطبيب عمومًا، يبدأ ابني الاعتراض ما إن نجلس. وكلما طالت تحضيرات المعالج اقتنعت باعتراضات نيساي.

يشعل الرجل بخورًا، يستخدم سكينه ليقتطع قدرًا محسوبًا من فحم طبي على ما يبدو. يضعه في قاع فنجان صغير مقلوب ويطحنه بطرف كتلة خشبية صغيرة وسرعان ما يتحول إلى معجون لزج، يظل يتشممه، كأنه سيحدد من الرائحة متى سيكون جاهزًا. أعرف من أصابعه المبقعة والبقايا الداكنة العالقة تحت أظافره أن هذا القطران الصمغي -أيًا كان- هو الدواء الذي اختاره.

الإبر تنتظر بصبر على الصفيح، ويختار واحدة يجب أن تعمل جيدًا لأنها تبدو الأكثر استخدامًا. يغمس سنها في المزيج الأسود. ثم يعلن: «نحن جاهزون».

يخبرني أن أرفع ذراعي نيساي، يتبين أنها مهمة صعبة. يدرك نيساي أيضًا أن العرض سيبدأ ويقاوم بقوة. أحاول فرد ذراعيه إلى أعلى، فيقاوم لسحبها مني ويبكي بخوف.

«لتهدأ. هذا سيساعدك» أهمس له، أتمنى أن تهدئه الكلمات، وأخشى أن تؤكد له أن أمه ليست سوى نيك كوهاك (كذابة كبيرة وسمينة).

يوخز المعالج نيساي أولًا في منتصف معصمه الأيسر، يصرخ بصوت أعلى، ثم إلى اليسار قليلًا مجددًا، ثم إلى اليمين. لا بد أن القطران الأسود يسد الجروح سريعًا لأن ثقوب الإبرة على جلد ابني لا تنزف دمًا.

يوجد مثل شعبي كمبودي كان جدي يحبه، يقول *لتعرف أحوال القلب راقب الوجه*. في هذه اللحظة، ظني أنه سيكون أكثر دقة لو قال، *لتعرف حال قلب الأم راقب وجه ابنها*. نيساي مرعوب وقلبي يبكي.

الوخز والصراخ، الأعصاب المشدودة والدموع، يتكرر كل هذا مع المعصم الآخر، ثم ينتقل المعالج إلى قدمي الصغير. لا بد أن الرجل قد أحس بأنني وصلت إلى حد لم أعد قادرة على رؤية ابني خائفًا ومتألمًا لأنه يضع الإبرة جانبًا. أتوقع أن يقول إنه انتهى، لكنه يعطيني الفنجان الذي يحوي بقية المزيج الكريه ويقول: «ضعي بعضه على إصبعك وأطعميه للولد».

يبكي نيساي بقوة بين ذراعي وحين أمد إصبعي نحو فمه يغلقه بقوة. أحاول مجددًا لكن الحبر اللزج يلطخ وجهه فحسب. أنظر إلى المعالج لإرشادات، أدع تعبيري اليائس تمامًا يتوسل إليه الرحمة.

فيقول: «قليل فحسب على لسانه».

أضع آخر قطرة على إصبعي، وأدفعها بعمق في فم نيساي، وأدعها تغلف حلقه ولسانه بأفضل ما يمكنني. حينها يقول المعالج الكلمات التي تجعلني أبكي. «انتهى الأمر».

تتقدم خالتي نحوي وتأخذ نيساي، وأنا أُخرِج النقود من جيبي. تقول: «سآخذه إلى الخارج، سننتظرك بالأسفل عند النهر».

تخدرت قدماي، ويستغرق الأمر دقيقة لأنهض بشكل سليم. توجد طاولة صغيرة عليها البخور المشتعل حيث توضع النقود. المعتاد أن تترك أجرًا، لكن المعالج لا يحدده. بل للمريض أن يقرر. مع ذلك، حين أخرج النقود وأبدأ عدها، يلوح لي المعالج بإبعادها.

«لا أجر اليوم».

ينتظر حتى تقابل عيناي عينيه، كأنه يريد أن يتأكد أنني أفهمه. وما زالت كلماته بشأن الهم الحقيقي تثقل قلبي. يتحدث بثقة شديدة، أكاد أصدقه تقريبًا وهو يؤكد لي: «سيتحسن الآن».

لا أقصد أن أبدو مشككة أو يائسة، أو خائفة، لكن خبرتي علمتني جيدًا. مع أنني أكرهها. لا أريد أن أربي طفلًا على الشك. أريد أن يصدق ابني وأن يأمل ويحلم بمستقبل أفضل.

*يا جدي، أين الحد الفاصل بين الرضا بأقدارنا والتوسل إلى السماء لمدنا بغد أفضل؟*

حينها يظهر من مخبئه في رأسي أحد دروس سوبيب: «شئنا أم أبينا، الأمل محفور في أعماق قلوبنا بحيث لا يمكننا مقاومته، رغم كل محاولاتنا. نحن نحب القصة لأننا ساران أو ذات المعطف الرث أو سندريلا».

ولا بد أن هذا حقيقي؛ لا بد أن بعض الأمل ما زال في قلبي، لأنني أقف في كوخ المعالج. لو كان الأمل قد مات بالفعل في ستونغ مانشي، لم أكن لأقف هنا الآن.

أغيب تمامًا في أفكاري هذه حدَ أن يستغرق ذهني دقيقة لتسجيل ما يقوله المعالج بعد ذلك: «تشبهين أباك كثيرًا وأنت واقفة مرتبكة هكذا».

«هل تتذكر أبي؟». أسأله بدهشة تجعله، بعد أن ظل مبتسمًا، يكشر قليلًا.

«بالطبع. كنا صديقين مقربين. كبرنا معًا في مكان قريب من هنا».

«لم أعرف هذا. لم تذكر لي أمي هذا من قبل».

«هذا خطئي»، يجيب بأسف. ومع أنني أنتظر توضيحًا، لا يقول شيئًا.

فأقول لأتحدث عن أبي: «ليتني أنا أتذكره.. لكنني للأسف لا أتذكره. توفي ليلة أن ولدت».

«نعم، أعرف»، يقول بحزن. «كنت معه».

«لا... لكن... لا يمكن.. كنت معه؟ أخبروني أنه مات وحيدًا أمام البيت عندما كانت أمي تلدني في الداخل».

«نصف هذه القصة صحيح»، يقول.

«أي نصف؟».

سكوته دليل على عدم رغبته في الحديث، لكنني لا أتركه. حين يتضح له أنني لن أغادر إلا بعد معرفة المزيد، يشير لي أن أعاود الجلوس، ويقول: «كانت أمك تلدك. وكنت أنتظر مع أبيك أمام بيته. كان سعيدًا للغاية لإنجابه طفلًا أخيرًا».

«كان سعيدًا؟».

«بشدة. أقصد، كان قلقًا أيضًا مثل جميع الآباء الجدد، لكنه لم يكن يطيق صبرًا ليعلمك الحياة».

«وماذا حدث؟».

«كنا نتحدث، وفقد إحساسه بذراعه اليسرى، ثم يده، ثم أصابعه، ثم بدأ يتنفس بصعوبة. كنت ما زلت أتعلم فن العلاج من أبي، ولم أكن قد تزوجت بعد، وكنت ما زلت لم أقرر إن كنت سأكون مثل أبي أم لا. يا سانغ لي، ما أحاول قوله إنني، حين سقط أبوك مغشيًا عليه، لم أعرف ماذا أفعل لمساعدته».

«وماذا فعلت؟».

«ركضتُ لأجد أبي، آملا أن يعرف هو ماذا يفعل، لكن اختياري كان خطأ. حين عدت، كان الآخرون قد وجدوه طريح الأرض، وكنت قد تأخرت».

ينظر إلي الرجل بعينين تتوسلان السماح.

فأجيبه: «لم تكن تعرف».

«قد يكون هذا صحيحًا»، يقول، «لم أكن لأمنع موته، لكن كان عليَّ البقاء معه حينها. لا ينبغي ترك أحد ليغادر العالم وحده».

تذكير يطعن قلبي بأفكاري عن سوبيب. أمد يدي وألمس يد المعالج، لكنه لم ينه كلامه. يضيف قائلًا: «أشعر بندم آخر لأنني لم أكن قريبًا من أسرتك. لكنني أقنعت نفسي أن الابتعاد سيجعل النسيان أسهل، وقد تبين أنه يزيد الأسف فحسب، مع ذلك ظني أنه يوجد جانب مشرق».

«ما هو؟».

«لو لم يتوفَ أبوك بهذه الطريقة، لم أكن لأقرر أن أصير معالجًا. أقسمت بعد وفاته أن أتعلم كل ما يمكن لأبي تعليمه لي عن طرائق العلاج القديمة، لأعرف في المرة القادمة ما ينبغي فعله».

يرتفع حاجباه حين أسأله: «كيف كان شكله؟».

فيجيبني: «أبوك؟ كان وسيمًا، يشبه جدك تمامًا. نعم، تخيلي جدك، لكن أصغر بسنوات كثيرة». ويسكت قليلًا ثم يسألني: «ألم تري صورة له من قبل؟».

أخفض رأسي وأجيبه: «لا صور له لدينا، قالت أمي إن صورة زفافهما ضاعت في أحد الفيضانات».

يتحول حزنه إلى سعادة ويقول: «انتظري قليلًا أرجوكِ».

ينزل السلم ويسرع إلى باب بيته المجاور. حين يعود، يعطيني صورة فوتوغرافية صغيرة بالأبيض والأسود لشابين وسيمين يقفان أمام حقل أرز. الرجل الواقف إلى اليمين يشبه جدي كثيرًا بالفعل. رؤية إعجازية أعجز أمامها عن قول شيء.

يقول لي: «أرجو أن تأخذيها».

الصورة قديمة، ومبقعة، ومغبشة، وهي بالفعل، وبلا أدنى شك، أروع هدية تلقيتها في حياتي.

«كان سيفخر بكِ للغاية»، يقول لي وأنا أستعد للمغادرة.

ربما لم يسمعني حين أخبرته من قبل. «نحن نعيش في المكب»، فأذكره.

فيومئ لـي بـود: «لا يهـم أيـن تعيشـين يـا سـانغ لـي، بـل كيـف تعيشـين».

يبـدو أنـه وخالتـي كانـا يتحدثـان. لا أعـرف الآداب اللائقـة مـع المعالجيـن، مـا هـو مسـموح بـه ومـا ليـس كذلـك، لكننـي أمـد يـدي وأمسـك بيديـه، أسـحبهما نحـوي، ثـم أنحنـي لـه بإخـلاص وامتنـان. فيجيبنـي بانحنـاءة.

بعـد تقديـم جزيـل الشـكر، أضـع أبـي فـي جيبـي. وحيـن أصـل إلـى خالتـي ونيسـاي، أجدهمـا جالسـين علـى حافـة النهـر يراقبـان صيـادًا. هـدأ بـكاء نيسـاي.

يمتـزج صـوت محـرك القـارب بـرذاذ مـاء النهـر، وأنـا أنظـر فـي الصـورة مجـددًا ثـم أضعهـا فـي حقيبتـي، حيـث سـتكون آمنـة ولا تبتـل. أحـدق إلـى السـماء نحـو رجـل يمكننـي تصـوره أخيـرًا.

*شـكرًا لـك يـا أبـي، لمسـاعدتك صديقـك ليقـرر أن يصيـر معالجًـا ليكـون هنـا اليـوم لمسـاعدة نيسـاي. شـكرًا لـك لعـدم اهتمامـك أيـن أعيـش. شـكرًا لـك لفخـرك بـي، نعـم، وحيـن يمكنـك، أخبـر جـدي أنـه لـو كان لديـه شـيء مـا ليقولـه، فسـيكون عليـه الانتظـار. لأن لدينـا أنـا وأنـت الكثيـر لنتحـدث بشـأنه.*

****

تحزن خالتي بشدة ونحن نودعهم الوداع الأخير.

«أعطـي هـذا لأمـك»، تقـول وهـي تعطينـي بعـض النقـود الورقيـة. «أخبريهـا أنهـا لنفقـات المكالمـات الهاتفيـة، لأنهـا مـن تتصـل بـي دائمًـا».

آخـذ النقـود، أنحنـي لهـا ولخالـي، وأشـكرهما علـى كرمهمـا.

يودعهما كي بطريقة أغلب الرجال بإيماءة هادئة برأسه وكلمات قليلة.

أحمل نيساي. ويحمل كي الحقيبتين. نبتعد خطوات قليلة قبل أن ألاحظ المرأة العجوز، شريكتنا في السكن وحارقة الكتب، تقف أعلى السلم البعيد. تريد التؤكد من مغادرتنا تقريبًا.

أقول لكي: «كي، انتظرني قليلًا يوجد شيء واحد أخير يجب أن أفعله».

ينظر إلى المرأة، ثم لي. يقول لي تعبير وجهه، *لا تفعلي شيئًا غبيًا*. فأجيبه بتسليمه نيساي وأخذ حقيبة منه. أفتحها وأخرج منها الكتاب المحترق. كنت قد قدرت حجم الضرر بالفعل. مزقته بعشوائية، ولم تبق منه قصة واحدة كاملة.

حين يفهم كي ماذا سأفعل، يبتسم، وكذلك خالي وزوجته. ترمقني العجوز بقلق حتى أصل إلى حيث تقف وأقدم لها هدية الوداع، بقايا كتابي.

حين تدرك المرأة أنني أقدم قربانًا للسلام، يتحول الشك في عينيها إلى دهشة. ترتفع تجاعيد وجهها وترتعش يديها بسعادة وهي تخطف بقايا الكتاب من يدي، دون أن تقول كلمة، وتهرع لتجمع عود ثقاب وإناء وموقدها القديم. ستغدو الفتاة المجنونة التي أرادت قتلها ذكرى ماضية خلال وقت قصير، وستطهو الأرز والخضراوات للعشاء.

مكتبة
t.me/soramnqraa

# الفصل الرابع والعشرون

يرتاح رأس كي على النافذة المغلقة للحافلة التي لحسن الحظ فيها مكيف هواء ومقاعد مريحة. حين تستقل حافلة من القرية، تنتظر على جانب الطريق وتستقل أي حافلة تمر بك. اليوم كان الأجداد يبتسمون.

شكرًا لك يا أبي.

يرقد نيساي ملفوفًا على صدري وكل منهما يغط في نوم عميق كرضيعين هانئين. المشهد جميل للغاية حدَ أني تمنيت لو كانت معي كاميرا. ما زالت البقع السوداء على معصمي نيساي وقدميه، نسيت أن أسأل المعالج متى أغسلها، عند هذه النقطة لن أخاطر بأي شيء.

أحاول النوم، لكن ذهني المشغول يأسر جسدي المنهك. تتوقف الحافلة عند محطة بالقرب من مفترق طرق على الطريق السريع ليترجل زوجان عجوزان. بينما أنتظر أنقل بصري من على وجهي زوجي وطفلي النائمين إلى وجوه القرويين التي تمتزج وتتداخل على طول الطريق بيقين أن لكل منهم قصة حياة مثيرة.

ثم أراها.

أميل إلى الأمام وقلبي يخفق، لأتأكد أن عينيّ لا تخدعانني، أنهض من مقعدي وأتوجه إلى الصف الخالي في المقدمة، لأستطيع النظر من النافذة مباشرة.

نعم، لا شك أنها هي. إنها مالي، تسير بجوار امرأة أنيقة أكبر سنًّا مني بقليل. الاثنتان تحملان نصف دزينة من لفات أقمشة بألوان زاهية، كأنهما عائدتان من السوق. تسيران بموازاة الباص، وتدردشان معًا بهدوء.

أريد أن أخبط على النافذة للفت انتباهها، أن أركض خلفها وأعانقها وأخبرها أنني كنت أفكر فيها، وأننا جميعًا نفتقدها. لكنني حين أمسك بمزلاج النافذة تتجمد يدي.

هل تعرف بوفاة أخيها؟ هل تعرف أن محظوظ السمين يسأل كل يوم كيف حالها؟ هل ترغب في نسيان ذكرياتها عن ستونغ مانشي؟

تتدفق الأسئلة فأتذكر قصة قرأتها مع سوبيب عن بيراموس وثيسبي. عن حب طفلين يفصل بين بيتيهما جدار سميك، لكنهما يجدان فيه شقًّا يمكنهما التحدث من خلاله. ألمس زجاج النافذة بإصبعي ومالي تبتعد في الطريق المؤدي إلى قرية نائية. ألاحظ ضحكها في أثناء تحدثها مع المرأة. لا تعرف أنني هنا حتى.

أتخيل أن هذه لا بد حال أجدادنا. يراقبوننا عن قرب بكل الحب والاهتمام، ويهمسون أحيانًا بكلمات تشجيع من خلال شق، لكنهم في الغالب قانعون بكوننا سعداء.

حين أعود للجلوس بجوار كي يرفع رأسه وينظر إلي: «ما الأمر؟ يا سانغ لي، لماذا تبكين؟».

«لا شيء»، أخبره وأنا أمسك بيده. «اختلست التوّة النظر من شق في الجدار السميك، وأريد أن نعود إلى بيتِنا».

****

نصل أخيرًا إلى ستونغ مانشي في وقت متأخر من الليل، لكن

القمر ينير المكب بما يكفي لنرى طريقنا. حين نصل إلى كوخنا أعلى الربوة، تتجمد ساقيّ وأتوقف فجأة. يسقط فكي، ولا أتفوه بكلمة. تسقط من يدي الحقيبة على الأرض بضجة مكتومة.

بينما لا أستطيع قول شيء من ذهولي، يملأ كي الفراغ بدلًا مني: «يبدو أننا تعرضنا للسطو».

لقد تعرضنا لما هو أكثر من سطو، لقد تعرضنا للسلب والنهب والاغتصاب. بيتنا خالٍ تمامًا، عدا جدرانه الثلاثة العارية وسقف، للعجب الشديد، بقي سليمًا لم يمس، لم يبق أي شيء آخر.

أندفع في المكان لكن ليس لدي ضوء. يخرج كي قداحته، وبضغطة واحدة من إصبعه تتأكد مخاوفي. أخذوا كل ما خبأناه بالأسفل، دلو الغسيل، طاساتي، موقدي، أرزنا. أخذوا كتبي ومجلاتي، مرتباتنا ووساداتنا، حذاء كي العالي الرقبة، مرطباناتنا البلاستيك الفارغة، وبرادنا الاستيروفوم الممتلئ بقوقعات الحلزونات الفارغة.

جرة الماء السيراميك التي ظللنا نستخدمها منذ أن جئنا إلى ستونغ مانشي، قاعدتها عارية وخالية. أدوات جمع كي أيضًا، وكذلك فائض الأجولة الفارغة التي نجمع فيها النفايات القابلة للتدوير.

نترنح في سيرنا نحو الباب لنتأكد أن الستارة، التي كانت جدارنا الرابع، وبابنا الأمامي، وحاجز الحماية من العالم الخارجي، ليست أعلى السقف، بل ليست موجودة. أخذوا حتى ساعتي المعطلة.

ذهب كل ما نملكه بالفعل، ما عدا ما جئنا به من القرية.

****

أسمع رقرقة جدول بعيد وحيوان ما يمر بوجهي في الظلام. أنا أحلم، لكنه ليس حلمًا على الإطلاق. حين أفتح عيني، يكون الليل قد ذهب. نيساي بجانبي، ومستيقظ بالفعل ويعبث بيده في شعري. أجلس لا أدري أين أنا ثم أتذكر أننا في بيت أمي. في وقت متأخر من ليلة أمس، حين أدركنا أن كل متاعنا الدنيوي قد ذهب بلا رجعة، قررنا المبيت هنا خشية أن تمطر السماء.

ما زال زوجي نائمًا خلفي، وكذلك أمي في الناحية الأخرى من الغرفة. أعود لأرقد، أتحسس ابني، أجده جافًا، لا إسهال لتنظيفه، ويحاول التحدث معي. لا أعرف ماذا يقول، لكن صوته عالٍ بما يكفي ليوقظ أمي. تنظر إليه سريعًا ثم تقترب لتلقي نظرة أفضل. لا تصدق ما تراه.

«نيساي يبدو بحال جيدة جدًا»، تقول ولا تريد أن تبدو متفائلة سريعًا. تفتح الباب على وسعه لتسمح بدخول الضوء، لتتأكد.

أقول لها: «لقد تحسن بالفعل، نام طوال طريق العودة في الحافلة. ولا يوجد إسهال، ويبدو منتبهًا أكثر بالفعل».

لا يمكنها تصديق ما تراه والآن لا تصدق ما تسمعه. «لا إسهال؟». تسأل وهي تهز رأسها.

فأجيبها: «حتى الآن».

تمد يدها وتحمله، فيسره ذلك للغاية. أريد أن أضحك معها وهي تلعب معه، لكنني أذكر نفسي أن الأمل سيموت سريعًا، حين سيعاوده المرض. لكن هذا يحدث حين تنفد الأدوية. وهو الآن، لا يتناول أدوية.

«تبدو جائعًا. هل حفيدي جائع؟». تسأله بنبرة طفولية، ثم تضيف: «يجب أن نعد لك إفطارًا كبيرًا للاحتفال».

يستيقظ كي ويجلس. ليس مبتهجًا مثلنا. يقول: «يجب أن أذهب إلى العمل، وليس لدي حذاء، ولا عصا جمع، ولا شيء».

محق بالطبع، ليس لدينا شيء. مع ذلك، فإن كان نيساي قد تحسن بالفعل، *فلدينا كل شيء*.

النظرية بسيطة، بقبول فكرة أن نيساي قد تحسن، لكنه أمل ظللت أحبسه داخل قفص في قلبي وقتًا طويلًا جدًا، وحين أفتح باب هذا القفص أخيرًا على احتمالية حدوث هذا، يفيض شعوري بالامتنان بسرعة شديدة ليصل إلى الشمس في المشرقة، لا يمكنني وقفه. ترتعش شفتاي والدموع تسيل على خديّ وتمر بأنفي. لا أستطيع كتم البكاء، وأول رد فعل أراه من كي هو الاهتمام. «لا بأس»، يقول معتذرًا على الفور. «يمكنني الحصول على عصا أخرى».

أحاول أن أخبره أنها ليست العصا، لكن كلماتي تمتزج بالبكاء لتخلق أصواتًا لا تفهمها سوى الأم.

تؤكد له لينا: «ستكون بخير، امنحها دقائق قليلة فحسب». ثم تلتفت لتوجه كلامها لنا: «ولا تقلقا بشأن ما فقدتماه. لقد قمنا بترتيبات».

«ترتيبات؟». نغمغم نحن الاثنان.

فتجيبنا: «لاحظت تيفا ماو أن بيتكما تعرض للسطو منذ يومين. وظللنا منذ ذلك الحين نجمع لكما أشياء. لديها موقد إضافي. وнارين لديها إناء لطهو الأرز. وأنا لدي عصي جمع

إضافيـة. وكذلـك يظـن بـران تـاو أن بمقـدوره أخـذ سـتارة كبيـرة مـن ابـن أخيـه فـي المدينـة. سـيتأكد اليـوم. نحـن جميعًـا سـعداء بعودتكمـا إلـى البيـت فحسـب».

*البيت*. أردد الكلمـة فـي رأسـي. سـتونغ مانشـي، المـكان القـذر ذو الرائحـة الكريهـة حيث لا نملك سـوى مـا تجمعـه قبضـة يد.

«نعم»، أوافقها. «عودتنا إلى البيت».

***

ذهـب كـي مـع بـران ليحضـرا سـتارتنا الجديـدة، جديـدة علينـا، رغـم كل شـيء. يذكـر بـران عرضًـا قبـل أن يغـادرا، أنهـا صفـراء فاقعـة بكتابـة برتقاليـة وصـورة دجاجـة، مـع أنـه لا يعـرف مـاذا تقـول الكتابـة. لسـت متأكـدة إن كان يغيظنـي أم لا، لكننـي أجيبـه أننـي بالـكاد يمكننـي الانتظـار.

نرتـب أنـا وأمـي ونيسـاي وتيفـا مـاو بيتنـا، وأرى بعينـيّ الصداقـة تخفـف ألـم الصدمـة. تحمـل تيفـا المـاء لمـلء جرتنـا الجديـدة، فيمـا تنتبـه ابنتهـا، فانـا، لنيسـاي، الـذي صـار يصعـب التحكم فيـه. يأتـي جيـران آخـرون بطعـام، ومرتبـات للنـوم، ووسـادات، وأدوات طهـو. يفيـض الحـب حتـى فـي سـتونغ مانشـي.

الوحيـدة التـي أشـتاق إلـى رؤيتهـا هـي سـوبيب سـين. هرعتُ هـذا الصبـاح إلـى بيتهـا لكننـي لـم أجدهـا. سـأحاول مجددًا فـي الظهيـرة، بعـد أن يغـادر الجميـع. لكـن حيـن يأتـي محظـوظ السـمين تتغيـر خططـي. يحمـل حقيبـة أعـرف علـى الفـور أنهـا حقيبتهـا.

يقول: «طلبت مني سوبيب أن أسلِّمك *هذه*».

أسـأله: «ما هذا؟».

يجيبني: «لا أعرف، أنا لا أقرأ».

أرى في الحقيبة كراسة. فأسأله وأنا أتوسل بكياني كله أي معلومة جديدة: «متى؟ متى أعطتك إياها؟».

فيجيبني: «مرت بي منذ ثلاثة أيام لترى إن كنتم قد عدتم. لا تبدو بخير حقًا، بدت نحيلة، لم أتخيل أن أراها هكذا».

«هل هي في البيت الآن؟ هل قالت شيئًا آخر؟ هل رأيتها منذ ذاك الحين؟». لا أقصد قصفه بالأسئلة، أريد أن أعرف فحسب. يبدو مرتبكًا، كأنه لا يعرف أي سؤال يجيب عنه أولًا. ثم يرد بعبارة واحدة تجيبها كلها.

«ظني أنها كانت تغادر».

كنت سأسأل إلى أين، لكن ما فائدة هذا؟ أبحث في الحقيبة لأتأكد أن لا شيء آخر فيها، ثم أجلس على عتبة بابنا وأفتح الكراسة. يوجد فيها خطاب.

*عزيزتي سانغ لي،*

*آسفة لأننا لن نتقابل مجددًا. كما قلت لكِ، النهايات أحيانًا محبطة. مع ذلك، أريد أن أنهي ما بدأناه. جمعت لك دروسًا عدة أخرى، أثق بأنها ستجيب أسئلتك التي تنقطع.*

*شكرًا لكِ يا سانغ لي لإنصاتك لعجوز بائسة لا تستحق عِظامها صداقتك. لست فتاة غبية رغم كل شيء.*

*كوني بخير*

*سوبيب سين*

*ملحوظة: تركت لك كتبًا قليلة في البيت. مفتاحي خلف جرة الماء.*

بقلقٍ يتصاعد لينتصر سريعًا على صداقة الجيران، فكرت في الإسراع إلى بيتها لأتأكد مما أعرفه بالفعل، أنها لم تعد هناك. ثم يلوح كي وبران من بعيد يحملان الستارة. كان بران يمزح بشأن الدجاجة، لكنها صفراء فاقعة بالفعل. في هذه اللحظة لا يهمني شيء. لا بد أن القلق كان يغزو وجهي لأن كي يسألني فورًا عن الأمر.

فأجيبه وأنا أعطيه الأوراق: «ذهبت سوبيب».

«وما هذا؟».

«يبدو أنها دروس أخرى، لكن محظوظ السمين يقول إنها ذهبت بالفعل».

«إلى أين؟».

«لا يعرف. والرسالة لا تقول أيضًا. لم تكن لتخبرني أبدًا إلى أين ستذهب».

يسألني: «متى؟ أتعرفين متى غادرت؟».

«قال محظوظ منذ ثلاثة أيام».

ينظر كي إلى الستارة ثم إلى بران. ويكرر «ثلاثة أيام»، ثم يضيف، «حسنًا، ظني أن بإمكاننا أن نرى إن كانت قد عادت. دعيني أركب الستارة قبل أن يغادر بران ثم سأذهب معكِ إلى بيتها».

بينما يعمل كي تتولى أمي مهمة مراقبة نيساي، وأجلس على قطعة كرتون، بعيدًا عنهم، أتصفح دروس سوبيب.

أجدها مختلفة. ليست قصصًا مطبوعة، ولا ترجمات من الإنجليزية، لا مطويات ولا كتب. بل كل صفحات الكراسة مكتوبة بخط يدها.

عنوان غلاف رزمة الورق الثقيلة، *مقالات سوبيب سين*. كشكول سميك بدروس كثيرة، وإن قرأتها كلها، سأظل مكاني أيامًا قبل أن أنهيها. يبدو كل درس مثيرًا، من النظرة الأولى على الأقل. أرى قصة عن كليتها في أمريكا، وأخرى عن حبها الأول، وقصصًا أخرى يبدو أنها من أيام تدريسها في الجامعة. عنوان القصة الأخيرة هو ما يأسر نظري ولا يتركه. عنونتها ببساطة «الخاتمة».

تلفت الكلمة نظري لأنني سألتها من قبل عن معناها حين قابلتها في قصص عدة قرأناها معًا. شرحت لي أن الخاتمة في الغالب يستخدمها الكاتب ليخرج من القصة، ويتحدث إلى القارئ مباشرة عقب نهايتها، ليختم سرده. وأن الخاتمة هي لحظة بدء الكاتب شرحه ما حدث لشخصياته الأساسية بعد نهاية القصة. وتدعوها أيضًا *الفصل الأخير*.

أتردد في قراءتها الآن، ليس لما قد اكتشفه فحسب بل لدرس آخر نقشته سوبيب في رأسي بإصرار: *لا تقرئي النهاية أولًا أبدًا*.

كانت معلمتي تكره القرّاء الذين يقفزون إلى الفصل الأخير، يقرؤون النهاية، ثم يعودون إلى بداية القصص بابتسامات متعجرفة وخبيثة على وجوههم. ما زلت أسمع تحذيرها، كان أكثر من أمر بالفعل.

*يا فتاة، عدا القاموس، عليك فتح الكتاب من بدايته وقراءة القصة من أولها. إن وجدتها سيئة للغاية، ضعيها جانبًا فحسب وافتحي كتابًا آخر. ما لن أتسامح فيه هو القراءة بالعكس. لأنها ليست عدلًا لا للقارئ ولا للكاتب. إن كان المؤلف يريد قراءة قصته من الخلف إلى الأمام، لكتبها على هذا النحو!*

يراقب كي ترددي، لكن ليس لدي لا الوقت ولا الصبر لأشرح له. وليست لدي الطاقة العاطفية لقراءة كلماتها الأخيرة بصوت عال. أخبر الجميع أنني أفضل القراءة في سري. يبدون جميعًا متفهِّمين.

ثم، وبتهديداتها تتردد في رأسي، أعض على شفتي، وأعتذر لها في سري، وأقرأ. يتردد صدى صوتها في ذهني.

*أنتِ فتاة غبية رغم كل شيء!*

# الفصل الخامس والعشرون

## الخاتمة

## بقلم سوبيب سين

توجد حكاية كمبودية شعبية عن سوفان سون الذي تغويه امرأة لدخول الغابة، لكنه بدلًا من نيل مراده، يلدغه ثعبان ويموت بصمت.

إنها قصة كان عليَّ أنا وكمبوديا كلها الانتباه إليها أكثر.

في بداية عام 1975، كانت الحرب والاضطرابات الداخلية قد استمرت وقتًا طويلًا للغاية في الأقاليم المحيطة ببنوم بنه حدَ أنه في 17 أبريل من ذلك العام، حين انتصر جنود الخمير الحمر وساروا في الشوراع، هلل لهم حتى جنود الجيش المعادي. سعدنا جميعا بانتهاء الحرب فحسب، لحد لم يبد أحد مهتمًا من المنتصر. لم نفهم أن السلام مقابل أي ثمن صفقة خاسرة، رحبنا بأذرع مفتوحة باللا مبالاة، دعوناها على العشاء، أعطيناها مفاتيح غرفة الضيوف، ثم نمنا وهي تتسلل من خلفنا بهدوء لتذبحنا.

كنا نريد التغيير. لن يكون القائد الجديد أسوأ ممن سبقوه، لكنني اكتشفت هذا في ذلك اليوم تحديدًا.

أذاع الراديو أوامر حظر التجول، وأطاع الجميع. مع ذلك، لم أقلق. علمني التاريخ أن حكومة كمبوديا تتغير دائمًا. وهذه المرة لن يختلف شيء.

زوجي، سامنانغ لم يكن مطمئنًا. ومع أنه لم يكن مسؤولًا منتخَبًا، لكنه كان يعمل مع وزير التعليم مباشرة، ومن عائلة كبيرة لها علاقات سياسية عديدة. كانت هزيمة الجمهورية، وصعود نظام جديد، يعني أنه في الغالب سيفقد وظيفته. لكن علاقاته كانت تخدمه جيدًا دائمًا، ولم أشك في أنها ستظل كذلك.

لم نكن قد غادرنا البيت مدة ثلاثة أيام بسبب القصف الجوي المباشر للمدينة، وكنت على حافة الجنون. لذلك حين انتهى القصف، ولتشجيع العودة إلى الحياة العادية، أخذتُ سلة من خزانة المطبخ وأعلنتُ أنني سأقوم بزيارة سريعة إلى أخت سامنانغ، شاناري، لأرى كيف حالها. تردد سامنانغ في السماح لي بالذهاب وحدي، لكنه في الوقت نفسه، لم يرغب في تفويت أي أنباء قد يذيعها الراديو. كان صغيرنا نائمًا في غرفة النوم الخلفية، فأشار إلى الخادمة أن تصحبني.

وقال لنا: «انتبها جيدًا».

فأكدت له: «سنكون بخير».

لم يكن مساري محفوفًا بالأخطار كما قد يبدو. كنا نعيش في بيت حديث من ثلاثة طوابق في وسط المدينة بحديقة جميلة على سطحه كنت أزرع فيها زهور الرمدول واللوتس. وكان خلف البيت ممر طوبي ضيق متوارٍ عن المدخل الرئيس، ويصل عشرات البيوت من الحجم نفسه بما يشبه مدخلًا متنكرًا. أغلب تلك البيوت كانت لأقاربنا وأصدقائنا، ولم تكن طريقة هرب مناسبة فحسب في حال اقتضت الظروف، بل وآمنة وسهلة أيضًا.

كان بيت شاناري أبعد البيوت، لكنه على مسافة قصيرة. تركتُ الخادمة تحمل السلة وسرتُ أمامها، أتساءل طوال الطريق عن البيض.

كانت الحرب في الأقاليم المجاورة قد سببتْ مؤخرًا نزوح الكثير إلى المدينة بحثًا عن ملجأ. وسبب هذا نقص البضائع في السوق، وغلاء الأسعار بشكل جنوني. ذهبتُ إلى السوق مرتين بحثًا عن بيض وعدت في المرتين خالية الوفاض.

كانت أخت زوجي مثله تعرف الجميع. وقد ذكرت من قبل أن عائلة قريبة منا قد اشترت مئات عدة من الدجاجات وهي الآن تبيع البيض للأقارب. كانت واثقة من قدرتها على أن تأتيني بدزينتين أو ثلاث دون مشكلة.

بدت محقة، لأنني رأيت ونحن نقترب من خلفية بيتها، سلة ملأى بالبيض على الطاولة القريبة من المطبخ. مع ذلك، حين دخلنا، لم أجد أخت زوجي. صحتُ: «شاناري؟ شاناري؟».

لم يجبني أحد.

قالت الخادمة بقلق: «ظني أن علينا العودة».

فأجبتها: «لا شيء للقلق بشأنه».

لم أعرف عدد البيض الذي لي تحديدًا، فنقلتُ ثلاث دزينات إلى سلتي بحرص، وتركت ما بدا عددًا مساويًا، وكتبتُ لشاناري رسالة لأخبرها أنني جئت، ثم عدنا أدراجنا إلى البيت.

حملتْ الخادمة السلة وأنا أتقدمها مجددًا. حين دخلنا الممر الضيق، لقلقها، اهتزت السلة، فانكسرت بيضات عدة. غضبتُ بشدة وأخذت منها السلة قائلة: «فتاة غبية! انتبهي جيدًا. هذا البيض غالٍ».

ربما كان يجب أن أكون أكثر تفهمًا. كان مجرد بيض في نهاية الأمر. لكنني شعرت حينها بأن عليَّ تلقينها درسًا. كانت قد ظلت معنا عامًا تقريبًا دون أن تتعلم شيئًا. جاءت من قرية بعيدة، وبوصفه معروفًا لصديق مشترك، وافقتُ على بقائها معنا على حِسابنا. وكنت قد قررت تسريحها منذ أسبوعين، رغم الوقت الضائع بالفعل في تدريبها، لكنني، في ظل الحرب وحقيقة أن عليَّ البحث عن بديل مناسب، لم أجد الوقت المناسب لإخبارها. ربما شعرتْ بالتغيير قادمًا. لأنني قبل ذلك بأسبوع، كنت أؤكد عليها أن تكون أكثر انتباهًا وأن تتحمل مسؤولية تصرفاتها، فأحنت رأسها بأسف وقالت، «أنا آسفة، سأحاول أكثر، سأكون أفضل». كلمات... كلمات جوفاء. وكنت قد ضجرت.

حين وصلنا البيت، فتحت هي باب الباحة ودخلت أولًا. تبعتها، بحرص كي لا تسقط مني بيضات أخرى.

حين دخلنا الباحة سدد إلينا أربعة جنود خمير حمر بنادقهم وأمرونا بالتقدم. أحكمتُ قبضتي على السلة. كانت لحظة أُبطئ فيها الزمن، وبدا أن الحواس المشحوذة تلتقط وتسجل كل صورة وصوت.

دخلنا البيت، فوجدنا جنديين آخرين يوجهان ماسورتي بندقيتهما إلى رأسينا. وزوجي يجلس متخشبًا في مقعده. الجندي الواقف خلفه مجرد فتى يرتدي زيًا رسميًا أكبر منه. ومع أنه لم يكن سوى طفل، كانت الكراهية تشتعل في عينيه.

بدأتْ يداي ترتعشان، فاهتز البيض في السلة، وتأكدت أنه سينكسر كله. نظرتُ إلى سامنانغ. متجاهلة الماسورة الحديدية

التي قد تنهي وجوده في أي لحظة، تحرك بصره سريعًا في الغرفة، وعرفت أنه لا يزن سوء الموقف فحسب، بل يفكر في إمكانية الهرب أيضًا. تسارعتْ أنفاسي. هل لديه مخرج آمن بالفعل؟

ظللت دائمًا أؤكد على طلبتي ممن ليسوا أكبر من الجنود الصغار الذين يهددوننا بالموت، أن الكلمات لها قوة. «تُغير الحياة!» كنت أقول في محاضراتي. «الكلمات تطالب بالعدل، وتشجع الحرية، وتغير الآراء، وتليّن القلوب، وتنقذ الحياة».

ما لم أفهمه أن الكلمات رغم قوتها، أحيانًا ما يكون معناها متواريًا أو متنكرًا. كذلك لم أتوقع الكلمات التي سيقولها زوجي.

«سوريان، لا بأس. تعالي هنا. إن كنا سنموت، فسنموت معًا».

ونحن على حافة الهاوية، تحدث سامنانغ لكنه لم ينظر نحوي. بل نظر بتركيز إلى خادمتنا الريفية، سوبيب سين. ربما كانت فتاة خرقاء، لكنها لم تكن غبية. تحولت دهشتها في لحظة إلى فهم. فهمتْ ما يطلبه منها، ما يأمله.

نظرتْ إلي لحظة فحسب، كأنها تستأذنني. وحين تقابلت أعيننا، توقعت أن أرى انعكاس خوفي، لكن وجهها بدلًا من ذلك كان يشع بالثقة. في العادة، حين نتحدث تخفض بصرها في الأرض. لكن ليس اليوم، وتبادلتْ أعيننا الكلمات، بصمت: «أنا فتاة ريفية خرقاء، خادمة، خذلتك كثيرًا، لكنني اليوم سأُصلح كل شيء. سأجعل أسرتي فخورة بي، وسأجعلك فخورة بي. لا يهم ماذا سيحدث، لن أكسر البيض مجددًا اليوم».

ثم اتخذتْ قرارها دون استشارتي.

حين نادى سامنانغ مجددًا، أجابته بسرعة: «أنا قادمة». ثم سارت نحوه بهدوء وثقة، كأنها أميرة في قصر ملك.

عقد الجندي الواقف خلف سامنانغ حاجبيه بتساؤل ثم تبادل النظر مع جندي آخر، رئيسه ربما. لم تمنحهما سوبيب الفرصة للجدل الذهني. وقفت الفتاة التي كنت أوبخها منذ دقائق رافعة رأسها كامرأة مثقفة، وزوجة وأم وملكة.

في المقابل، وقفتُ أنا، معلمتها، جامدة أقبض بيأس على السلة التي تبقى فيها نصف البيض.

لو كانت سوبيب توقعت إطلاق النار عليها، فلم يبد عليها شيء. وظلت الأسلحة صامتة. أراد قلبي أن يقفز من صدري ويعترض، لكن إرادتي لاذت بخوف أخرس.

حين وقفت سوبيب بجانب زوجي، تجاهل تهديد السلاح لرأسه، ونهض بهدوء، وجذب سوبيب نحوه. بينما يفعل ذلك، تحول انتباه الجنود مني إليهما. أفلحت خطة زوجي، التي فهمها ذهني أخيرًا. وحين تأكد، وهو يُمسك بسوبيب، أن الجنود لن يروا تعبير وجهه، نظر خطفًا نحوي.

أكدت عيناه أن هذا أفضل حل، الحل الوحيد، وحملت نظرته الهادئة وداعًا صامتًا.

الكلمات لها قوة. كان باستطاعتي استخدامها لأصيح: «لا، هذا ليس صحيحًا. أنا سوريان. أنا زوجته. أنا أحمل سلة البيض لأن الخادمة خرقاء للغاية فحسب». لكنني، لجُبني، لم أقل شيئًا.

كذا كان بمقدورها هي الصياح. «لا تقتلوني. أنا سوبيب سين. لست سوى خادمة قروية. إنهما هما المتعلمان. إنهما هما من تريدونهما».

لكنها، لشجاعتها، لم تقل شيئًا.

ثم بووم!

أردت طلقة من سلاح الجندي الصغير سامنانغ قتيلًا، فتناثر الدم على أثاثنا، وضحك الجنود.

«لا!» صرختُ، فتحت فمي لأول مرة وتركت البيض يسقط متناثرًا على الأرض.

بووم! بووم!

ترنحت سوبيب، بطلقة في صدرها أولًا، ثم بأخرى خرقت رأسها أعلى أذنها مباشرة. سقط جسدها النحيل على جثة سامنانغ.

ثم بدأ صغيري، النائم في الغرفة الخلفية، يبكي.

استدار ستة الجنود جميعهم، مذهولين من الصوت غير المتوقع. حاولتُ التقدم خطوة لكن أحدهم أمسك بي من عنقي والآخرون يعدون أسلحتهم لإطلاق النار.

توسلت إليهم: «لا تقتلوا الطفل، سآخذه أنا».

توجه الجندي الأقرب إلى غرفة النوم نحو الصوت أولًا.

بووم! وسكت بكاء طفلي.

بصوت الطلقة الذي يصم الآذان بدأ جسدي كله يتشنج وتخرج منه أنفاس عميقة. وتقلصت الغرفة بجدرانها وسقفها، ومالت وتأرجحت. صرخ الجنود بأوامر، لكنني لم أفهم كلمة من صخبهم الغريب الخالي من معنى. ومع أنني حاولت البقاء واقفة، خرت ركبتاي وانهرت على بلاط الأرضية الصلب.

وتوسلت باكية: «اقضوا عليَّ الآن، أرجوكم، اقضوا عليّ الآن» لكن أحدًا لم يسمعني.

ولـو كانـوا قـد فهمـوا توسـلاتي، فلـم يكونـوا ليطيعونـي. لـم تكـن الأوامـر الصـادرة لهـم بقتـل الفلاحيـن أو القروييـن، بـل المتعلميـن فحسـب. وبالنسبة إليهم، كان الفـرد الوحيـد الباقـي علـى قيـد الحيـاة فـي بيتـي ذلـك اليـوم خادمـة قرويـة خرقـاء.. كنـت بالنسـبة إليهـم سـوبيب سين، لذلـك صـرت بالفعـل سـوبيب سـين.

بعـد ذلـك بيوميـن، سـرت خـارج المدينـة مـع مئـات الآلاف مـن النازحيـن. حيـث سـنخدم المجتمـع الجديـد فـي المـزارع. أسـكنوني فـي قريـة خـوم سـبيو حيـث انضممـت إلـى مجموعـة تـزرع الأرز. كان الخميـر الحمـر يُعيـدون كمبوديـا إلـى عهدهـا الأفضـل، قبـل أن تفسِـد الثقافـةُ الغربيـةُ المجتمـعَ، حيـن كانـت الزراعـة مزدهـرة والعمـال يحكمـون، وكانـوا ينفـذون هـذا بالقـوة.

قـرأت مقـالات تصـف جرائـم الإبـادة الجماعيـة البشـعة التـي ارتكبتهـا الثـورة الثقافيـة الصينيـة. وألقيـت محاضـرات عـن الأدب اليهـودي ووصفـه جرائـم هتلـر. كنـت قـد قـرأت الكلمـات بذهنـي، لكننـي لـم أفهمهـا بعمـق قلبـي، حتـى شـهدتها. أدركـت بعـد ذلـك فقـط أنـه لا توجـد كلمـات بالقـوة الكافيـة، ولا فقـرات بالسـعة الكافيـة، ولا كتـب بالعمـق الكافـي لوصـف الوطـأة الحقيقيـة لحـزن البشـر.

كنـت أتوقـع المـوت كل يـوم. كانـوا يحـددون «خونـة المجتمـع»، ويشـحنونهم، ويقتلونهـم. لأنـه رغـم كل شـيء، فـي كمبوديـا الجديـدة، فـي المجتمـع المثالـي للخميـر الحمـر، لا داعـي للمتعلميـن، لا داعـي لا لأطبـاء، ولا محاميـن، ولا ميكانيكييـن، ولا مهندسـين، ولا سـائقين، ولا تجـار، ولا طلبـة، وبالطبـع ولا مدرسـين.

شاهدتُ أطفالًا يموتون جوعًا، وكهولًا يُبرَحون ضربًا بالهراوات حتى الموت. كان يشار إلى عائلات كاملة بعدّهم خونة ويُقتلون لأن أحد أقاربهم من بعيد ذهب إلى أمريكا من قبل.

كان جنونًا تامًا.

بعد ذلك بأربع سنوات أسقط الجيش الفيتنامي ذلك النظام، كان أكثر من مليون شخص بريء قد قُتلوا بوحشية. ومن ظل منا على قيد الحياة حمل ألمًا أفظع من القتل.

في النهاية شققت طريقي عائدة إلى المدينة، لكن كل شيء كان مختلفًا. هدموا بيتي في بنوم بنه، تشردتُ بشكل لم أتخيله. عشت في الشوارع تقريبًا، آمل الشفاء أحيانًا، لكنني في الغالب أشرب لأنسى.

ثم في عام 1995، وجدت طريقي إلى نهر ستونغ مانشي، فألقيت بنفسي فيه... شعرت بأنه مكان متسامح، ومريح حتى، كمستقر للأشياء القديمة، والمهمَلة، والعفِنة حتى، لينتهي فيه وجودها، حتى وإن كنت أنا أحدها. ومع أنني ظللت سوبيب سين، لكنني اخترت ألا أنظر خلفي أبدًا. أقسمتُ على الصمت وتركت قصتي تذوب مع قصص الآخرين، مأساة يشوبها العار ولا داعي لمشاركتها.

ثم جاءت فتاة قروية خرقاء أخرى لتذكرني بأن المآسي تقدم دروسًا جديرة بالتكرار.

انتبهي جيدًا إلى درسي الأخير يا سانغ لي.

كان بإمكاني إنقاذ حياة سوبيب سين، خادمتي، لكنني وقفتُ خرساء. وظللت أدفع ثمن هذا منذ ذلك الحين. انتبهي جيدًا إلى اختياراتك. ستواجهين عواقبها الجيدة والسيئة.

وهذا وداعي الأخير يا سانغ لي.

من معلمتك،

سوبيب سين.

«لا!» أصرخ وأنا أنهي قراءة كلمات سوبيب الأخيرة. «أنت مخطئة! هذا ليس درسًا. هذا *ليس* الدرس!».

أمسح خدي بكمي. أصابعي ترتعش. يندفع كي نحوي من خلف البيت، يقف ولا يسعه سوى أن ينتظر توضيحي.

أصيح فيه: «اسمها ليس سوبيب سين»، وأهز رأسي غير مصدقة. أكرر الكلمات مجددًا، كأن تكرارها سيوضح شيئًا إضافيًا لكل من يستمع الآن: «اسمها سوريان، ليس سوبيب سين».

تميل تيفا ماو برأسها وهي تحاول فهم صياحي.

فأضيف: «كانت سوبيب سين خادمتها».

فيسأل كي: «خادمتها؟ ماذا يعني هذا؟».

أقول بحزم شديد: «يعني أن علينا إيجادها قبل فوات الأوان. إنها معلمة لكنها لا تفهم درسها الخاص حتى. علينا إيجادها! هل ستساعدني؟».

# الفصل السادس والعشرون

مع علمي أن اسم معلمتي سوريان، أظل أدعوها سوبيب سين. لأنه لا يناسبها فحسب، بل ويصعب للغاية شرح الموقف للآخرين الذين لن يفهموا.

تتطوع أمي للبحث عنها في بيتها مجددًا. تعود لتعلن أن لا أحد هناك وأن الجيران يؤكدون أنهم رأوها وهي ترحل. لا عجب. أواصل قراءات المقالات، رغم إجهاد عينيّ، وعندما تغرب الشمس، لا أكون متأكدة أن بإمكاني المواصلة بضوء المصباح. القصص ممتعة وتنويرية، مع أنها ليست كلها سعيدة. بعضها يضحكني، وأخرى على حدود المأساة، لكنها كلها تحمل دروسًا مهمة، أدبًا رفيعًا. عدد منها برسائل واضحة، وأغلبها يكمن تحت طبقات عميقة، كالعهد دائمًا بسوبيب.

توجد قصة عن العام الأول لزواجها تجعلني أبتسم. كانت تتسابق في النهوض من الفراش كل صباح مع زوجها كي لا تكون آخر من ينهض من الفراش، لأنهما اتفقا على أن من ينهض أخيرًا عليه تسوية الفراش، أتعلم منها تقدير المحبة.

قصة أخرى عن شريكة سكن عاشت معها في الجامعة في بوسطن. أعدت هي وأخواتها لحافًا لجدتها بمناسبة عيد ميلادها الخامس والتسعين، فتفاجأت الجدة بشدة حدَ أن داهمتها أزمة قلبية وماتت، أتعلم منها السخرية.

قصة أخرى عن والدين معدمين قايضا طفلًا لا يمكنهما إطعامه بدراجة هوائية، ليمكن للأب الذهاب بها إلى عمله. مع ذلك، يؤول الأمر بكل من الطفل والدراجة في المكب. دعت الطفل محظوظًا، ولا تسعني سوى الدهشة.

توجد قصيدة بلا عنوان تخبرني عن الألم وعن عفوية الشعر في رؤيته ما في داخل نفوسنا.

****

أصيح في وجه ضعفي في الظلام، بقرف صامت.

أحمل فشلي كل نهار، لأخفيه خلف جدار منيع لم يره أحد من قبل.

أذرف دموع العار في هدأة الظهيرة لتنسال على شفتي، ولا يتذوقها سواي.

أتنفس دخان اليأس، وتعينني رائحة أنانيتي القذرة.

أتضرع إلى السماء، أتوسل عزاءها، معجزة لجبر قلبي الكسير.

ولا تمتد يد سماوية لتزيل عني ألمي.

لا نور يبدد حزني

لا صوت يجيبني.

بل تستوقفني فتاة قروية وتطلب مني تعليمها القراءة.

للأجداد طريقة مضحكة للغاية في المزاح.

****

مع أن القصص مأساوية، ومؤثرة وتنويرية، لا تخبرني واحدة منها أين قد تكون معلمتي. ثم تمر بي ابنة خالتي نارين قبل الغروب بقليل. سمعت وهي عند المظلات أن الأصدقاء قد

تجمعوا لمساعدتنا على الاستقرار وتريد أن تعرف كيف تساعد. حين أراها، يربط ذهني المنهك الأمرين.

«بالطبع!» أقول بصوت عال وأنا أتذكر صديقتها مكارا، التي تعمل أختها في المستشفى الذي تتلقى فيه سوبيب العلاج. «إن كانت مريضة، فستذهب إلى المستشفى بالتأكيد».

إن غادرنا الآن، قد يكون أمامنا وقت. يومئ كي موافقًا، ثم يعد نقودًا كافية لدفع أجرة التوك توك. أغادر أنا ونارين، على أمل أن نجد سوبيب على قيد الحياة تشكو من الممرضات.

ليس المستشفى الذي أخذت إليه نيساي، لكنه مزدحم ويجري فيه العمل على قدم وساق بالقدر نفسه. غرف الانتظار ملأى بوجوه مختلفة ومتشابهة في القلق والحزن واليأس. تتصل موظفة الاستقبال بأخت مكارا، وخلال دقائق قليلة، تأتي مسرعة. تبدو سعيدة لرؤية نارين، لكن لا يمكنها التحدث وقتًا طويلًا. بعد المقدمات اللائقة، أسألها فورًا: «هل رأيتِ سوبيب سين، المرأة التي كانت تُعالج هنا من المكب؟».

«سوبيب؟ لم أرها منذ أسابيع عدة».

«ألم تكن تأتي إلى هنا للعلاج؟».

«بلى، لكنها توقفت... منذ مدة طويلة».

«توقفت؟». أسأل مذهولة. «لماذا توقفت؟».

«قالت إن الأدوية تجعلها ضعيفة جدًا، وعصبية، وتشوش تفكيرها. قالت إنها تعجز عن فعل أشياء يجب عليها فعلها. لا يمكننا علاج أحد بالإكراه».

«لا أفهم»، أقول وذهني يحاول جمع القطع معًا. «سؤال أخير»، أتوسل إليها، مع أن إجابته ليست لها علاقة بأملي في إيجاد سوبيب. «لو كانت قد واصلت العلاج، هل كان سيفيدها؟».

سكتت لتفكر، ثم أبدت رأيها الطبي المتواضع. «في كمبوديا... لا. إلا إذا قررت أن تذهب إلى تايلاند، ربما هناك».

«تايلاند؟». أسألها.

«نعم، ألم تخبرك؟ يوجد هناك مستشفى تعليمي أجنبي يقدم علاجات تجريبية لكنها واعدة. لكنها رفضتها، للأسباب نفسها».

****

بدأ الأفق الشرقي يتوهج في انتظار شمس تستجمع شجاعتها لتظهر وتبدأ يومًا آخر في ستونغ مانشي. في منتصف الطريق إلى بيت سوبيب، أتوقف فجأة. وأقول لكي: «انتظر، نسيت حقيبتي، لأحمل الكتب».

فيسألني: «أي كتب؟».

«في خطابها... ألم أخبرك؟ تركت لي بعض الكتب».

يرفع كتفيه قائلًا ببساطة: «إن وجدناها كثيرة، يمكننا العودة فيما بعد».

حين نصل، يؤكد كي لي أنها قطعًا ليست في الداخل.

«كيف تعرف؟».

«انظري إلى القفل. إنه مقفل من الخارج».

أطرق الباب في جميع الأحوال وأنتظر. لا أحد يجيب.

عمليًا، لا تعيش سوبيب في ستونغ مانشي، على الأقل ليس في البيوت المحيطة به. بل يقع بيتها في شارع جانبي ضيق

متاخم لستونغ مانشي. لا أتذكر كيف عرفت أي البيوت بيتها، إذ لم تدعني إليه قط. يبدو أنه مكون من غرفتين، جدران صلبة، وسقف بسطحين مائلين. الفتحات مغلقة بإحكام، أكثر ما أحسدها عليه، مع ذلك، هو قفل بابها الأمامي. لكنه، في عالم حيث كل شيء يعني شيئًا ما، أتذكر أنها هي الأخرى مثل بيتها لم تسمح لسوى قلة قليلة بالدخول.

أطرق بقوة، بصوت عال بما يكفي ليخرج جار من البيت المجاور ويبدو منزعجًا. «إنها ليست في البيت»، يقول مؤكدًا أمرًا واقعًا.

فأسأله: «هل تعرف أين ذهبت أو متى ستعود؟».

«لا». يقول ويلوي رأسه ويختفي.

أُسرِع إلى جانب البيت وأركع أمام جرة الماء. تصل أصابعي لحلقة مفاتيح صدئة فيها مفتاح واحد. أرى الجار يختلس النظر من فتحة نافذة فأدير ظهري له. لا أعبأ به وأسرع إلى الباب وأدس المفتاح في القفل. يُفتح بتكة.

«هل أنت مستعد؟». أسأل كي. فيجيبني برفع كتفيه. أدفع الباب الأمامي وأدع النور الذي يغمر المكب الآن يتدفق إلى الداخل وينير الغرفة.

«سوبيب؟». أصيح، وأنا أعرف أنني لن أسمع ردًا.

أنظر حولي، فيسقط فكي ويهوي قلبي. أمد يدي لأتأكد باللمس ما تحاول عيناي تسجيله. كل جدار في الغرفة مكدس بالكتب، مئات الكتب.

توجد مرتبة نوم مفردة عند أحد الجدران. وعلى الجانب الآخر من الغرفة موقد للطهو أسود وكئيب، لكنه من النوع الحديث بمدخنة أعلاه لطرد الدخان في الخارج. بجواره خزانة مطبخ قديمة بباب نصف مفتوح. أرى داخلها أرزًا، وطبق خضراوات قديمة، وزجاجة زيت طهو، وأدوات طهو. في الجهة المقابلة للموقد، يوجد مكتب صغير بكرسي مدفوعًا أسفله.

أينما وقفت في الغرفة، أنا قريبة بما يكفي لأمد يدي إلى الكتب. أميل لأنظر في أقرب العناوين. بعضها بالإنجليزية، وأغلبها مترجمة إلى الخمير. أسحب كتابًا بشكل عشوائي وأفتحه. *فروفونغ وسوريفونغ*، أسطورة شعبية كمبودية. نسخة كتبها أوجست بافي.

كتاب آخر. بالإنجليزية، لكن خط يد سوبيب بالخمير بين كل السطور، أنظر في الغلاف لكن العنوان غير واضح.

يسألني كي: «عمَّ هذا؟».

«ليست لدي فكرة».

آخذ كتابًا آخر مطبوعًا بالخمير، اسم المترجم بخط أكبر من اسم الكاتب، أمريكي يُدعى شتاينبك.

أواصل قراءة العناوين فأجد قصصًا كمبودية وروسية وصينية وأفريقية وقصصًا من بلدان لم أسمعها بها.

«يبدو أنّكِ لم تتخلي عن الأدب إطلاقًا». أعلن.

يقول كي: «إن كانت هذه الكتب التي تركتها لكِ، فنحن لسنا بحاجة إلى حقيبة أكبر فحسب، بل إلى بيت أكبر أيضًا».

أحول انتباهي في الغرفة من الكتب إلى أي شيء آخر قد يمنحني خيطًا لمكانها. أقترب من المكتب الصغير الذي عليه رزمة ورق كبيرة مفتوحة، وكوب ممتلئ بالأقلام، وقائمة مكتوبة بخط اليد بأسماء اثنتي عشرة أسرة، من بينها أسرتنا.

يسألني كي: «ما هذه؟».

«إنها قائمة بأسماء من تجمع منهم الإيجار. اسمنا في آخرها».

حينها يخطر لكي الأمر لأول مرة: «إن كانت قد ذهبت، فمن الذي سيجمع الإيجار؟».

«من حقًا؟».

نبحث في المكان وقتًا أطول قبل أن يستسلم ويسألني: «ماذا نفعل الآن؟».

فأجيبه: «لنبدأ بالجيران، ثم بكل من في القائمة».

ولعلمي أن الجار الذي رأيته منذ قليل لن يساعدنا، أبدأ بالجار على الجهة المقابلة. أنادي فتخرج سيدة في أواسط العمر وتحيينا قائلة: «صباح الخير»، كأننا أصدقاؤها.

فأجيبها: «صباح الخير، أنا أبحث عن سوبيب سين، جارتك. هل رأيتِها؟».

تهز رأسها بحزن وتقول: «إنها مريضة. لم تكن بخير. أظن أنها سافرت للعلاج».

«متى؟ متى غادرت؟».

«منذ أيام قليلة».

«هل تعرفين إلى أين ذهبت؟».

«لا ...لا، لم تكن تتحدث كثيرًا». ثم تلمع عيناها فجأة، كأنها عرفت التوّة سرًا من أسرار الكون، وتضيف: «كانت أكثر ودًا مؤخرًا».

ومع احترامي لرأيها، كنت آمل شيئًا ما أكبر. نحاول مع بيوت قريبة أخرى ونفشل معها جميعًا. بلا خيوط ملموسة تدلنا على مكانها، أو حتى إن كانت على قيد الحياة أم لا، نقرر العودة إلى بيتنا لأواصل قراءة مقالاتها. نقطع نصف الطريق ثم يسأل كي سؤالًا فضوليًا.

«لو كانت قد ماتت ولن نراها مجددًا أبدًا...».

«كي، لا تقل هذا!».

«لا، اسمعيني. لو كانت قد ماتت، ألن يرسل أصحاب الأرض شخصًا جديدًا لجمع الإيجار؟».

يزعجني سؤاله، فأسأله: «هل علينا أن نقلق بشأن هذا الآن؟».

فيجيبني: «أنتِ لا تفهمينني، ربما كان السبيل لإيجادها هو الوصول إلى أصحاب الأرض».

لا أقصد الصياح بصوت رفيع مثل الخنازير التي يربيها الجيران في المكب، لكنني أفعل وأقول: «قد تكون محقًا. أين قد نجدهم؟». ثم قبل أن يجيبني، أجيب أنا عن سؤالي: «تيفا ستعرف، أسرع، هيا».

# الفصل السابع والعشرون

تقع وزارة الأراضي والسجلات في جادة نوردوم بالقرب من سفارة سنغافورة، تمامًا كما وصفت تيفا. مبنى حديث من ثلاثة طوابق بسقف من القرميد الأحمر وجدران خارجية من الجص الأبيض. تخفيه الأشجار جزئيًا عن الطريق، لكننا حين نقترب أجد البوابة مفتوحة، وهناك مشكلة واحدة، يوجد حارس بزي رسمي يجب أن يمر به كل من يريد الدخول.

أخبر كي بأن يعلن هو غرضنا، بأمل أن يبدو أكثر رسمية.

يسأل الحارس: «هل يمكنني مساعدتكما؟».

«نحن هنا لنبحث عن ملكية بيوت عدة»، يقول كي بثقة شديدة حدَ أني أريد أن أعانقه، لكنني لا أفعل. لا بد أننا اجتزنا الاختبار لأن الحارس يشير لنا نحو مدخل المبنى.

الأرضية الرخامية في الداخل نظيفة وممسوحة. أنظر إلى ملابسنا القذرة الرثة، فيؤكد لي التناقض على وعيي بذاتي. ينتظرنا حارس آخر، هذه المرة خلف مكتب استعلامات لمزيد من الفحص للداخلين.

«هل أساعدكما في شيء؟».

«نبحث عن قسم السجلات»، يقول كي، لكنه حين ينطق الاسم، أدرك أنه قاله بشكل خاطئ. يجب أن يكون قسم الأراضي والسجلات. في جميع الأحوال، يومئ لنا الحارس الآخر. للأسف ليست إيماءة سأساعدكما، بل إيماءة سوف أبعدكما من هنا أيها

الفلاحان، ثم ألاحظ اللافتة المعلقة خلفه مكتوبًا عليها بوضوح الأراضي والسجلات وتشير للزوار إلى سلم بعيد.

«ليس مهمًا»، أقول وأنا أشير إلى اللافتة. «أرى أنه في الطابق الثاني».

يتوقف عن إيماءته ويشير هو الآخر إلى السلم.

نجد المكتب الذي آمل أن يكون مكانًا أكثر ودًا. يقف في الغرفة رجل وحيد خلف منضدة طويلة. لا يرتدي زيًا رسميًا. يدعني كي أتحدث حين ندخل.

فأقول للرجل: «نحن هنا لنبحث عن أسماء ملاك أراضٍ، ليس ملاك البيت الذي نسكنه فحسب، بل لجيران قليلين آخرين».

«جئتما إلى المكان الصحيح إذًا»، يقول بتلويحة مطمئنة من يده.

أتنهد بارتياح وأقول: «رائع».

يسألني: «أين تسكنان؟».

في المناطق النائية في كمبوديا، وكذلك في نطاق المكب، توجد عناوين رسمية قليلة. وفي حين توجد عناوين رسمية مسجلة في مكان ما، لكن أغلب البيوت تُحدد وتُوصف إما بأسماء قاطنيها وإما بوصف مادي للأرض والمبنى نفسه.

فأقول بداية: «نحن نعيش في مكب ستونغ مانشي».

يسأل: «المكب؟». ويرمقنا بنظرة يصعب تفسيرها. «هل يوجد بيع هناك؟».

ليست لدي أدنى فكرة ماذا يقصد فأتجاهل تعليقه وأواصل قائلة: «بيتنا على الجانب الشمالي الشرقي، حيث الأرض أعلى،

أعلى برك المياه في الطريق المؤدي جنوبًا، على مسافة مئات يارادات عدة من حيث تدخل ماسورة المياه بجانب المبنى ذي السطح الأزرق الفاقع».

ثم أعطيه قائمة المستأجرين التي وجدناها في بيت سوبيب. «وهؤلاء هم المستأجرون. أصف كل مسكن».

يدقق النظر في الورقة قبل أن يهتم فجأة بمن يستفسر. ينظر إلي أولًا من أعلى إلى أسفل، ثم إلى كي ليم.

يقول بصرامة كأننا ارتكبنا خطأً ما: «انتظرا هنا من فضلكما»، ثم يتوجه إلى مكتب آخر. نسمع أصواتًا، شخصان يتحدثان، فأنظر إلى كي، أتساءل إن كان علينا الركض فورًا، مع أنني لا أعرف لماذا. يجيبني كي برفع كتفيه.

حين يعود الرجل ليقف خلف المنضدة يحمل ورقة أخرى يضعها على سطح المنضدة أمامي. النسختان متطابقتان، النسخة الأخرى بخط يد سوبيب سين أيضًا. يقول: «أحضرت امرأة هذه القائمة منذ شهر تقريبًا، ثم عادت مرتين بمعلومات إضافية كانت مطلوبة. أتذكرها جيدًا. كانت مريضة، لدي اسمها هنا...»

أسأله: «مريضة؟».

يجيبني: «نعم. ليست بصحة جيدة بالتأكيد.. ها هو ذا: سوبيب سين» يقول متأكدًا، فأقول له: «إنها جامعة الإيجار. هل قالت إلى أين ستذهب؟».

يرفع كتفيه قائلًا: «آسف، لم تقل شيئًا، ولا أعرف شيئًا عن شأنها بجمع الإيجار. لا أعرف سوى أنها هي صاحبة الأرض».

يستغرق ذهني دقيقة لاستيعاب ما قاله ثم أسأله: «هل قلت صاحبة الأرض؟».

يقول: «نعم»، وينقر بإصبعه على القائمة على المنضدة. مضيفًا: «حسنًا، حتى باعتها، هذا هو الأمر. عمليًا، هي ليست كذلك الآن».

جئت لأصل إلى إجابات، فوجدت المزيد من الأسئلة بدلًا من ذلك. لماذا أخفت حقيقة أنها المالكة؟ والأهم من هذا، إن كانت تملك كل هذا، لماذا ظلت تعيش في المكب؟

أقول للرجل: «معذرة، هل يمكنك إخباري بأسماء الملاك الجدد؟».

فيجيبني: «نعم، إنها سجلات عامة. عدا أن نقل الملكية هذا حديث للغاية، فلم تُسجّل وثائقه بعد. لذلك فهي في ملف مختلف. انتظري من فضلك».

يذهب إلى المكتب الآخر مجددًا وأسمع أصواتًا مجددًا. ثم يعود حاملًا أوراقًا ويقول: «نقلت ملكية الاثني عشر بيتًا إلى شخص واحد، مع ذلك يجب مرور خمسة عشر يومًا قبل أن يُسجل كل شيء بشكل رسمي». ثم يكتب اسم جامع الإيجار الجديد وعنوانه ويعطيني الورقة.

أحدق إلى الاسم، شيندا لاي سين.

يتذكر شيئًا ونحن نهمّ بالانصراف. يقلب في الملف ويقول: «هذا صحيح. يوجد بيت واحد ليس في قائمتك». يظل يبحث في ملفه حتى يجد الورقة التي يريدها. ويقول: «ها هي ذي». يقرأ العنوان، لكن حين أرفع كتفي بمعنى أنه لا يعني لي شيئًا، يتجه نحو خزانة طويلة ويخرج منها مخططًا جويًا للمكب. لم تسبق لي رؤية المكب من منظور الطائر هذا، وأجده مذهلًا.

أستغرق دقيقة لكنني في النهاية أحدد علامات مميزة عدة. يشير إلى البيت المقصود. إنه بيت سوبيب. ليس في قائمتها لأنها ليست بحاجة إلى جمع الإيجار من نفسها. يمسك الرجل بأوراقه، يُخفض نظارة القراءة خاصته، وينظر في القائمة مجددًا. ويقول: «نعم... هذا البيت الأخير مختلف. خلال خمسة عشر يومًا، حين تُسجل الوثائق، ستنتقل ملكيته إلى... لنرى، كي ليم وسانغ لي».

***

بيت المالك الجديد عند تخوم المدينة، بعيدًا بما يكفي لأستقل توك توك إلى هناك. كنت من قبل أخشى قطع تلك المسافة وحدي، لكن ليس الآن. كنت قلقة بشأن النقود لكن كي ذكّرني أن من الواضح أننا لن نضطر إلى دفع الإيجار مجددًا. وأضاف أيضًا أنني لو وجدت سوبيب -عزيزتنا سوبيب- فهو يريدني أن أقدم لها جزيل شكره واعتذاره.

الآن وأنا أقف أمام البيت، بإصبعي على جرس بوابته، أتردد في الضغط عليه. لدي حدس بخصوص من يسكن هنا، لكنني لست متأكدة. ماذا سأقول؟ كيف أبدأ؟ آخذ نفسًا عميقًا دون أن أجيب وأضغط الجرس.

أسمع ضجة بعيدة، ثم يُفتح باب البيت في الداخل، على مسافة أقدام عدة من البوابة. تخرج امرأة أنيقة في أواسط العمر لترى من القادم. من نظرتها لي أتأكد أنها ستعدني متسولة. لكنني أرفع ذقني وأنتظر اقترابها مني.

تقول، وهي على مسافة: «نعم، كيف أساعدك؟».

البداية جزء مهم جدًا من القصة. فأجيبها بثقة ما أمكنني: «صباح الخير. اسمي سانغ لي وأنا أبحث عن أسرة فتاة كانت تعمل في المدينة خادمةً، منذ سنوات طويلة، قبل الثورة. كان اسمها...» ثم أسكت مطولًا عمدًا، لأدرس رد فعلها، لأعرف إن كنت في البيت الصحيح أم لا.

تميل إلى الأمام، وتقترب خطوة بالفعل. تعبيرها الآن لا مبالاة ممتزجة بالشك. عيناها ضيقتان. تتململ في وقفتها. ينخفض ذقنها بقدر ضئيل للغاية وذهنها يكنس ذكريات بعيدة عن أوقات عصيبة. ثم أرى فمها يشكل صوتًا بالفعل، يردد اسم الفتاة الذي لم أذكره. وأسمع إجابة سؤالي قبل أن أسأله حتى.

أكرر قائلة: «كان اسمها سوبيب سين. هل تعرفينها؟».

تلتفت خلفها، كأن شخصًا آخر في البيت قد يسمع حوارنا، ثم تضغط زرًا يفتح البوابة الفاصلة بيننا. ثم تشير بيدها لتدعوني إلى الدخول وتقول: «تفضلي أرجوكِ».

تشير إلى بهو في الداخل بعد الباب الرئيس مباشرة، ندخل ونجلس. من الواضح أنها تريد التعامل بأدب، لكنها يجب أن تعرف فورًا من أنا وما الأنباء التي جئت بها عن ابنتهم المفقودة منذ وقت طويل. قبل أن أقول شيئًا، تقترب مني وتهمس، «كانت لدي أخت اسمها سوبيب، لكننا فقدنا الاتصال بها في أثناء الثورة. أرجوكِ أخبريني، هل لديكِ معلومات عنها؟ هل ما زالت على قيد الحياة؟».

أجيبها قائلة: «قبل أن أقول أي شيء أريد أن أتأكد أننا نتحدث عن الشخص نفسه. هل كانت أختك تعمل خادمة حين اندلعت الثورة؟».

«نعم»، تجيبني بحزن وما زالت تنتظر إجابات.

«هل كانت تعمل عند معلمة؟».

«معلمة؟ نعم».

«وزوج المعلمة، هل كان يعمل مع الحكومة؟».

«نعم، بالفعل». يزداد التوقع في صوتها مع كل إجابة، وكذا الدموع في مقلتيها. فتمد يدها وتمسك بيدي.

أسألها: «هل تعرفين أن المعلمة كان اسمها سوريان؟».

تجيبني: «نعم، كان اسم المعلمة سوريان سونغ. الفتاة التي تقصدينها، الخادمة، سوبيب سين... إنها شقيقتي الكبرى».

ثم تتدفق قصتها، كسد ينهار بعد أن لم يعد يحتمل الصمود أكثر من ذلك، ولا يُمكنها وقفه. تقول:

«اسمي راثانا. لم ترغب أختي سوبيب في الرحيل، لكن أبي شجعها. قال لها إنها تمثل الأسرة، وإن عليها العمل بكد لتشريفنا. لكن الحقيقة أننا كنا فقراء. لم يستطع إيجاد عمل وكنا بحاجة ماسة إلى نقود.

حين اندلعت الثورة في البلد، تفرقت في الفوضى أسر كثيرة مثل أسرتنا. عانى أبي بشدة. حاولنا العثور على سوبيب، لكننا حينها كنا في الأقاليم بعيدًا عن المدينة، وكان الخمير الحمر يمنعون الاقتراب. حين انتهى العنف، ذهب والداي إلى المدينة للبحث عنها. كان البيت الذي تعمل فيه محترقًا، مهدّمًا تمامًا. وجدا عملًا هناك وسرعان ما أرسلا إلينا لننضم إليهما. واصلنا البحث والاستفسار، لكننا لم نجدها. تقدمنا للحكومة الجديدة بطلب معلومات عنها، وللأسف، عرفنا أن أسرتنا ليست الوحيدة التي فقدت فردًا بسبب

الصراعات، بل يوجد الآلاف، وعشرات الآلاف ربما. كنا من حين إلى آخر نسمع معلومات عابرة عن كونها ما زالت على قيد الحياة، وفي أوقات أخرى، نسمع أنها ميتة. تمزقت قلوبنا، خاصة أبي، ثم بدأت تظهر الطرود. فراوده الأمل».

أسألها: «طرود؟».

تجيبني: «نعم، بدأت منذ سنوات عديدة. ذات يوم وجدنا صندوقًا عند عتبة بابنا، ودهشنا حين فتحناه ووجدنا نقودًا، آلافًا عدة من الريالات. لا رسالة، بل لفة نقود مربوطة بحرص. كنا متأكدين أنه خطأ ما، وأردنا أن نرسلها إلى مكانها الصحيح، لكننا لم نعرف إلى أين. ثم في الشهر التالي، تكرر الأمر مجددًا».

«وهل استمر؟».

«كل شهر تقريبًا. من حين إلى آخر، كان يمر شهر بلا طرد. ثم مؤخرًا، بدأ يصلنا ضعف المبلغ كل شهر. كان أبي مقتنعًا أنها من سوبيب سين، لكنني لم أجد هذا معقولًا. لو كانت ما زالت على قيد الحياة لعادت إلى البيت بالتأكيد. قال أبي إنها ربما تشعر بخجل من شيء ما حدث في أثناء الحرب، من النوع الذي يحدث في الصراعات. بالطبع لم يكن أحد متأكدًا من شيء».

«هل حاولتم اكتشاف من الذي يرسل النقود؟».

«نعم. لدي ثلاثة أشقاء أقوياء. انتظرنا طويلًا، وقضينا ليالي بلا نوم، لأنه كان يصل في أوقات غريبة في منتصف الليل حتى».

«من؟».

«كان الذي يوصلها فتى صغير، في الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة ربما. أمسكنا به، بالطبع، واعترف بأنه يوصلها بناءً على

أوامر من امرأة، وزعم أنها لم تخبره باسمها قط. لم أصدقه. سألته مباشرة إن كانت النقود من سوبيب سين، لم يطرف حتى، لكنه قال إننا لو واصلنا التدخل، فستتوقف الطرود. كان ساخطًا لأننا أمسكنا به، وأصر على ألا تعرف المرأة أبدًا».

«لكن هل حاولتم... البحث عنها؟».

«في الشهر التالي مباشرة تتبعته، بهدوء ومن بعيد. كان عليّ أن أعرف إن كانت أختي على قيد الحياة أم لا، من أجل أبي. لم تكن صحته جيدة. فتتبعت الفتى إلى مكب ستونغ مانشي. هل تعرفينه؟

أجبتها: «نعم، أعرفه».

«كان تتبعه في المدينة سهلًا، لكن في المكب كان صعبًا. المكان هناك خطر، وكان عليَّ الاقتراب كي لا أفقد أثره. ظني أنه لاحظني لأنه ظل ينعطف ويعبر دروبًا حتى فقدته. مع ذلك، عدت إلى هناك مرات عدة. كنت أقف في الخلف، بعيدًا تمامًا عن الناس أبحث عن أختي سوبيب. كنت أرى الفتى، لكنني لم أرها قط. بعد شهور عدة، قررت أنها ليست هناك وتوقفت عن البحث. ثم عادت الطرود تصلنا بشركة خدمة توصيل، واحدة في المدينة».

«فهمتُ».

تتبعتُ الشركة أيضًا، لكنني وصلت إلى مكاتبها فحسب. جلست في الشارع هناك، في مقهى، كل يوم تقريبًا طوال شهر، على أمل أن أرى سوبيب تحضر الطرد، لكنني لم أرها. لم أجدها هناك أيضًا».

«آسفة».

تقول: «لذلك أرجوكِ،»، وتسكت قليلًا ثم تضيف: «الآن بعد أن أخبرتك بقصتي كلها، أتوسل إليك، هل لديكِ أخبار من سوبيب؟».

أتذكر أن سوبيب -التي أعرفها أنا- قالت ذات مرة إن الأخبار السيئة، خلافًا لنبيذ الأرز، لا تتحسّن بمرور الزمن. عن نفسي لا أشرب، لكنني في هذه اللحظة، ظني أن بودي تجربة القليل.

أقول لها: «يؤسفني أن أخبرك، بعد سنوات كثيرة للغاية، لكن أختك، سوبيب سين، الخادمة، قُتلت على يد جنود الخمير الحمر في بداية الثورة».

تخفض رأسها. أفعل مثلها، أشعر بالذنب نحو أملها. ثم تسألني: «أأنتِ متأكدة؟».

أومئ لها أنني كذلك وأضيف: «يوجد المزيد الذي أود إخباركم به، لكن قبلًا، هل إخوتك في البيت؟ لأنها قصة يجب أن يسمعها الجميع، لأنها عن شجاعة أختك وشهامتها وإخلاصها، ويجب أن تُحكى مرارًا وتكرارًا لأجيال قادمة».

تجيبني: «أنا آسفة، إخوتي الثلاثة متزوجون ويعيشون مع أسرهم. أنا وزوجي وأطفالنا الثلاثة نعيش هنا مع أمي لنعتني بها. توفي أبي منذ سنوات قليلة».

ثم يشرق وجهها وتضيف: «يمكنني جمعهم جميعًا غدًا، إن أمكنك العودة إلينا». تتوسل عيناها مع كلماتها وتواصل: «سيعني ذلك الكثير جدًا لنا، أن يسمعها الجميع بأنفسهم».

«نعم، بالطبع».

ثم يفتح الباب ونقف أنا وهي حين يدخل رجل الغرفة. تسير خلفه ببطء امرأة عجوز. يقول حين يراني: «أنا آسف، لم أدرك أن لدينا ضيوفًا».

تُقدِّمنا راثانا. «هذه سانغ لي، هذا زوجي بونليك». يُحييني بأدب ثم ينصرف. تهم العجوز بالسير خلفه حين تناديها راثانا. «نانا؟».

فتستدير وتعود إلينا ببطء. فتقول راثانا: «نانا، يوجد شخص ما أريدك أن تقابليه. هذه صديقتي الجديدة سانغ لي».

أنحني وأمد يدي وأربت على يديها الهشتين العرقانتين. تتردد راثانا، تحاول تحديد قدر ما ستكشفه. *اختر كلماتك بدقة شديدة دائمًا*. يؤكد ترددها أن المرأة التي أصافحها هي والدة الخادمة سوبيب سين.

أقول باحترام شديد: «تشرفت بمقابلتك يا سيدتي».

تقول راثانا للعجوز: «نانا.. سانغ لي لديها قصة تريد أن تحكيها لنا، قصة خاصة عن سوبيب. ستعود غدًا حين تجتمع العائلة كلها لنسمعها جميعًا. هل تودين سماعها؟».

يتحرك رأس المرأة بالكاد، ولا أتأكد أنها فهمت حتى أرى عينيها الهرمتين ترتعشان. ثم تستدير وتحملها قدماها الصغيرتان خارج الغرفة.

تقول راثانا: «لا تنخدعي بشيخوختها وجسدها الواهن.. ما زال ذهنها حادًا وفضوليًا».

نحدد موعدًا لعودتي ثم تسألني: «هل يمكنك إخباري كيف تعرفين الكثير عن أختي؟».

أجيبها: «بالطبع، لكن دعيني أولًا أسألك عن المعلمة، المرأة التي كانت تعمل عندها أختك. هل رأيتها منذ زمن الثورة؟».

«رأيتها؟ المعلمة؟ لا ... أقصد، كنت في القرية حين كانت أختي تعمل عندها، لذلك لم أقابلها قط. لكنني متأكدة أنها قُتِلت على يد الخمير الحمر. لقد قتلوا كل المعلمين، وكل المتعلمين. لماذا تسألين؟».

«ظني أن المعلمة التي كانت أختك تعمل عندها ما زالت على قيد الحياة، وأنا أبحث عنها».

# الفصل الثامن والعشرون

في طريق عودتي إلى ستونغ مانشي، أمر بثلاثة مستشفيات أخرى. لا أحد فيها سمع عن شخص يدعى سوبيب أو سوريان. حين أصل البيت، نزور أنا وكي بيتها مجددًا لنبحث عن أي شيء آخر. الشيء الوحيد الذي لم ألاحظه من قبل كتاب مفتوح على كرسي مكتبها. على الغلاف طائر كبير ينبعث من نار أكبر منه. بناء على تعليقات سوبيب السابقة، ظني أنه الكتاب الذي كانت تنوي إحضاره يوم أن ركضتُ بنيساي إلى المستشفى، أحد كتبها المفضلة.

يرى كي الغلاف ويلاحظ الشبه بنيران المكب، فيعلق قائلًا: «لم يكن لينبعث في المكب، كان سيحترق فحسب».

أقلب صفحاته لكنني لا أجد شيئًا يساعدني على إيجادها.

ينظر كي في الغرفة مجددًا ويقول: «لا أظن أن هذا المكان سيبقى على حاله بوجود نيساي». يحاول المزاح، لكن مدينة الكتب التي تقف فيها تؤكد لي أنه محق.

أستعيد نيساي، ونمر بمحظوظ السمين الذي يأتي معنا إلى البيت. أشعل النار لأعد عشاء، ومحظوظ السمين يلهو مع نيساي والعكس بالعكس، وإلى أن ينضج الأرز على النار، أواصل قراءة مقالات سوبيب، بحثًا عن أي شيء قد يكون فاتني.

بعد قراءة أكثر من عشر صفحات بحرص، أظن أنني وجدت خيطًا. في مقال تخطيته سريعًا من قبل، يبدو ظاهريًا خاليًا من

الإجابات. كان عليَّ أن أنظر بعمق. حين أعلن أنني ربما وجدتُ شيئًا. يطلب مني كي أن أقرأ بصوت عال. ويؤيده محظوظ السمين. نيساي الوحيد الذي لا يهتم. اثنان من ثلاثة ليس سيئًا. يُطعِم كي نيساي الأرز، أي شيء ليبقيه هادئًا، وأبدأ.

****

## العجوز والفيلة

### بقلم: سوبيب سين

كانت المرأة العجوز مضناة بالفعل حين قادها جنود الخمير الحمر إلى معسكر العمل في خوم سبيو، عظام متآكلة، وذهن متعب، وقلب مثقل.

لم تتوقع البقاء وقتًا أطول، إذ كان الآخرون حولها -الأصغر والأقوى والأذكى منها- يُقتلون أو يموتون يوميًا تقريبًا.

أعلن قائد النظام الجديد أن: «المتعلمين وصمة عار في جبين العامل الحقيقي. وأن المدن شر. والتعليم عديم الجدوى وأناني. والمال والتجارة فساد. وأن قوة الأمة في العمل، وليس في الطفيليات الذين يعيشون عالة على العمال! ازرعوا الأرز لتزدهر الأمة! لن يأكل سوى من يعمل في الحقول!».

ظلوا يخبرونها أنها بلا قيمة مرارًا وتكرارًا، ليست سوى حبة أرز في صحن المجتمع الكبير. «إن سقطت حبة أرز فلن يتأثر الصحن بشيء»، نقشوا هذا في داخلها. «إن حياتك كموتك بلا فائدة». كان معكسر تعذيب للمنطق والعقل أيضًا.

كانت العجوز، وهي طفلة، تعاني الكوابيس، أحلامًا مرعبة وكريهة تجعلها تستيقظ صارخة، يغمرها العرق والخوف. مع ذلك، رغم رعبها حينذاك، كانت تهدأ حين تتذكر ما كانت جدتها تكرره عليها دائمًا: «سيهرب الخوف، وستستيقظين دائمًا مع ضوء النهار».

في المعسكر، يبقى الخوف. كل شيء هناك مقلوب رأسًا على عقب. لا وجود للحقيقة، فعاشت العجوز أسوأ كوابيسها طوال النهارات، ما إن تستيقظ وتفتح عينيها.

لا ترتاح سوى ليلًا.

حتى حين يأتيها كابوس فظيع من حين إلى آخر، كان دائمًا أفضل من بديله الذي ينتظرها كلما أشرقت الشمس.

بالنسبة إلى امرأة عاقلة تقدِّر معنى الفهم والحكمة، كانت ثورة الخمير محيرة بشكل خاص. ضربوها ذات مرة حين تحدثت بصوت عال، ثم ضربوها مجددًا بعد ذلك بيومين حين التزمت الصمت. إن غنت الأناشيد الشيوعية على العشاء بصوت عالٍ جدًا اتهموها بإهانة القادة وبأنها تريد السيطرة. وإن همهمت بهدوء عنفوها لأنها لا تدعم النظام الجديد بشكل كافٍ. كان موسم جفاف للعقلانية، وبمرور كل يوم كان حتى ظمؤها للأمل يذبل.

تعقّد الأمر للغاية حدَ أنه بعد ثلاث سنوات، وأربعة أشهر، وستة عشر يومًا من العيش كحبة أرز، وبلا أمل في الأفق، قررتْ إنهاء وجودها. فكرت أن حبات الأرز الأخرى في الصحن لن تلاحظ شيئًا، أليس كذلك؟

لم ترغب في منح جنود الخمير الحمر شرف قتلها (وكأن لمثل هذا الجرم أي شرف). استيقظت مبكرًا قبل شروق الشمس وتسللت من المعسكر، والآخرون نيام، وزحفت بهدوء نحو ظلام الغابة المحيطة.

قد يبدو للبعض أن السير في الغابة دون أن يتبعك أحد هروب آمن. لكن ليس في كمبوديا، وخاصة إقليم خوم سبيو. من يسير في الغابة وحده بلا حماية، وخاصة امرأة عجوز، يخاطر بحياته ببساطة. لم يكن السؤال إن كانت ستموت أم لا، بقدر ما كان كيف ستموت: بلغم أم برصاصة جندي؟ بملاريا أم بالجوع؟ بعضة عنكبوت أم أفعى سامة؟ الاحتمالات المثيرة كثيرة. لكنها في ذلك الصباح لم يعد يهمها شيء.

لم تبتعد كثيرًا، لم تكد تمر دقيقة أو اثنتان على سيرها في الأدغال، حين سمعت خشخشة حركة خلف كتلة أشجار أمامها.

«أتى أسرع مما توقعت»، قالت وهي تغمض عينيها وتنتظر أن تلقى حتفها. مع ذلك لم يظهر أحد، لا إنسان ولا حيوان. ثم سمعت الخشخشة مجددًا، فانتظرت مجددًا، ولم يحدث شيء.

كانت العتمة تتبدّد. بدأ ضوء الصباح الخفيف التوّة يرسم تكوينات ويحدد أبعادًا. فوقفت العجوز وحدها بصبر، تتسائل عن الحركة المتقطعة وما سيكشف عنه ضوء الصباح. حين اتضحت الرؤية، لم تشعر بفضول طاغٍ فحسب، بل وبتفرّد موقفها أيضًا. فإن كانت لا تهتم بما سيحدث لها -بل وسيخيب أملها إن لم يحدث لها شيء- فلا ضرر من أن تتقدم هي لتقصّي الأمر. وحينها رأتِ المرأةُ الفيلة.

كانت ترقد بجانبها على الأرض، قرب جذع شجرة تين ضخمة، تميل برأسها من حين إلى آخر كأنها تحاول إيجاد وضع مريح. لاحظت العجوز بقع الدم على جانبها حول ثلاثة ثقوب أحدثتها طلقات نارية، كل منها جرح يؤدي إلى قلبها.

كانت تعرف عن الأفيال، قرأت عنها في المدرسة، وقرأت مقالات عنها كتبها طلبتها. من حين إلى آخر كان أبوها وسائقهم يأخذانها وهي طفلة إلى باتمبانغ في الشمال، حيث امتطى ثلاثتهم الأفيال في الغابة مع دليل أكثر من مرة. كانت تعرف أن الأفيال رغم أنها سهلة الانقياد في الأسر، لكن الفيلة البرية الجريحة تعدّ من أشرس الحيوانات على وجه الأرض وأخطرها. لكنها اليوم جاءت إلى الغابة لتموت، فلم تهتم حقًا. لم يكن الموت على يد فيلة آسيوية غاضبة على قائمة سبل الموت التي فكرت فيها وهي تضع خطتها، لكنه سيكون فعالًا، وسريعًا وأصيلًا إن جاز القول.

لذلك تقدمت تقترب من الفيلة ومدت يدها لتربت على مؤخرتها المترهلة. لدهشتها، وإحباطها حتى ربما، لم تنهض الفيلة وتقضي عليها، بل رفعت رأسها ببساطة كأنها تلقي عليها نظرة أفضل قبل أن تند عنها ما بدا للمرأة أنها تنهيدة إحباط.

«لا أعرف من كنتِ تتوقعين»، قالت لها المرأة أخيرًا، وهي تفكر أنها بالتأكيد تحلم، وتأمل أيضًا ألا يكون حلمًا، إذ لن تتحمل الاستيقاظ على واقعها يومًا واحدًا آخر. حين تعبت من الوقوف وشعرت بأن الفيلة لا يزعجها وجودها، استندت إلى جلد الفيلة السميك لترتاح بجانب رأسها الضخم.

رقد الاثنان بهدوء، وتناغمت أنفاس العجوز مع الوحش الثقيلة الصعبة.

نفس داخل، نفس خارج. نفس داخل، نفس خارج.

ميزت المرأة وهي تملأ رئتيها بهواء الصباح الرطب، الروائح القوية؛ لحاء شجرة التين، نباتات الغابة المتعفنة، فضلات الفيلة ودمها ووحدتها.

وهي تفكر في معضلتها غير الطبيعية، مرت بيدها على ملامح الحيوان وربتت على الجلد الخشن. حين فعلت هذا شعرت بأن تنفسيهما صارا أسهل.

نفس داخل، نفس خارج. نفس داخل، نفس خارج.

«أنا آسفة، أيتها الأم الفيلة»، همست المرأة أخيرًا. «أتمنى لو استطعت فعل شيء لكِ».

انتظرتْ أن تجيبها الفيلة، لأنه لو كانت تحلم حقًا، فلن تكون الفيلة المتحدثة أمرًا عاديًا فحسب، بل ومتوقع أيضًا.

نفس داخل، نفس خارج. نفس داخل، نفس خارج.

لكن الفيلة لم تتحدث لأنه لم يكن حلمًا. بل حدقت إليها ببساطة بعينيها الحزينتين الدامعتين، ربما أرادت أن تجيبها بطريقة الأفيال لكنها إما مرهقة للغاية وإما تحتضر بالفعل ولا يمكنها بذل الجهد.

نفس داخل، نفس خارج. نفس داخل، نفس خارج.

تذكرت المرأة معلومة أن الفيلة تشبه البشر في عدة أوجه؛ طول العمر، والتطور، والروابط الأسرية، والمشاعر. وأنها كالبشر لديها نطاق واسع من المشاعر. يساعد بعضها بعضًا في الشدائد،

وتفتقد الموتى، وتبتسم حين تشعر بسعادة، وتذرف الدموع حين تحزن. وحين تعجز تمامًا عن النهوض، تحتضر محاطة بأحبائها، تمامًا كما يحب البشر. قرأتُ من قبل أيضًا أن الفيلة حين تجد في سيرها عظام فيل آخر، تحملها بخراطيمها إلى أقرب مكان آمن تحت الأشجار.

«ماذا حدث لكِ أيتها الفيلة؟». سألتها المرأة أخيرًا، «لمَ أطلق الجنود عليك النار؟».

نفس داخل، نفس خارج. نفس داخل، نفس خارج.

«ألن يدهشهم إن جاؤوا ليجدوك راقدة على الأرض في الغابة، تتحدثين مع امرأة عجوز؟».

جعلتها الفكرة الغريبة تضحك بهدوء.

مرت لحظة أخرى ترددت فيها العجوز، ليست متأكدة إن كان عليها البوح بسرها أم لا. لكنها انتبهت أنها تتحدث مع فيلة، فواصلتْ: «أريدك أن تعرفي أيتها الأم الفيلة أنني أنا أيضًا تعبت وأنني جئت إلى هنا اليوم لأموت أيضًا».

نفس داخل، نفس خارج. نفس داخل، نفس خارج.

تحرك رأس الفيلة الضخم وارتعش جسدها، بدأت أعضاؤها الداخلية تتوقف. لم تتحرك العجوز، بل مالت تقترب منها. وهمست: «أنا آسفة أنك وحدك اليوم أيتها الأم الفيلة».

انتبهتْ حين قالت هذا أن الفيلة ليست وحدها حقًا، لأنها هي، المرأة العجوز، هنا بجانبها تشهد احتضارها، ومعها في أشد لحظاتها احتياجًا للراحة والصداقة.

نفس داخل، نفس خارج. نفس داخل، نفس خارج.

ثم ابتسمتْ الفيلة.

....نفس خارج.

لفظت أنفاسها الأخيرة وانتهى الأمر.

ظلت العجوز راقدة بجانب الفيلة ساعة تقريبًا، تتأمل غرابة اليوم وعجبه وقداسته.

إن عادت إلى المعسكر وأخبرتهم عن الفيلة، سيعدونها بطلة. ظلوا يأكلون عصيدة الأرز أسابيع طويلة، وحيوان بهذا الحجم سيمدّهم بلحم حقيقي وقتًا طويل جدًا، لكنهم سيقطّعون الفيلة إلى شرائح وقطع، وسيسلقون لحمها، ويلقون بعظامها في الغابة في النهاية.

نهضت المرأة، فردت قامتها، ثم تحدثت إلى الفيلة مرة أخيرة قائلة: «كنت قد جئت إلى الغابة هذا الصباح وأنا لا أفكر في سوى نفسي، لكنني الآن أريد أن أشكرك بشدة. أريد أن أشكرك أيتها الأم الفيلة، لأنك كنت بحاجة إلي حقًا. أترين، لم يحتج إلي أحد وقتًا طويلًا جدًا.. جدًا. اليوم، أنتِ غيرتِ هذا، على الأقل بالنسبة إلي».

ثم راحتْ تجمع ما يكفي من أغصان الشجر وأوراقه لتغطي جسد الفيلة حتى تأكدت من تغطيته كله تمامًا وأن أحدًا لن يجدها أبدًا. ثم عادتْ أدراجها إلى معسكر العمل. حين سألها الجنود أين كانت، أشارت إلى الغابة، نحو البقعة التي وجدت فيها الفيلة مباشرة، ثم ربتت بيدها على بطنها وقالت: «لم تكن معدتي بخير، وبالطبع لم ترغبوا في أن أفرغ الفوضى بالقرب من الأكواخ، أليس كذلك؟ بوسعكم الذهاب إلى الغابة لتقصي الأمر بأنفسكم، إن كنتم تحبون رؤية هذا المشهد».

وعـادت بابتسـامة مريبـة لكنهـا مقنعـة تواصـل عملهـا فـي زراعـة الأرز مـن أجـل المجتمـع الجديـد.

****

يسـأل كـي: «هـل العجـوز هـي سـوبيب حقًـا؟ هـل وجـدت فيلـة فـي الغابـة بالفعـل؟».

«لا أعـرف»، أقـول محبطـة مـن عجـزي عـن تحديـد الشـيء الغريـب والمزعـج للغايـة فـي هـذه القصـة. أقلـب الصفحـات إلـى الخلـف لأتأكـد مـن شـيء مـا. وأقـول: «المـرأة بـلا اسـم. ألا يبـدو هـذا غريبًـا؟».

يرفـع محظـوظ السـمين كتفيـه ويقـول: «أنـتِ المعلمـة، ألسـت كذلـك؟».

يعيـد ذهنـي جمـع القطـع معًـا واحـدة تلـو الأخـرى. فـي القصـص، كل شـيء يعنـي شيئًـا مـا.

فأضيـف: «وأليسـت عجـوزًا للغايـة لتكـون سـوبيب؟ بـدأت ثـورة الخميـر الحمـر فـي منتصـف السـبعينيات، لذلـك لا بـد أنهـا... مـاذا؟... كانـت فـي منتصـف الثلاثينيـات كحـد أقصـى».

ثـم أتذكـر العبـارة التـي وصفـت بهـا سـوبيب نفسـها بهـا فـي خطابهـا، وتتضـح الصـورة. فأعلـن بيقيـن: «سـوبيب ليسـت المـرأة العجـوز!».

«ليست هي؟».

«لا، سوبيب هي الفيلة».

«الفيلة؟».

مكتبة
t.me/soramnqraa

«نعم، وفي قصتها تموت الفيلة بجوارها تقريبًا. جريحة ومختبئة، لكنها قريبة للغاية، قد يجدها أي أحد تقريبًا، إن عرفوا أين يبحثون فحسب».

«ماذا تقولين؟».

«ظني أنني أعرف مكانها!».

# الفصل التاسع والعشرون

نقف إلى جانب الطريق ونشير إلى توك توك. يتوقف السائق وما زال كي يطرح أسئلته.

«أنا حائر. لماذا غادرت بيتها في المقام الأول؟ أعني، لقد عاشت في ستونغ مانشي سنوات».

أجيبه: «لا يهم، حتى ولو كانت مئات السنوات، المكب ليس بيتها، رغم محاولتها جعله كذلك».

«لكنك لا تعرفين أين هي تحديدًا؟».

«لا، ليس تحديدًا».

«والكتاب الذي في حقيبتك، سيساعدك على هذا؟».

«إلى حد ما. سيكون مهمًا حين نصل إلى هناك».

«إن كنتِ لا تعرفين أين هي، كيف سنعرف أين *هناك* هذا؟ أقصد، كيف ستجدينها بالفعل؟».

أجيبه ببساطة: «أعرف فيلة أم يمكنها أن تقودنا».

****

حي داون بنه الراقي رغم قِدمه فيه بيوت كبيرة، أعيد بناء الكثير منها بالفخامة نفسها التي كانت عليها قبل الثورة، مكتملة تمامًا بالحدائق والنوافير والتماثيل. عِزب يملكها الأثرياء والشخصيات المهمة في البلد. مكان جميل ولائق. حين نقترب نجده يحيط به جدار حجري عالٍ ببوابتين حديديتين متطابقتين. لحسن الحظ نصل بسيارة بكرم من راثانا وأسرتها.

يوجد كُشكان حراسة اثنان وليس واحدًا فقط. أحدهما للدخول والآخر منفصل للخروج. البوابات الثقيلة حراسة للمكان من المقتحمين الذي يحاولون الدخول. حين تقترب سيارتنا تبطئ السيارات التي خلفنا أيضًا ونتوقف. يقترب حارس يرتدي زيًا رسميًا من نافذة سيارتنا باهتمام.

في مقعدي بجوار السائق، أستدير للجدة سين التي تجلس خلفي. وأسألها: «أهذا هو المكان؟».

ترفع رأسها، تحدق إلى البيوت، ثم ترفع أصابعها الهزيلة المقوسة نحو البيت الثاني إلى اليمين. معماره مميز ورائع مثل البيوت المحيطة به. يبدو أنه مكون من ثلاثة طوابق بسطح متدرج وشرفات عدة مفتوحة تلتف متعرجة حول مستوياته. أرى أعمدة رخامية كبيرة تتصل بدرابزين حجري يحيط بنباتات وزهور تختبئ من الزائرين، وترحب بهم في الوقت نفسه.

ينتظر الحارس أن يتحدث السائق، الذي بدوره يشير إليَّ. ينحني الحارس ليرى من داخل السيارة، كما لو كنت شخصية مهمة أو زائرًا ملكيًا. أميل على النافذة لأرى وجهه. لا يقول شيئًا، بل يرفع حاجبيه الكثين، الإشارة العالمية التي تعني: «حسنًا إذًا من أنتم ومن تريدون رؤيته هنا؟».

أقول للحارس وأنا أشير إلى البيت الذي حددته الجدة: «نحن هنا لنتحدث مع صاحب هذا البيت».

«ما شأنكم؟». يسألني ويذكرني بجندي، وأتساءل بشأن الذكريات التي لا بد عبرت ذهن سوبيب حين عادت. ثم يخطر لي السؤال: ماذا لو كنتُ مخطئة؟ والأسوأ من هذا، لو كنت على

صواب، لكن الرجل لن يدعنا نمر؟ بأي منطق قد أتحدث معه؟ حينها أخبره بكذبة صغيرة.

«إنه يتوقع زيارتنا. أرجو أن تتصل به وتخبره أننا هنا لرؤية المرأة العجوز».

يسأل الحارس: «أي امرأة عجوز؟».

أجيبه: «اتصل به فحسب. هو يعرف».

يجلس كي في المقعد الخلفي بجوار الجدة سين. يقول لي: «ماذا لو لم يكن صاحب البيت يعرف شيئًا عما تتحدثين عنه؟».

«بل سيعرف».

«كيف؟».

«سيعرف لأنها هناك».

يتردد الحارس ثم يستسلم، يلتقط سماعة هاتف، ويضغط زرًا. أسمع كلامه هو فقط من المحادثة.

«مستر رانغسي؟ أنا شيم. لدي هنا مجموعة أشخاص يسألون عنك. يقولون إنهم هنا لرؤية المرأة العجوز».

سكوت طويل. ينظر إلي، ثم إلى البيت.

«نعم يا سيدي»، يقول. «فهمت، سأخبرهم».

يضع السماعة ويميل على نافذة السيارة ويقول: «سيأتي لمقابلتكم. تفضلوا بالعبور واركنوا سياراتكم أمام البيت».

تتلبد الغيوم في الأفق، وأتساءل إن كانت نذرًا. كلمات الرجل تعني أن سوبيب هنا، أليس كذلك؟ لماذا سمح لنا بالدخول وسيهبط إلينا إن لم تكن هنا؟ لكن ماذا لو كان سيقابلنا لأننا جئنا متأخرين فحسب؟

ننتظر خارج السيارة وقتًا يبدو طويلًا جدًا قبل أن يُفتح باب البيت ويخرج منه رجل أربعيني أنيق. وبما أنني أقف في المقدمة وأبدو أشدهم قلقًا، يفترض أنني المسؤولة ويمد يده لي ليصافحني قائلًا:

«مرحبًا، أنا هينغ رانغسي».

«وأنا سانغ لي».

«أنتم هنا لرؤية المرأة العجوز؟».

«نعم، هذا هو الأمر».

«أخبَرَتني أن ليس لها أقارب. وأنها وحيدة تمامًا».

أوضح له قائلة: «إنها مخطئة. استغرقنا وقتًا حتى نجدها فحسب».

«كانت محقة إذًا حين قالت إنها كانت تسكن هذا البيت قبل الثورة؟».

«نعم».

«هذا ما ظننته».

«هل يمكننا رؤيتها؟».

«بالطبع، لكن يجب أن أحذركم. إنها ليست بخير. بالكاد تناولت شيئًا منذ أن وصلت، وتتحدث بصعوبة شديدة، لكنها ترقد مرتاحة. أوكلتُ للخادمة مهمة الاعتناء بها».

يشير إلى الباب فندخل. ولا يسعني سوى أن أسأله: «أكنت تعرفها؟ أقصد حين جاءتك؟».

«لا. قابلتها أول مرة منذ أسابيع عدة بعد أن عرفتُ بشأن مرضها. بدت بخير، وحين أوضحت أنها تود الموت هنا في هذا البيت تحديدًا رفضتُ بالطبع».

«ثم عرضتْ عليك مالاً؟».

«عرضت مالًا بالفعل، لكنني رفضت. لست بحاجة إلى المال. ليس هذا ما جعلني أغير رأيي».

«ماذا إذًا؟».

«إنها معلمة. كان أبي معلمًا أيضًا، لكنه لم يكن محظوظًا».

«ماذا تقصد؟».

«قتله الخمير الحمر في بداية الثورة، وكذلك أخي الأكبر. الآن من فضلكم، اصعدوا السلم، واعبروا الشرفة إلى حديقة السطح».

ثم يسكت ويبلع ريقه بصعوبة ويضيف: «حين رأت أننا أعدنا بناء حديقة السطح بكت كطفلة. ولم يمكنني إقناعها بالرقود في الداخل».

أصعد السلم، أعبر شرفة مفتوحة مؤطرة بنباتات مزهرة رائعة، ثم أخرج إلى حديقة سطح غاية في الروعة، نصفها فقط مسقوف.

لم أكن مستعدة لما رأيته حقًا.

عيناها مغمضتان. بشرتها التي لوحتها شمس ستونغ مانشي، مجعدة ومرمدة. تتنفس بصعوبة شديدة أنفاسًا عميقة.

لا أريد أن أوقظها، أسحب كرسيًا بالقرب منها، فتفتح عينيها، تنظر إلى أعلى، وتبدو حائرة للحظة كأنها لا تعرف أين هي. تسعل، تمد يدها إلى البطانية التي تغطي نصفها السفلي فحسب، ثم تهمس... بهدوء شديد حدَ أنني لا أفهم ماذا تقول. أميل عليها لتكرر ما قالته.

«أنتِ لن تتركيني لشأني فحسب، أليس كذلك؟».

«لا، لن أفعل»، أجيبها. «ولا يهمني إن كنتِ مخطئة تمامًا في فهم هذا».

تحتد ملامحها المتألمة بتساؤل. فأقول: «لا تقلقي.. أنا هنا لأوضح لكِ. الآن معي بعض الأشخاص الذين أريدك أن تقابليهم».

أشير للجدة سين التي تنتظر قريبة. تقف بجانب فراش سوبيب ثم تمد يدها بشكل عفوي، كأي أم حنون، وتمسك بيدي سوبيب دون أن تقول كلمة.

أهم بتعريف سوبيب بالجدة، لكن الدموع في عينيها تخبرني أنها تعرفها بالفعل. بالطبع، الطرود. كانت سوبيب تراقب توصيل طرودها من بعيد.

حين تقترب منها الجدة، تنقر سوبيب بإصبعها العرقان على قلبها. وتقول بهمس: «ثلاثة ثقوب».

تجيبها الجدة بصوت واهن ومبحوح، وألاحظ أنني أسمعها تتحدث لأول مرة، وتقول: «...ليس خطأك. كانت ابنتي تحبك».

أتراجع وأحاول حبس دموعي، وأنا أرى فيلتين كبيرتين تتهامسان بالذكريات. ثم تفسح الجدة مكانها لراثانا التي تقترب من الفراش. وتهمس قائلة: «خالتي»، اللقب الشائع في كمبوديا لمخاطبة كبار السن إن كانوا أقارب أم لا. «أنا راثانا، أخت سوبيب. لم نلتقِ من قبل، لكنك أحدثتِ اختلافًا كبيرًا في أسرتي». تشير إلى زوجها فيتقدم قائلًا: «خالتي، أنا بونليك زوج راثانا، مهندس كيميائي، وأعمل في شركة بترول هنا في بنوم بنه. استطاع والداي تعليمي بسبب عطفك وكرمك. سأظل ممتنًا لك

طوال حياتي». ينحني باحترام ثم يشير لفتى يافع وفتاة صغيرة أن يقتربا. «هذان طفلاي. ولدي ابنة أخرى متزوجة وتعيش في سيم ريب. جئنا اليوم لزيارتك وشكرك».

ثم يفسح الطفلان المكان لخالهما الأكبر، رجل قابلته هذا الصباح فحسب. يشير بدوره لعائلته لتتجمع حول فراش سوبيب. ويقول: «خالتي، اسمي كيري. *هذه* أسرتي. تعلم أطفالي تعليمًا جيدًا أيضًا. لدي ابن ليس معنا هنا. يعمل في الزراعة. يحمل شهادة عليا في الزراعة. لكننا فخورون أكثر بالمرأة التي تزوجها، ولدينا حفيد أيضًا». ترفع شابة، لا أتذكر اسمها، أم لطفلين أو ثلاثة. «ليتنا تعرفنا إليك قبل ذلك بوقت طويل»، تقول، «لكننا مع هذا سنظل ممتنين لعطفك وكرمك طوال حياتنا».

تتناوب أسرتان أخريان الدور في جمع أطفالهما حول الخالة، وتقديم الشكر والعرفان لها. أشق طريقي إليها في الغرفة المزدحمة وأميل عليها لأتأكد أنها تسمعني. وأقول: «هذا هو درسك، ولا يوجد درس آخر أهم منه».

حين ينتهي الجميع ويقولون وداعهم الأخير، تغادر الأسر كلها صفًا واحدًا بهدوء، ويتركونني وحدي جالسة إلى جانبها وأمسك بيدها وهي تواصل تنفسها بصعوبة.

*نفس داخل، نفس خارج. نفس داخل، نفس خارج.*

تتجمع الغيوم وتنهمر أمطار مسائية. قطرات سمينة كدموع الفيلة ترتطم بالأرض فتتكسر إلى حبات ضئيلة تتراقص وتلهو على البلاط. يأتي صاحب البيت، السيد رانغسي، من الداخل، ونمسك معًا بطرفي فراشها لنحملها إلى الداخل من على حافة

الشرفة بعيدًا عن المطر. ترفع يديها بما يمكنها من قوة لتطلب منا أن ندعها مكانها. يستأذن السيد رانغسي في الانصراف ليتركنا وحدنا في حمام المطر الدافئ.

المطر في المكب يجعل الماء قذرًا. لكنه في الحديقة ينظفها.

*نفس داخل، نفس خارج. نفس داخل نفس خارج.*

سقطت البطانية، لكن سوبيب لا يبدو عليها الاهتمام. حينذاك فقط ألاحظ جوربها البني -الجورب العادي المتهدل الذي كنت أمقته من قبل- انزلق من قدمها. كاحلاها متورمان، لكن ليس هذا ما يلفت نظري. بل الندوب المتقاطعة في قدميها، جروح قديمة شائعة بين من يجمعون القمامة ليلًا بالقرب من النيران في المكب.

*نفس داخل، نفس خارج. نفس داخل نفس خارج.*

لا أعرف إن كانت تبكي أم لا، لأن المطر النظيف ينسال الآن على وجهها كله. أعرف أنها تحتضر وأن علي أن أهرع إلى صاحب البيت أو الخادمة ليتصلا بطبيب. لكنني لو فعلت فسيأخذونها من على حديقة سطحها تحت أمطار خلاصها، وبعيدًا عن البيت الذي أعيد بناؤه من الرماد.

*نفس داخل، نفس خارج. نفس داخل نفس خارج.*

لإراحتها قليلًا، أمد يدي إلى القصة التي قالت إنها مفضلة لديها. كتبها كاتب يدعى هانز أندرسون، لا أعرفه، لكنني أنوي تغيير هذا بمزيد من الوقت مع الكتب التي أهدتها لي سوبيب.

أمسك بأصابعها المنحنية بيد برفق وأقلب صفحات الكتاب بالأخرى. تبتل الصفحات، لكن هذا لا يهم.

*نفس داخل، نفس خارج. نفس داخل نفس خارج.*

أقرأ بتأنٍ، لأتأكد أنها تسمعني وتفهم كل كلمة.

في حديقة في الفردوس أزهرت أجمة ورود. وفي نوارتها، وُلد طائر صغير.

تسترخي عضلاتها حين يصل صوتي إلى أذنيها، تلين قبضتها، ويتبدد أي خوف قد يكون عالقًا في قلبها وينزاح بعيدًا مع المطر.

أواصل.

كان طيرانه سريعًا كالضوء، وريشه يزهو بروعة، وتغريده يسلب الألباب. لكن سقطت في عشه شرارة فأشعلته على الفور.

نفس داخل، نفس خارج. نفس داخل، نفس خارج.

اشتعل الطائر بالنيران، وتحول في العش إلى بيضة حمراء فقست وحلق منها طائر جديد، طائر العنقاء الوحيد. تقول الأسطورة إنه يسكن بلاد العرب وأنه كل مئة عام يحترق في عشه، لكنه في كل مرة يحترق فيها تظهر في العش بيضة حمراء تفقس طائر عنقاء جديدًا، الوحيد في العالم، ليحلق عاليًا.

يرفرف الطائر حولنا، سريعًا كالضوء، بريشه الجميل وتغريده الساحر. حين تجلس أم بجوار مهد طفلها، يقف الطائر على الوسادة، ويشكل بجناحيه هالة نور حول رأس الطفل. يحلق في الغرفة السعيدة ويجلب إليها وهج الشمس، فتنبعث من زهور البنفسج على الطاولة الصغيرة رائحة جميلة مضاعفة.

*نفس داخل، نفس خارج. نفس داخل، نفس خارج.*

لكن الطائر لا يحلق في بلاد العرب فحسب. بل وصل في طيرانه إلى الأفق الشمالي أعلى سهول اللابي، وبين الزهور

الصفراء في صيف جرينلاند القصير. وأسفل جبال النحاس في الصين ومناجم الفحم في إنجلترا، على هيئة عثة ترابية، أعلى كتاب الترانيم الذي يضعه عامل منجم طيب على ركبتيه. على بتلة زهرة لوتس تطفو أعلى المياة المقدسة لنهر الغانج، فتلمع عينا فتاة هندية حين تلمحه.

طائر العنقاء، ألا تعرفه؟ طائر الفردوس، بجعة الأنشودة المقدسة! يجلس على عربة ثيسبي متنكرًا في هيئة غراب ثرثار ويخفق بجناحيه الأسودين، الملطخين ببقايا النبيذ، وعلى قيثارة آيسلندة الساحرة، لينظف منقار البجعة الأحمر، وعلى كتف شكسبير متنكرًا في هيئة غراب أودين ليهمس في أذن الشاعر، «الخلود!»، وفي مهرجانات الشعر يحلق أعلى قاعات قلعة فارتبورغ.

*نفس داخل، نفس خارج. نفس داخل، نفس خارج.*

طائر العنقاء، ألا تعرفينه؟ يغرد لكِ اللامارسييز وقد قبّلتِ القلم الذي سقط من جناحه، يأتي بنور من الفردوس، ليراهن على أنك لن تشيحي ببصرك عنه نحو العصفور الجاثم بجناحين مزيفين.

طائر الفردوس -الذي ينبعث كل قرن- يظهر في النار، ويموت في النار! صورته في إطار ذهبي معلقة على جدران الأثرياء، لكنك أنتِ تحلقين كثيرًا، وحيدة ومهجورة، أسطورة «عنقاء العرب».

*نفس داخل، نفس خارج. نفس داخل، نفس خارج....*

في الفردوس، حيث ولدت في النوارة، أسفل شجرة المعرفة، قَبّلوكِ، وسموكِ باسمك الصحيح... الشعر.

... نفس خارج

تلفظ سوبيب نفسها الأخير، ينساب بعيدًا مع كلماتي في الليل إلى المجد في الأعالي حيث تنتظرها أسرتها... وينتهي الأمر.

أغلق الكتاب المبتل وأضعه على صدرها برفق. أريد أن أحزن، أن أبكي وأنوح لوفاة معلمتي العزيزة وصديقتي، سوبيب سين، لكنني لا أفعل. ربما لأنني لا أريد أن يزول الشعور بالسلام والحب الذي غمر حياتي. بل أجلس تحت المطر، أدعه يغسلني أنا أيضًا نحو ساعة أخرى، وأنا أمسك بيد سوبيب وأتأمل *غرابة اليوم وقداسته*.

ثم حين أشعر أنه الوقت المناسب، أغطي جسد سوبيب الهامد بالبطانية وأنهض لأغادر. بينما أشق طريقي خارج البيت، أبحث عن صاحبه أو خادمته، لأخبرهما ولأشكرهما. لا أجد أحدًا، فأخمن أنهما أويا إلى النوم. سأعود في الصباح لعمل ترتيبات حرق الجسد الذي تركته سوبيب خلفها.

حين أهبط السلم، أجد كي نائمًا على كرسي بجوار الباب، ما زال ينتظرني. من بين جميع القصص التي قرأتها عن الأبطال، وكل التي سيمكنني قراءتها، لست متأكدة الآن من سوى شيء واحد فحسب، إنه لي. ألمس وجهه فيستيقظ. يستغرق لحظة ليستجمع وعيه، وحين يفعل يفهم ما حدث. ينهض ويحيطني بذراعيه، بقوة ووقتًا طويلًا. ثم يقول: «قال السيد رانغسي إن بإمكاننا البقاء الليلة. أراني الغرفة».

فأجيبه: «هل يمكننا العودة إلى المكب بدلًا من ذلك، إلى بيت سوبيب؟».

«الوقت متأخر»، يقول، «لكن نعم يمكننا».

نسير معًا في شوارع بنوم بنه القذرة، والمظلمة أحيانًا، لكن هذا لا يهمنا. تحت مطر سوبيب الشافي المسالم المذهل المتجدد.

# الفصل الثلاثون

تجمع الكثيرون حول بيتنا القديم على التلة. أغلبهم جيراننا في المكب، وكثيرون آخرون لا أعرفهم. لأن محظوظ السمين أعلن أن قصة مهمة ستُحكى.

حين يستعد الجميع أقف أعلى السقف أعلى ستار بابنا ليسمعني الجميع. أحيانًا تدفع أحداث حياتي خلال الأسابيع العديدة الماضية بعواطف قريبة للغاية للسطح حدًا يصعب عليَّ التحدث. لكن ليس الليلة. بل أطلب من أبي في سري أن يلهم صوتي القوة، ثم أبدأ.

«سأحكي لكم اليوم أسطورة. قد يهمس بعضكم بعد أن أنهيها أنها ليست حقيقية. قد تقولون إنني أختلق، وإن قصتي ليست سوى خرافة، وقد تكونون محقين. لكن كما أوضحتْ معلمة حكيمة وعظيمة من قبل بصبر كل القصص الجيدة التي تلمس الروح، وتغير الطباع، وتجعلكم أشخاصًا أفضل، تقول حقيقة دائمًا.

ردد البعض من قبل، بمن فيهم أنا نفسي، أسطورة خاطئة، قصة سوبيب سين التي كانت أكذوبة. وسوف أصححها لكم اليوم وأخبركم الحقيقة.

الآن أطلب منكم أن تصغوا إلي بقلوبكم وليس بآذانكم، لأن سوبيب علمتني أن القلوب تفهم الحقيقة.

منذ سنين كثيرة مضت، تلقى الملك فادافاموخا أخبارًا بأن من يعيشون على الأرض في ستونغ مانشي قد ضلوا سبيلهم،

جعلتهم ساعات العمل الطويلة، وعيشهم على الكفاف، والأوضاع السيئة في المكب يفقدون الأمل. والأنكى أن الكثيرين منهم نسوا طبيعتهم الأصلية.

قال فادافاموخا لزوجته الملكة ريك كساكسار ديفي: «يجب أن نساعدهم ليروا ما خلف هذا اليأس». فكر الزوجان في حلول كثيرة، كلها صعبة. في النهاية وبعد أيام كثيرة اتفقا على أن يرسلا بسوريان، ابنتهما الأميرة الجميلة والمعلمة العظيمة، لتساعد ناس ستونغ مانشي.

فأرسلا في طلبها، وحين دخلت الأميرة سوريان القاعة، قالت الملكة للملك: «لن تفلح هذه الخطة، إنها جميلة للغاية. إن هبطت إلى ستونغ مانشي القبيح، سيذوب قلب كل من ينظر إليها من جمالها وإشراقها».

عرف الملك أن زوجته محقة، وحزن بشدة على ستونغ مانشي. لكن الأميرة سوريان تقدمت وقالت: «لا تحزن يا أبي، ستنجح الخطة. سأرتدي الأسمال وأتنكر، ليمكنني تعليم الناس واستعادة أملهم. فلا هدية يمكنني تقديمها لهم أفضل من الأمل».

وافق والداها في النهاية رغم كرههما البعد عنها، وألبساها الأسمال ووضعاها في سلة قمامة لإخفاء جمالها. ثم ألقى الملك بالسلة من أعلى نحو الأرض، حيث سقطت في ستونغ مانشي.

حين سقطت السلة، ارتطم رأس الأميرة سوريان بالأرض، ونسيت من تكون ولماذا أُرسِلت إلى ستونغ مانشي. ولسنوات كثيرة، ظلوا يدعونها سوبيب سين، لأن أحدًا لم يعرف حقيقتها، لا هي، ولا من علمتهم.

حين نظر الملك والملكة من أعلى ورأيا ما حدث، قالت الملكة: «يجب أن نفعل شيئًا ما. ستفشل خطتنا. علينا أن ننقذ سوريان وننسى بشأن استعادة الأمل لستونغ مانشي». لكن الملك أجابها بحكمته: «امنحيها الوقت فحسب، ستتذكر سريعًا، وستجعلها الخبرة معلمة أفضل حتى، لأنها ستكسب التعاطف أيضًا». لذلك انتظرت الملكة.

«رغم صعوبة رحلتها، بدأت الأميرة سوريان -أو سوبيب سين كما يدعوها الناس- تتذكر رسالتها وأنها معلمة عظيمة. كانت حينها قد صارت عجوزًا، وأدركتْ أنها لا تملك الوقت لتعليم كل من في ستونغ مانشي قبل أن تعود من حيث جاءت. لكنها وبوصفها معلمة حكيمة، دونت أهم دروسها في قصص بسيطة يمكن للناس فهمها، وطلبت من آخرين كتابتها وحكيها، قصص زاخرة بالحقيقة -مع أنها أحيانًا كامنة- لتوجيه كل من لديه صبر وقلب يستمع.

حتى يومنا هذا، إن نظرنا حولنا في ستونغ مانشي بانتباه، إن بحثنا عن قصص تحمل حقيقة وخيرًا، قصص برسائل يمكنها تليين قلوبنا وتغييرها سنجد الأمل».

****

في اللحظات الهادئة يعاودني الشعور الذي غمرني ليلة وفاة سوبيب، حين سرت أنا وكي عائدين إلى ستونغ مانشي تحت المطر. رغم تعلمي الكثير من الكلمات الجديدة منذ ذلك الحين، ما زلت لا أستطيع وصفه، لكنه يشبه أن تستيقظ في مكان تعرف أنه قذر وملوث لتجده مكسوًا بغشاء أبيض نظيف، طبقة تفعل ما

هو أكثر من الإخفاء. حين تقفز فيها تتلاشى كل عيوبك وحيرتك ومخاوفك، وتجد نفسك محاطًا بدلًا من ذلك بفيض من الحب الصافي.

تلك اللحظات قليلة في غمار الحياة التي تظل عاصفة بالكفاح المستمر، لكنها حين تأتي تُعد فنارات. توجهني إلى المسار الصحيح. ما زلت أستيقظ كل صباح على مكب معبأ بالدخان، لكنني رأيت خلل الدخان أروع المشاهد للشروق.

يظل شيء واحد أكيدًا، كان جدي محقًا. يوم أن وجد كي كتابَ سوبيب، اليوم نفسه الذي تعرض فيه للسرقة، ذلك اليوم البائس المحبط الحزين، كان بالفعل يوم حظ كبير.

الآن، سأبدأ تعليم فتى صغير كيف يكتب اسمه.

# توطئة

خالص الشكر للآتي ذكرهم لمساهماتهم ودعمهم:

لجميع كُتّاب الأدب الكلاسيكي الكثيرين الذين ذكرتُ أعمالهم أو اقتبستُ منها في *جامعة الإيجار*. وأشير هنا إلى أنني قد عدلت أعمالهم الأصلية في مواضع عدة من أجل الإيقاع والسرد. وقد ينزعج بعضهم من هذا، لكن أعمالهم هذه في المجال العام، وفي حين ماتوا هم، ما زلت أنا على قيد الحياة، وربما حين سنلتقي سيسامحونني.

ولجوني بويهنر لموافقتها على تضمين قصيدتها الرائعة، *الحب الأبدي*.

ولإريل مادسين، شريكي في العمل، الذي لولاه لما نجح كتابي الأول، *خطابات إلى إميلي*. والذي توفي فجأة قبل أعياد الميلاد عام 2009. وما زلت أفتقد سخريته اللاذعة. عندما كنت في جنازته قررت أن أنهض من خمولي وأبدأ كتابة عمل آخر.

وللمحررين والقراء الكثر الذين ساعدوا على تصحيح أخطائي وتطوير القصة: إيميلي واتس، وكين نيف، وريتشارد بيترسون، وروزماري ليند، ووندي أولريتش، وبالطبع زوجتي أليسون.

ولجو كريدل الذي كان كتابه *موتك بلا فائدة* مصدرًا لوصف خبرة سوبيب بالخمير الحمر.

وابني تريفور الذي أمدني فيلمه الوثائقي وحبه لكمبوديا بموقع قصتي، وأحداثها، وشخصياتها.

ولسانغ لي، وكي ليم، وأطفالهما. إنهم يمسون حياتنا بشكل لا نتوقعه أبدًا.

ولوالديّ مثلي الأعلى دائمًا في الصبر والشجاعة، والحب.

ولأطفالي الرائعين.

وأخيرًا وليس آخرًا، أليسون. في حين ظللت دائمًا مشككًا، (واقعيًا)، ظلت هي المؤمنة بنا. أفلح هذا المزيج جيدًا جدًا.

## أسئلة للنقاش

تجدون في موقع www.therentcollectorbook.com المزيد من الأسئلة والمعلومات الإضافية، بما في ذلك تعليقات الكاتب على العديد من الموضوعات.

1. في بداية الرواية، يَعِد جدُّ سانغ لي بأنه سيكون يوم حظ كبير. في رأيكم، ما الدور الذي يؤديه الحظ في حياتنا؟ كيف تتفق فكرة الحظ مع رسالة الرواية، ومقولة بوذا في صفحة الافتتاحية؟

2. بعد قراءة قصة ساران (سندريلا الكمبودية)، تتناقش سوبيب وسانغ لي في النسخ الأخرى للقصة التي تحمل الرسالة نفسها. تذكر سوبيب أن هذه هي المشكلة، ثم تسأل: «هل نلوم حمضنا النووي لهذه الرغبة المتأصلة في الأمل؟ هل هي آلية بقاء أخرى ببساطة؟ ألهذا نحب ساران وسندريلا، أم يوجد المزيد؟».

كيف تجيبون عن هذه الأسئلة؟ ما التفسيرات المحتملة لهذه الظاهرة؟

3. تقول سانغ لي إن العيش في المكب يجعلك تقايض بالأمل في الغد سد رمق اليوم». كيف قد تنطبق تلك الحالة على أصحاب البيوت الحديثة، والسيارات الحديثة، والطعام الوفير، والبذخ المادي العام؟

4. ذكرتْ سانغ لي أن لمحظوظ السمين «مهارة خاصة في العثور على نقود في القمامة». هل تظنون أن أحدًا ما كان يساعده بوضع النقود له ليجدها؟ وإن كان كذلك، فمن؟

5. حين قالت سانغ لي عن ساعتها: «أحيانًا تستحق الأشياء المعطلة أن نصلحها». إلامَ كانت تشير غير الساعة؟

6. تُبنى المظلات في ستونغ مانشي لحماية جامعي القمامة من الشمس وقت الراحة. ما الأغراض الأخرى التي قد تستخدم فيها؟ ما «المظلات» التي نبنيها نحن في حياتنا؟ كيف ستتصرفون لو ظلت تلك المظلات في حياتكم تُهدَم مرارًا؟

7. في البدء كان كي قلقًا من التغيير خاصة من أن يرى سانغ لي تقرأ. يقول: «أعرف أننا ليس لدينا الكثير هنا، لكننا نعرف أين نقف على الأقل». ماذا يعني في رأيكم؟ متى وجدتم صعوبة في قبول تغيير ما؟

8. تقول سوبيب لسانغ لي: «لتفهمي الأدب يجب أن تقرئيه بعقلك، وتفسريه بقلبك. على الاثنين العمل معًا- وفي الحقيقة أحيانًا كثيرة لا يتفقان». هل توافقون على هذا؟ هل يمكنكم ذكر مثال؟

9. كواه كشول، أو كشط الجلد، علاج قديم تقول سانغ لي إنه يمارس في عائلتها منذ أجيال. هل لدى عائلتكم طرائق علاج انتقلتْ عبر أجيال؟ ما هي؟ وهل تُجدي؟

10. تناقش سانغ لي وسوبيب الأحلام. هل راودكم حلم من قبل غيّر موقفكم من شيء أو قرار أو رأي؟ هل كان من اللا وعي أم من شيء ما أكبر؟

11. في لحظة تأمل، تعترف سانغ لي أنها لا تقصد أن تبدو مشككة، أو يائسة أو خائفة. لكنها خبرتها علمتها جيدًا. فتسأل: «يا جدي أين الحد الفاصل بين الرضا بأقدارنا والتوسل إلى السماء لمدِّنا بغد أفضل؟». كيف تجيبون عن سؤالها؟

12. كثيرًا ما تتحدث سانغ لي مع أجدادها، لكن ليس مع أبيها، حتى قابلت المعالج. لماذا تغير موقفها؟ كيف قد ينطبق المبدأ نفسه على علاقاتنا نحن في الحياة؟

13. ترتدي سوبيب جوربًا بنيًا سميكًا دائمًا، في جميع حالات الطقس. وفي مشهد احتضارها تلاحظ سانغ لي انزلاقه ليكشف عن ندوب كاحليها. كيف في رأيكم حدثت هذه الندوب لسوبيب؟ ما علاقة تلك الندوب (أو مصدرها بالأحرى) بحبها لقصة العنقاء؟ كيف قد تنبعث سوبيب من رمادها مجددًا حرفيًا ومجازًا؟

14. تنتهي القصة بسانغ لي تعيد قصَّ أسطورة فادافاموخا ووصول سوبيب إلى ستونغ مانشي. حين وصلتم إلى هذه النسخة من الأسطورة في نهاية القصة هل تذكرتم نسختها الأولى المذكورة في البداية؟ كيف تغيرت الأسطورة؟ كيف تغيرت سوبيب؟ وكيف تغيرت سانغ لي؟

15. في ختام القصة. ما زالت سانغ لي وأسرتها يعيشون في ستونغ مانشي. هل أرضتكم هذه النهاية؟ أن يظلوا في المكب؟ لماذا، أو لماذا لا؟

مكتبة
t.me/soramnqraa

# ملحوظة من المؤلف

رغم أن *جامعة الإيجار* عمل من نسج الخيال، لكن ستونغ مانشي، موقع الأحداث، مكان حقيقي.

عام 2009، أغلقت الحكومة الكمبودية مكب القمامة الأضخم في العاصمة. وأنشأت بدلًا منه مكبًا آخر على مسافة أميال عدة غرب العاصمة. لا يُسمح بوجود بيوت في المكب الجديد، لذلك يبحث الكثيرون ممن كانوا يعيشون ويعملون في ستونغ مانشي في القمامة في المدينة على أمل إيجاد ما يكفي من النفايات القابلة للتدوير لإعالة أسرهم.

تعرفت أول مرة إلى ستونغ مانشي وناسه في فيلم وثائقي لابني، بعنوان، نهر النصر.

لتعرف كيف تكون الحياة في مكب قمامة، الرجاء الدخول إلى www.riverofvictory.com.

يتابع الفيلم كفاح سانغ لي وأسرتها في المكب وزيارتها اليائسة إلى المعالج في القرية، بأمل إنقاذ ابنها.

انطلاقًا من هذا الوثائقي حاولت كتابة رواية تعكس بدقة هذا المحيط وتلك الأوضاع والشخصيات والحقائق التاريخية المهمة. ثم تجاوزت هذا لتخيل ما قد يحدث إن مُنِحت أسرة في تلك الظروف نعمة القراءة. هذا هو العنصر الخيالي لرواية جامعة الإيجار.

وقد ضمّنت الرواية صورًا مأخوذة من الفيلم الوثائقي، لأمد القارئ برؤية أوضح وفهم أسرع لستونغ مانشي وساكنيه. وليس لتصوير شخصياتي وقصتهم الخيالية الفريدة.

يحضرني الآن قول إرنست هيمنجواي ذات مرة إن «كل الكتب الجيدة تشترك في صفة واحدة، إنها أصدق مما لو كانت قد حدثتْ بالفعل».

ظني أنه محق في هذا.

**الصور**

1. كي ليم وسانغ لي ونيساي.
2. جمع النفايات في المكب.
3. العمل على شاحنات القمامة.
4. النيران تجعل المهمة أصعب.
5. البيت.
6. وقت الاستحمام.
7. نيساي.
8. كواه كشول.
9. طبيب أجنبي.
10. سانغ لي تجمع القمامة وحدها.
11. محظوظ السمين.
12. تيفا ماو.
13. صيد الحلزونات.
14. قرصة بزاقة.

15. الوصول إلى القرية.

16. بيت الخال.

17. المرأة العجوز.

18. المعالج.

19. العلاج

20. سانغ لي تساعد في العلاج.

21. سعيد الآن.

22. نيساي بصحة جيدة أخيرًا.

مكتبة
t.me/soramnqraa

C A M R O N   W R I G H T

# جامعة الإيجار

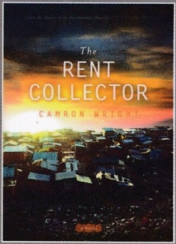


يخوض "كي ليم" و"سانغ لي" معركة البقاء يوميًا في ستونغ مانشي أضخم مكب قمامة في كمبوديا. يكسبان قوتهما اليومي بجمع النفايات القابلة للتدوير من القمامة، ويضيف قلقًا إلى صعوبة حياتهما طفلُهما نيساي المريض بشكل متكرر، والنفقات الإضافية لأدوية لا تعالجه.

حين يزداد الأمر سوءًا، تعرف سانغ لي سرًا عن المرأة الحادة التي يدعونها "جامعة الإيجار"، والتي تأتي كل شهر لتطالب بالنقود، وهو سرٌ يعود إلى أيام الخمير الحمر، ويدفع بأمواج تغير كل من تمر به. تصف "جامعة الإيجار" ببساطة شديدة كيف تغير القراءةُ الحياةَ، وكيف لأي أحد أن "ينبعث من الرماد" في أي مكان.

مكتبة
t.me/soramnqraa

ISBN 978-9921-768-84-8
9 789921 768848

سُطور

Designed by
@6Y4